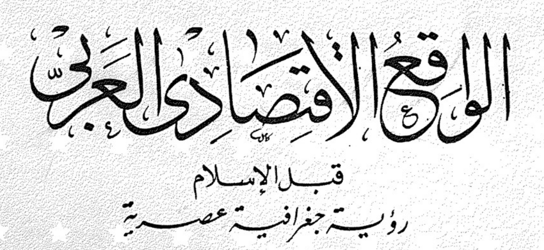
الكتب الجغرافية

٦٣



قبل الإسلام

رؤية جغرافية عصرية

دكتور

صلاح الدين على الشامى

أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا

جامعة صنعاء

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية

جلال حزى وشركاه

الكتب الجغرافية



دكتور صلاح الدين على الشامى

أستاذ الجغرافية بجامعة صنعاء

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه

إهـــداء

الى كل أولئك الذين ،

يجادلون فى الحق من غير علـــم ويحرمون حسن استخدام العقل كما أمرنا اللـــه .

والى كل أولئك الذين ،

يجتهدون فى سبيل علم بالحق ، ويحسنــــــون توظيف العقل كما آمرنـــا اللـــه .

اليهما معـــا وهما يتضـــادان ويتناقضان فى شأن الحـــق ،

أقدم هذه المحاولة عسى أن يهديهم بها الله . والحمد لله رب العالمين .

تصـــدير

حركة الحياة على الأرض ، كما أراد الله لها أن تكون حركة استمرار الى أن يرث الله الأرض وما عليها • وشأن هذه الحركة وهى استمرار شأن كتلة الماء التى تجرى فى النهر ، تسرع وتبطء ، تعلو وتفيض ، تنخفـــض وتغيض ولكنها تظل تجرى وتجرى فى اتجاه المصب •

وحركة الحياة على الأرض كما أراد الله لها أن تكون حركة تعامل مع الأرض الى أن يكرث الله الأرض وما عليها • وشأن هذه الحركة وهى تتعامل أن تصارع فلا تكف وأن تحاول فلا تقنط لكى تنتصر بشكل أو بآخر لحساب الحياة ولبقاء الحياة • والانتصار هو الانجاز الذى كفل ومازال كفيلا بسيادة الانسان على الأرض كما أراد الله أن يكون •

بهذا المنطق ، نحاول فى هذه الرؤية أن نتبين أبعاد الصورة التى تكشف الغطاء عن حركة الحياة فى جزيرة العرب قبل الاسلام • ومن ثم نتبين الكيفية التى تأتى بموجبها التعامل مع الأرض وتكشفت مسيرة الاجتهاد الاقتصادى الذى كفل وأشبع حركة الحياة •

وعندئذ ، نعرف فقط الحقيقة بكل أبعادها • بل نعرف موقف الاسلام الذى انتصر لحساب الحياة الأفضل من حقيقة هذه المسيرة الاقتصادية • ومن يقول أن الاسلام قد رفض محصلة هذه المسير الاقتصادية التى انغمست فى الضلال والخطايا ، يبنى قوله على علم وادراك صحيح • ومن يقول أن الاسلام قد رفض الضلال والخطايا وطهر هذه المسيرة الاقتصادية ، يبنى قوله أيضا على علم وادراك صحيح ولكن من يقول أن الاسلام قد وضع نظاما اقتصاديا وفرض واقعا اقتصاديا لا علاقة له بالماضى الاقتصادى فى جزيرة العرب فعليه أن نؤكد قوله بالعلم والادراك الصحيح •

ويسعدنى أن أعرض الاجتهاد الجغرافى فى شأن تجسيد هذه الصورة التى وظفنا فى تكامل أبعادها وتجميع أوصالها الرؤية الجغرافية ، لكـــل العوامل والمتغيرات التى اشتركت فى صياغة محتوى هذه الصورة • وارجو الله أن تتحقق بها الغاية وعلى الله وحده قصد السبيل •

مايو ١٩٨٣

صلاح الدين الشامى

الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام

رؤية جغرافية

بداية واقتراب

الاسلام وتبنى الحيـاة :

صحيح أن الاسلام وهو دين الحق الذى جب ما قبله وعفا عما سلف وقوم انحرافات الحياة ، قد أسدل ستارا كثيفا من نوره المتألق على الماضى بكل ماله من ايجابيات وبكل ما عليه من سلبيات ، فى جزيرة العرب ٠ وصحيح أن الاسلام وهو دين الرشد الذى بشر بالخير وبصر بالهدى ووعد بالمغفرة ، قد تبنى حركة الحياة ، وهو وليد فى المكان الأنسب فى جزيرة العرب[1] ٠ ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الاسلام هو الدعوة التى انتشلت مسيرة حركة الحياة وعدلت توجهاتها الحضارية والاجتماعية والاقتصادية وأبعدتها عن درب الخطايا وسبل الضلال ٠

وهكذا ، ندرك أن الاسلام وهو دين الرحمة التى وعد بها العباد عندما كتبها على نفسه رب العباد ، قد ترفق وأشفق فى أمر تبنى حركة الحياة ،

---

(١) مكة ليست المكان الأنسب ، لأنها كانت قد احتلت المكانة الأعظم المرموقة على صعيد جزيرة العرب ، أو لأنها قد احتوت الصفوة من تحالف التجاريين قبل الاسلام فقط ، بل لأنها قد تأهلت على المدى الطويل بكل أسباب الانفتاح والتفتح حضاريا واقتصاديا على صـــعيد العالم المتمدين من حولها ٠ وهذا — فى اعتقادى — هو أعظم بعد فعال فى شأن دعوة الى الله ، تطلعت الى الانتشار الأسرع على المدى الأوسع فى ربوع العالم ٠ وهل انتشرت هـــذه الدعوة بالفعل وهل تألقت الدنيا بنور الاسلام ، على مسالك ودروب غير دروب الانفتاح والتفتح ؟

راجع الشامى ، صلاح الدين وعبد المقصود ، زين الدين : جغرافية العالم الاسلامى ط ٢ منشأة المعارف — الاسكندرية ١٩٨٢ ٠

من غير تهاون في الحق ، ودون تفريط في الصحيح أو الصواب • بمعنى أنه ما اعترض مسيرة حركة الحياة لكي تتوقف ثم تبدأ من جديد ، ولكنه بدد الظلمة وأشاع نورا صحح مسار حركة الحياة على كل درب وفي كل اتجاه ، ومن أجل كل هدف ، لحساب الانسان وحق السيادة على الأرض ، أو لحساب الانسان وطلب الحياة الأفضل في الدنيا ، وفي الآخرة •

هذا ، ويمكن أن ندرك بالفعل ، كيف ترفق الاسلام بالعباد وبادر الى نصرة الحياة ، عندما أمسك بزمام حركة الحياة من حيث انتهت الخطوات قبل الاسلام(٢) ، ولم يسأل عن الماضي • كما يمكن أن ندرك أيضا ، كيف اشفق الاسلام على مصالح العباد ، عندما صحح مسار هذه الحركة تصحيحا جنبها سوءات الجاهلية التي كانت قد انغمست وتمادت في الفحش والفجور والخطايا ،بكل القصد والتعمد أحيانا ، ومن غير أي قصد ودون تعمد أحيانا أخـــرى •

بل قل ينبغي أن نتلمس — بكل الثقة — مبلغ الاشفاق على حركة الحياة ونبضها الحيوي ، ومبلغ الرفق بمصالح ومنافع الناس فيها ، والاسلام قد بادر الى تطهيرها من الكفر والفجور والضلال • كما ينبغي أن ندرك كيف بصرها وشد أزرها وسدد خطاها ، لحساب الحياة والتعامل والتطور والمضي في الاتجاه الصحيح ، طلبا وتطلعا والحاحا بكل الطهر والعفاف والايمان ، الى ما هو أفضل •

وليس أجدى والباحث يطل — بكل الصدق والايمان والموضوعية — على حركة الحياة في ربوع جزيرة العرب وهي وراء أستار كثيفة وابهام شديد أخفى الملامح في هذا الماضي البعيد قبل الاسلام ، ويدرك — بكل الثقة — كيف ترفق الاسلام بها وهو الذي صحح المسار وحفز وحض وفرض عليها كل عوامل وأسباب ودواعي التغيير الى ما هو أفضل لحساب الانسان ، من أن يستشعر

---

(٢) تميز الرؤية التاريخية في عصر ما قبل الاسلام بين مرحلتين هما ، مرحلة قديمـة من حوالى الألف الثانية قبل الميلاد وشملت عصر دول سبأ وحمير ، ومرحلة الجـــاهلية التي استمرت من القرن السادس الميلادي الى ظهور الاسلام • ومع ذلك فان الرؤية الجغرافية لا تلتزم بهذا التمييز ولا تجد مبررا كافيا له • والحديث عن قبل الاســـلام في اعتقادي هو حـــديث موصول السياق • وحركة الاقتصاد هي حركة استمرار وتوالى على هذا المدى •

راجع العدوى ، ابراهيم : التاريخ الاسلامي ، آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية ط ١ الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٨ •

أمرين أو عاملين هامين • وهذان العاملان اللذان يحكمان التفاعل الذى أسفر ويسفر دائما عن حركة الحياة هما :

أولا : قيمة المكان فى الموقع الجغرافى الوسيط الحاكم بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ، أو بين عالم المشرق وعالم المغرب ، على صعيد عالم عرف المدنية وادرك واستثمر منذ زمن بعيد ، جدوى العلاقة المتبادلة والمنافع المشتركة ، لحساب المصير الانسانى الواحد •

ثانيا : قيمة الانسان وجدوى حركة حياته التى عاشها واستحق بموجبها مكان السيادة فى احضان المكان ، والانتفاع الفعلى بالآداء الوظيفى النشيط ، الذى استثمر فاعلية المكان ، حتى جنى ثمرات العلاقة والمنافع التى رسخت مفهوم المصير الانسانى الواحد •

وما من شك فى أن هذا الاستشعار الذى يجيد استخدام التقويم الموضوعى ، أو الذى يحسن توظيف حساب الجدوى ، ضرورى ومفيد وبناء • بل قل ـ بكل اليقين ـ أنه السبيل الجيد الى التصور الواقعى الذى لا يضل ولا يضلل ، عندما يتلمس البحث عن الحقائق وجوهرها الموضوعى وهى وراء أستار الغموض والابهام •

وهذا التصور الواقعى الذى لا ينبغى أن يضل أو أن يضلل هو عين ما يرنو اليه البحث ، عندما تبحث الدراسة الموضوعية فى اطار الرؤية الجغرافية أو الاقتراب الجغرافى عن :

١ ـ الكيفية التى استثمر الانسان فى جزيرة العرب قبل الاسلام بموجبها حضوره اليقظ اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا فى ربوع المكان •

٢ ـ الكيفية التى توجهت بموجبها مسيرة حركة الحياة وهى فى طلب العيش قد كرست اجتهادها المثابر فى الآداء الوظيفى الاقتصادى المكافح لاستخدام الموارد المتاحة فى المكان وما حول المكان •

٣ ـ الكيفية التى انساق بموجبها هذا التوجه الاقتصادى فى دروب ومسالك، حتى جنت حركة الحياة ثمرات الاجتهاد الاقتصادى والحضارى والاجتماعى ولكنها باتت كلها فى ضلال مبين ، أو حتى انغمست فى الخطيئة والحرام •

تمهيد

جزيرة العرب وجود الحياة في المكان والزمان

(١)

جزيرة العرب ، الموقع والمكان :

عن جزيرة العرب فى المكان الجغرافى ، ينبغى أن نذكر كيف تقع وتتمدد فى جنوب غرب آسيا • ثم يجب أن ندرك ــ بالضرورة ــ كيف جنت وتجنى الحياة فى ربوعها الفسيحة ثمرات هذا المكان وجدواه ، وهى فى قلب الموقع الحاكم فى جزيرة العالم[١] ــ آسيا وأفريقية وأوروبا ــ وتكاد تلتحم أطرافها أو تتصل انحاءها بالأرض الأفريقية ، من خلال باب المندب وشبه جزيرة سيناء •

وأنظر الى خريطة جزيرة العرب ، وهى فى هذا الصعيد ، تلقى بأبعادها الطولية شمالا ، وتتمدد أو تنتشر حتى تلتحم التحاما حقيقيا بالأرض فى الشام والعراق • ويتردى فى الخطأ من يجسد دور الصحراء ، وهى تدعم حاجز المسافة بين جزيرة العرب وأرض الشام والعراق ، أو وهى تعترض العلاقة أو الصلة بينهما • بل قل انه عين الخطأ لأن الصحراء لم تمثل الفاصل الذى فصل بين حركة الحياة فى جزيرة العرب ، وحركة الحياة فى الشام والعراق فى أى وقت من الأوقات قبل الاسلام وبعده •

ومن خلال هذا الامتداد الطولى الشمالى الى أرض الشام والعراق ، أطلت

---

(١) جزيرة العالم ، تعبير أو اصطلاح جغرافى عصرى • ولقد شاع استخدامه على اعتبار أن آسيا وأفريقية وأوروبا ، هى التى ضمت وتضم أكثر من ٨٥٪ من الحضور الانسانى من سكان العالم • بل انها الأرض التى شهدت بداية حركة الحياة وشهدت نموها الحضارى ونضجها الاجتماعى وثورتها الاقتصادية ، عندما تحول الانسان تحوله الظافر من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء •

وتطل جزيرة العرب وحركة الحياة فى ربوعها على الطرق والدروب والمسالك الى عالم البحر المتوسط • بمعنى انها تقع فى المكان الجغرافى الذى هيأ لها ووجه انفتاحها الى موقع التقاء كل الطرق بين البحر الأحمر والخليج العربى والبحر المتوسط ، وهى أذرع الماء التى تخترق حاجز الصحراء الأعظم فى قلب جزيرة العالم الكبرى •

ومن ثم قل — بكل اليقين — أن جزيرة العرب قد أطلت من مكانـــها الجغرافى على الأقطار وعلى المدنيات من حولها • بل لقـــد توجهت وتعاملت وتحكمت ، وهى ممسكة بزمام الموقع الحاكم Commanding ، الذى شهد ويشهد التقاء الطرق والحركة والعلاقة والمصالح المتبادلة بين عالـــم المحيط الهندى من جانب ، وعالم البحر المتوسط من جانب آخر •

وأنظر الى خريطة جزيرة العرب مرة أخرى وهى فى هذا الصعيد ، تلقى بأبعادها الطولية جنوبا ، وتتمدد حتى تطل على السطح المائى للمحيـــط الهندى • ويتردى فى الخطأ من يجسد دور البحر ، وهو يدعم حاجز المسافة بين جزيرة العرب والأرض فى القرن الأفريقى ، أو وهو يعترض العلاقـــة والتعامل مع البحر واقتحام المحيط الهندى اقتحاما مغامرا • بل قل انه عين الخطأ لأن المحيط لم يصطنع الفاصل الذى فصل بين حركة الحياة فى جزيرة العرب ، وحركة الحياة فى غرب أفريقية والهند ، فى أى وقت من الأوقات قبل الاسلام وبعده •

ومن خلال هذا الامتداد الطولى الجنوبى المحصور بين الخليج العـــربى والبحر الأحمر ، أطلت وتطل جزيرة العرب وحركة الحياة فى ربوعها على المسالك البحرية الى عالم المحيط الهندى • بمعنى أنها تقع فى المكان الجغرافى الذى هيأ لها ووجه انفتاحها توجيها مباشرا الى اسقاط أو اختراق حاجـــز المسافة واقتحام المحيط الهندى فى ابحار جسور مغامر وفعال •

ومن ثم قل — بكل اليقين — أن جزيرة العرب وحركة الحياة فيها قد أطلت من هذا المكان على عالم ومدنيات عريقة • بل لقد توجهت من غير تردد وتعاملت وانفتحت انفتاح التاجر الوسيط مع عالم المحيط الهندى فى أفريقية الشرقية وفى شبه القارة الهندية ، وهى التى أمسكت بزمام الموقع الجغرافى الحاكم وأمنت العلاقة والمصالح المتبادلة بين عالم البحر المتوسط من جانب ، وعالم المحيط الهندى من جانب آخر •

وهكذا كان وضع جزيرة العرب ووضع حركة الحياة فى ربوعها ، فى المكان القلب من جزيرة العالم ، وضعا جغرافيا حاكما(٢) فى الماضى وفى الحاضر والمستقبل للتحرك المرن والعلاقات وقنوات الاتصال بين مصالح الحياة فى الشرق والغرب • بل قل — عن يقين — أن جزيرة العرب فى جنوب غرب آسيا ، قد احتلت وما زالت تحتل أرض الجسر واشرفت ومازالت تشرف على مسالك العبور فى جزيرة العالم • ولقد شهدت هذه المسالك ومازالت تشهد الحركة والاتصال والتعامل الحيوى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط فى الماضى البعيد قبل الاسلام وبعده ، وفى الحاضر المعاصر على حد سواء •

وسواء كانت جزيرة العرب فى المكان القلب من جزيرة العالم ومدنياته العريقة ، أو كانت فى الأرض الجسر والمعبر بين أطراف جزيرة العالم ، فان وجود حركة الحياة التى تحلت بالانفتاح وتحررت من الانغلاق داخل جزيرة العرب ، يعنى بالضرورة انها قبضت بيد حاكمة قوية أحيانا أو بيد متحكمة صارمة أحيانا أخرى ، على زمام التحرك والعلاقات وقنوات الاتصال والتعامل التجارى الحضارى بين الشرق والغرب • وهل لا يستطيع من قبض على زمام الحركة والتعامل التجارى الحضارى بين الشرق والغرب ، وهو حاكم أو وهو متحكم ، أن يملى ويتسلط على مسيرة حركة الحياة ومصلحة الانسان فيها ؟

بل وهل ننكر أو هل نستنكر انفتاح جزيرة العرب وانفتاح حركة الحياة فى ربوعها وهى فى هذا المكان أو وهى فى هذا الموقع الجغرافى الحاكم ؟ ومن غير أن نتلمس أسباب أو قدرات أو موجبات هذا الانفتاح الحقيقى ، وما أسفر عنه من تفتح توثب بكل التطلع الى جنى ثمرات الانفتاح ، يجب أن نذكر أن جدوى هذا الانفتاح وحسن توظيفه لحساب الحضور السكانى فى جزيرة العرب كان مطلوبا بكل الالحاح فى الماضى والحاضر على حد سواء • وهل يمكن أن نتصور انقطاع الصلة أو تجمد العلاقة أو انعدام التعامل التجارى بين الشرق والغرب ؟

والالحاح على هذا الانفتاح وحسن توظيفه وجنى ثمراته فى أى وقت من الأوقات ، ليس مطلوبا لحساب حركة الحياة وحضورها اليقظ فى جزيرة

---

(٢) الشامى ، صلاح الدين ، الصقار ، فؤاد : جغرافيـــة الوطن العربى الكبير ط ٢ الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٥٦ — ٦٩ •

العرب فقط ، بل هو انفتاح مطلوب لحساب المصالح المتبادلة والمنافع العامة والمصير المشترك لكل حركة الحياة وحضورها النابض المنتشر على صعيد الانحاء المتفرقة فى جزيرة العالم • بمعنى أن نبض حركة الحياة فى ربوع جزيرة العرب وانضباط هذا النبض الذى مارس هذا الانفتاح وأجاد توظيفه واستثمر آدائه الوظيفى ، كان بكل الضرورة ، فى الماضى والحاضر من وراء النبض الحيوى المستمر فى ربوع جزيرة العالم •

وعن جزيرة العرب فى هذا المكان الجغرافى ، الذى جسد أبعاد الانفتاح واصطنع جدواه الاقتصادية والحضارية ، ينبغى أن نذكر كيف أعدت الأرض وكيف جهزت وتهيأت فى عصر جيولوجى سابق لاستقبال كل حدث خطير انتفع بهذا الانفتاح • بل يجب أن نتبين معنى ومغزى هذا الاعداد أو هـذا التجهيز وكيف اشترك عامل التغير المناخى على المدى الجيولوجى منذ الزمن الثالث اشتراكا مؤثرا أكثر من أى عامل آخر فى اصطناع أرض المسرح المهد الأنسب لظهور الانسان •

والتغير المناخى(٣) الذى نعنيه بالفعل ، هو تحول فى كم المطر وفى

---

(٣) دراسات كثيرة ، تلك التى حاولت أن تكشف الغطاء عن معنى التغير المناخى ، وأن تحدد مداه • ولقد توالت زيادة المطر فى أربع دورات على الأقل منذ حوالى النصف الثانى من الزمن الجيولوجى الثالث• وهناك محاولات جادة لمتابعة التزامن بين دورات المطر الغزير فى نطاق الصحراء وشرق أفريقية • ودورات الجليد وذبذباته فى نطاق أوروبا • ولقد وقعت دورة جفاف بين كل دورتين من دورات زيادة المطر • وتمثلت دورات المطـــر فى (أ) دورة المطر البنطى فى الميوسين (ب) دورة العصر المطير الأول فى البلايستوسين الأسفل (جـ) دورة العصر المطير الثانى فى البلايستوسين الأعلى (د) دورة المطر فى العصر الحجرى الحديث • ولقـــد عايش الانسان الدورات الثلاثة الأخيرة من دورات المطر اعتبـــارا من البلايستوسين • وحسب رأى الدكتور حزين كان الدور المطير الأول دورا طويلا جدا • بل لقد كان شديد الدفء وقابل ذلك الزمن الذى شهد مرحلة جليد مندل وجليد رس وفترة تراجع الجليد فيما بينهما • وعلى صعيد المساحات التى شهدت هذا المطر والدفء كان النمو لنباتى الكثيف المتنوع • ولم يحدث التغير الا فى البلايستوسين الأوسط الذى شهد الجفاف الشديد وربما شهدت المنطقة أيضـــا نشاطا واضطرابا حيث سادت حركات باطنية مفاجئة (زلازل وبراكين) تأثرت بهـــا مناطق الضعف القشرى على جانبى الأخدود الافريقى العظيم • ولابد أن الاضطراب قد شمل جزيرة العرب • وكان البلايسنوسين الأعلى المرحلة الأخرى التى شهدت الأرض فيها الهـــدوء حيث كفت الحركات الباطنية المفاجئة وزاد المطر زيادة كبيرة مرة أخرى • ودور المطر فى هذه المرة كان طويلا وغزيرا • ولقد أعاد للنمو النباتى حيويته وكثافته وتنوعه • وربما تزامنه زيادة المطر فى هذه الدورة مع فترة جليد فرم فى أوروبا • وحياة الانسان على هـذا الصعيد الذى

توزيعه وفى فاعليته وجدواه ٠ ولقد ترك هذا التغير أو التحول بصماته فى ربوع جزيرة العرب ، وهى تشهد التغير من عصور سجلت زيادة المطر وارتفاع معدلاته وتصاعد جدواه ، الى عصور جيولوجية أخرى سجلت نقصان المطر وانخفاض معدلاته وتدنى جدواه ٠ ومن غير أن نتقصى أسباب وموجبات هذا التغير المناخى ، يجب أن ندرك كيف أدت :

١ — زيادة المطر وتصاعد جدواه بالضرورة الى ازدهار وكثافة النمو ٠ بل قل هى زيادة انتعشت بها الحياة بكل أنواعها وابعادها وانضبط بموجبها ايقاع نبضها الحيوى ٠

٢ — نقصان المطر وتدنى جدواه بالضرورة الى انتكاس وانهاك النمو٠ بل قل هو الشح الذى اهدر حق الحياة وأضر بها فى صور نبضها الحيوى وايقاعاتها ٠

والثراء وازدهار النمو النباتى الطبيعى الذى كفلته زيادة المطر فى البلايستوسين الأدنى مرة ، وفى البلايستوسين الأعلى مرة أخرى ، وتمثل فى كساء خضرى متنوع غطى صفحة الأرض فى ربوع جزيرة العرب ، ينبغى أن يرجح الرأى الباحث عن الوطن الأصلى الذى استقبل الانسان ٠ بل ينبغى أن يؤشر بموجبه البحث الى هذا الوطن الأصلى الذى تفرد بمواصفاته وليس الى غيره(٤) ٠

شهد هذا التغير المناخى قد تأثر بالزيادة فى المطر مثلما تأثر بالجفاف ٠ وهناك علاقة بالضرورة بين وطأة الجفاف من جانب واجتهاد الانسان لمواجهة الموقف وتأمين حياته أو التملص على الأقل من ضغوط هذا الجفاف من جانب آخر ٠

راجع : غلاب ، محمد السيد ، والجوهرى ، يسرى : الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ط ١ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣ — ١٨١ ٠

(٤) اعتمد البحث عن الوطن الأصلى للانسان فى ربوع الأرض على أسلوب الاستبعاد ٠ ولقد برز هذا الاستبعاد لسبب معقول أو لآخر اسقاط مساحات كبيرة ٠ بل توقع البحث عدم وجود الجو المناسب أو الواقع الجغرافى الطبيعى المناسب لظهور الانسان واحتضان طفولة حياته٠

وعامل المناخ مثلا ، أدى الى اسقاط كل المساحات التى كان قد غطاها الجليد فى عصر البلايستوسين وما من شك فى أن الواقع الجغرافى الطبيعى فى هذه المساحات كان أقسى من أن يحنو على الانسان ويترفق بطفولته ويطعمه من عطاء مثمر فى الأرض ٠

وعامل الموقع أيضا ، أدى الى اسقاط كل المساحات التى كان الانتشار متاحا اليها وليس متاحا منها ٠ وما من شك فى أن الأرض التى تحفز الانتشار وتيسر أمره أنسب لظهور الانسان المبكر من الأرض التى لا تيسر أمر الانتشار ٠ والا فكيف نفسر سرعة انتشار الانسان لكى يوالى اهتمامه بعمران الأرض ؟ ٠

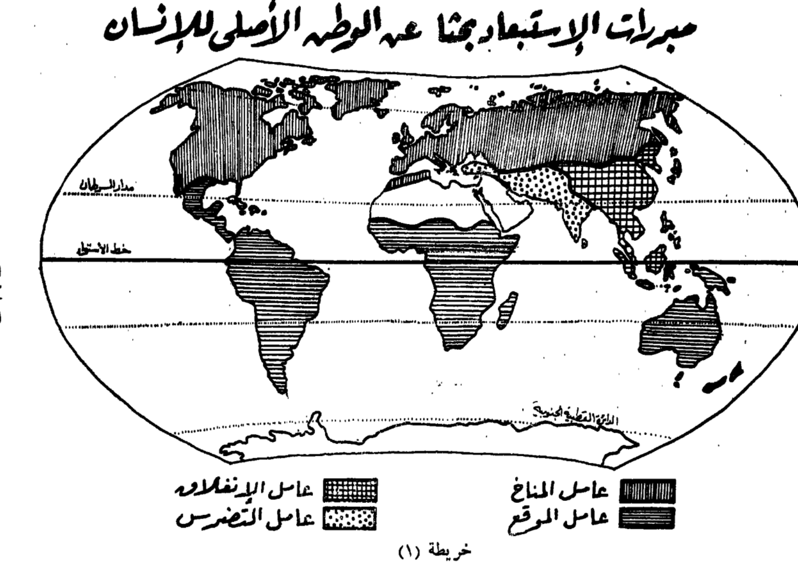
ذلك أن ظهور الانسان وهو وافد يضع أقدامه على الأرض ، أو وهو يخطو أول وأصعب الخطوات ، لكى تبدأ حركة الحياة البشرية وتمضى فى طريقها وتلقى ما قدر عليها ، كان بالضرورة فى أحضان بيئة دافئة معطاءة • بمعنى أن نتوقع بداية حياة الانسان فى ضيافة الواقع الجغرافى الطبيعى فى الأرض الأنسب التى أكرمت وفادته وأقامت أوده وشدت أزره • وهل هناك أنسب من البيئة المعطاءة التى أطعمته وحنت عليه وترفقت بطفولته على الأرض ؟ بل وهل نشك أو هل نتشكك فى أن الواقع البيئى فى هذا الوطن المهد على على صعيد جزيرة العرب قد أمن حياة الانسان الأول ؟ وهو لم يمتلك – آنذاك – حيلة أو خبرة أو قدرة لكى يواجه التحدى ويطوع الأرض حتى تطاوعه وتمتثل له وتنصاع ، فيصطنع من مواردها عيشه بكده وعمله واجتهاده •

وعن جزيرة العرب فى هذا الماضى السحيق ، وهى المهد الحنون الذى ترفق الواقع الطبيعى الذى ساد فيه فى البلايستوسين بالانسان وحضوره فى موطنه الأصلى الأول ، ينبغى أن نذكر – بكل الثقة – كيف تنعم بالحنان لبعض الوقت وكيف اشتد أزره وفقد النعيم • وعندئذ ، نفهم جيدا كيف كان التغير المناخى وكيف لم تستمر العوامل البيئية التى ترفقت بالانسان وحنت على حركة الحياة • وهل كان من مصلحة الانسان وحركة الحياة فى هذه الأرض الأنسب أن يبقى متنعما كسولا وخاملا فى أحضان الحنان ؟ وهل ننكر جدوى التغير المناخى وكل دواعى وموجبات التغير المناخى والاقتصادى التى استنفرت قدرات الحياة ؟

هذا ، وما من شك فى أن التغير المناخى وما بنى عليه أمر النقصان الواضح فى كم المطر السنوى ، قد بشر بميلاد أخطر تحد واجه حركة الحياة فى جزيرة العرب • بل قل أن الاتجاه الى حالة الجفاف قد أنهى كل أسباب أو

والاستمرار فى هذا الاستبعاد ، قد ضيق الاطار الذى نوقع البحث فيه وجود الوطن الأصلى للانسان • وانحصر هذا التوقع فى مساحة الأرض التى تشمل نطاق الصحراء الحارة من الخليج العربى شرقا الى المحيط الأطلنطى غربا • والأرض فى هذا النطاق الفسيح هو الأنسب ، لأن المناخ فى عصر البلايستوسين وهو ممطر فى دورتين ، كان فى وسعه أن يكفل الحياة وأن يترفق بالانسان وأن يطعمه •

وعندما نتمادى فى البحث عن الوطن الأصلى فى هذا النطاق ، نوظف عامل الدين فى شأن ترجيح كفة جزيرة العرب ، وتصور الواقع الجغرافى الطبيعى فيها الذى أعد مهدا مناسبا لاستقبال الانسان • وهل أفضل أو أنسب من مهد يكرم وفادة الانسان لبعض الوقت ويدعوه الى الانتشار تلاحقه ضغوط اقتصادية عندما يشتد عوده ؟


مبررات الإستبعاد بحثا عن الوطن الأصلي للإنسان
مدار السرطان
خط الاستواء
الدائرة القطبية الجنوبية
عامل المناخ
عامل الموقع
عامل الإنغلاق
عامل التضرس

خريطة (١)

كل مظاهر الرفق والحنان الذى تنعمت به الحياة فى الوطن الأصلى • ولقد زج بالحياة فى مصارعة ، وكان حتما على الانسان أن ينتصرفيهالحساب الحياة • وهل هناك أجدى من تغير الواقع الجغرافى البيئى تغيرا استنفر قدرات الانسان وفجر طاقات الابداع فيه ؟ وهل اكسبت المصارعة الحياة شيئا أهم واجدى من القدرة على الصمود فى مواجهة التحدى المناخى وضغوطه الاقتصادية ؟

وباستثناء الزيادة الطفيفة فى كم المطر السنوى فى العصر الحجرى الحديث ، كان التوجه من البلايستوسين وزيادة المطـــر فى دورتيه الأولى والثانية ، الى عصر الهولوسين ونقصان المطر والجفاف على صعيد جزيرة العرب توجها حتميا ومستمرا • وهذا التوجه الى الجفاف توجها تدريجيا ، قد اشتدت وطأته وقسوة ضغوطه على حركة الحياة بعد العصر الحجـــرى الحديث ، وهو ما يعنى بلغة العصر التصحر •

وهذا التصحر على صعيد جزيرة العرب ، لا يعنى شيئا أخطر من التحول والتغير من حالة الثراء والنمو النباتى الطبيعى المزدهر الذى أطعم الحيـــاة وكفلها ، الى حالة القحط والنمو النباتى المتدهور الذى قتر على الحـــياة وفزعها • بل قد نستشعر بالضرورة الاستمرار والتمادى فى الجفاف على المدى الطويل والامعان فى حالة التصحر •

وهكذا كان التغير المناخى على صعيد جزيرة العرب الذى باشر الضغط على حركة الحياة فيها • وهو لا يعنى غير الشح التقتير والقحط والنقصان فى الغذاء ومورد الماء • بل قل انه الخطر الذى لم يسفر عن شىء أخطر من انتكاس النمو وذبول النبات الطبيعى والتدهور فى كثافة الغطاء الخضرى على امتداد صفحة الأرض • وهذا هو الذى نعنيه بالضبط بالتصحر والتحول على المدى الطويل الى الصحراء العارية • وهذا هو أيضا عين التحول الذى تضررت وتأثرت به الحياة فى أنحاء جزيرة العرب •

والأهم من ذلك كله ، هو أن ندرك بكل اليقين الجغرافى الثابت معنى هذا التحول الى الجفاف ، أو هذا التمادى فى التصحر فى شأن :

١ — قيمة المكان الذى احتوى الحيـــاة وتعرضت جدواها للتغير فى الاتجاه المضاد لمصلحة الانسان •

٢ — مبلغ تأثير هذه الجدوى المتغيرة فى الاتجاه المضاد لمصلحة الانسان

على حركة الحياة(٥) ٠

وعندئذ نفهم جيدا كيف تضررت حركة الحياة وحضور الانسان الذى طالما تنعم بالثراء الطبيعى وانتفع بحنانه الذى ترفق بها وأطعمها وأعطاها وأمنها لبعض الوقت على مدى كل عصر زاد فيه المطر فى البلايستوسين٠ وينبغى أن نتدبر جيدا فى كنه ومغزى ما أسفر عنه هذا التحول الى الجفاف أو هذا التمادى فى التصحر ، من ضغوط اقتصادية ٠ وكم شقيت بموجب هذه الضغوط الاقتصادية وتضررت حياة الانسان فى احضان هذا المكان ٠ بل قل انها هى بعينها التحديات الصعبة التى انتهكت حق الحياة وفزعت أمن الناس ، واستنفرت فى حضورهم الاجتماعى ، ارادة التصدى والصمود لحساب التشبث والانتصار لمصيرهم فى الحياة ٠

وهل يعنى ذلك كله ، شيئا أهم وأعظم من أن يصطنع التغير المناخى الضغوط الاقتصادية والتمادى فيما انطوت عليه من تقتير وقحط ضيق الخناق على الانسان وانتهك حقوق الحياة ، أو فيما اعلنت من عدوان سافر على مصالح الحضور السكانى فى ربوع جزيرة العرب ؟

وهل تسفر هذه الضغوط الاقتصادية عن شىء أهم وأجدى من استنفار حقيقى وضع الانسان المتضرر فى مواجهة التحدى الحقيقى ، وحمله مسئولية احباط أو ابطال مفعول هذا التحدى ؟

وما من شك — على كل حال — فى أن هذا الجفاف أو الاتجاه الطبيعى الى التصحر ، قد جهز وأعد حلبة المصارعة ٠ وما من شك فى أن الضغوط الاقتصادية قد استنفرت فى الانسان ارادة الدخول وهو الطرف المتضرر فى هذه المصارعة من أجل الحياة ٠

ومن بعد ذلك كله، يمكن أن نرقب هذه المصارعة التى تمادت وتعددت جولاتها مع التمادى فى الجفاف والتصحر ٠ كما يمكن أن نتبين كيف وظف قدراته

---

(٥) راجع رأى لطفى عبد الوهاب فى تأثير المناخ على تنشيط الانسان وحفز قدراته التى أسفرت عن الانجازات الحضارية ٠

يحيى ، لطفى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الاسلام ط ٢ ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٧ ، ٢٨ ٠

حينا وقيمة المكان حينا آخر فى سبيل الانتصار • ولكن يبقى بعد ذلك السؤال الأهم عن محصلة هذه المصارعة التى لم تهدأ على المدى الطويل اعتبارا من نهاية العصر الحجرى الحديث •

والسؤال الأهم الذى نعنيه هو ، هل أفلح الحضور السكانى فى مواجهة هذا التحدى العويص ، وحسم المصارعة ، لحساب مصلحة الحياة وتأمين مسيرتها ؟ بل قل هو بصيغة أخرى ، هل واصل الانسان الصمود فى هذه المصارعة وكيف انتصر لمصيره فى جولاتها ؟ • ثم كيف أحبط الانسان مفعول هذا التحدى وطوعه ، وكيف استثمر لحسابه نتيجة هذه المصارعة ؟

•• •• ••

(٢)

جزيرة العرب ، الانسان وحضوره :

عن جزيرة العرب وطن الحضور الانسانى ومهد حياته ، ينبغى أن نذكر كيف عاش هذا الحضور فى مهد أنسب • بل لقد شب فى أحضان واقـــع اقتصادى مناسب وعاش عيشة الرضا والاشباع فى مرحلة مبكرة طويلة من عصر البلايستوسين • وكان من شأن المطر الغزير فى دورات زيادة المطر فى البلايستوسين الادنى وفى البلايستوسين الأعلى ، ومن شأن الدفء فى هذا المناخ الأنسب ، ومن شأن الثراء النباتى الطبيعى فى مراحل هذا العصر، أن يصطنع الواقع الجغرافى الطبيعى فى بيئة ترفقت بالانسان • ولقد لبى الثراء مطالب الانسان وأطعمه وأمن وجوده فى فجر حركة الحياة الانسانية المبكـــر •

وهناك اتفاق بين زمرة من الباحثين وليس كل الباحثين عن مكان ظهور الانسان على الأرض • وبصرف النظر عن دلالات البقايا البشرية التى عزز بها بعض الباحثين اعتراضهم ، تؤكد هذه الزمرة على أن نطاق الصحراء بين الخليج العربى شرقا والمحيط الأطلنطى غربا ، قد احتوى هذا المكان الأنسب •

وفى اعتقادى أن جزيرة العرب التى احتلت أرض الموقع الجسر بين أنحاء جزيرة العالم فى هذا النطاق الصحراوى هى ، المكان الأنسب لهذا المهد • وصحيح أن توظيف العامـل الدينى الذى نستخلصه من القصص الدينى يدعم

هذا الاعتقاد(٦) ، ولكن كيف لا تكون جزيرة العرب فى الرؤية الجغرافية التى لا تتعصب مكانا من أنسب الاماكن التى يظن أنها قد احتوت المهد الأنسب لظهور الانسان وبداية رحلة حياته وانتشاره فى أنحاء الأرض ؟ ٠

والثراء الطبيعى والتنوع النباتى الكثيف فى هذا الموطن المعطاء ، قد أشبعه وكفله وترفق به ، وهو يخطو خطوات الحضور المثير على صعيد الأرض ٠ بل قل – بكل اليقين الجغرافى – أن موقع هذا الوطن الأنسب ، قد كفله ووجهه ، وهو يعد العدة أو وهو يتأهب ويمسك بزمام السيادة على الأرض ، امتثالا لارادة الله رب العالمين ٠

وعن جزيرة العرب المهد الأنسب للحضور الانسانى الأول ، ينبغى أن نؤكد – بكل الوعى الجغرافى – على أنه ما كان فى مقدور الانسان ولا فى مقدور أو فى وسع حركة حياته ومسيرته أن تبقى أو أن تصمد أو أن تنتصر فى هذا المكان الأنسب ، لولا أن ترفقت به خصائص الواقع البيئى ، واشفقت وحنت عليه الحنو كله لبعض الوقت ٠ وهل احتاج الحضور الانسانى المبكر من العناية الى شيء أهم وأجدى من هذا الحنان ، لكى يتعايش تعايشا سويا مع الواقع الجغرافى فى هذا المكان الأنسب ؟

والواقع البيئى فى جزيرة العرب ، الذى تميز بالدفء قد آمن الجو الأنسب فى عصر هذه البداية المبكرة المثيرة ٠ والواقع البيئى الذى طفح بالثراء وكفل الحد الأمثل من العطاء الغذائى فى فجر الحياة الانسانية ، قد اصطنع الواقع الاقتصادى فانتفعت وتنعمت بسخائه حركة الحياة ٠ بل قل انه الواقع الاقتصادى الأمثل الذى كفل وأمن غذاء الانسان ، من غير أن يبذل أى جهد فوق الطاقة ، أو من غير أن يبدى أى اجتهاد فى شأن اصطناع مقومات هذا الواقع ٠ وهل كان فى وسع الانسان آنذاك أن يفعل شيئا غير استهلاك ما وفرته الطبيعة من غذاء ؟

وهكذا سدد الواقع الجغرافى الطبيعى على صعيد جزيرة العرب خطوات حركة الحياة ٠ بل قل أنه قد اعد الواقع الاقتصادى الأنسب للانسان فى ربوع هذا الوطن ٠ ولقد شد عطاء هذا الواقع آزر الانسان وانتصر له حتى اشتدعوده

---

(٦) لا ينبغى التفريط فى جدوى العناية (الله) التى كفلت الانسان وقدرت عليه كيف يواجه مصيره ٠

وقويت سواعده واتسعت حيلته واكتسب بعض الخبرات والمهارات ، قبل أن تفاجئه التحديات الصعبة وتحمل عليه أو قبل أن تحتم عليه هذه التحديات أن ينازلها وينتصر عليها • وهل كان فى وسع الانسان أن يمتلك زمام مصيره حتى تترسخ سيادته على الأرض ولا يفرط فى جدواها ، من غير أن يشتد عوده وتقوى قبضته وينتصر على التحديات التى واجهها ؟ وهل نتوقع للانسان أن يفلح فى اصطناع مقومات الواقع الاقتصادى الذى أكد سيادته على الأرض، من غير الانتصار الايجابى أو الانتصار السلبى على هذه التحديات وابطال مفعولها ؟

وعن مصير الانسان الذى تنعم فىاطار هذا التعايش معالواقع الاقتصادى المعطاء ، ينبغى أن نذكر كيف انتهك التحدى هذا النعيم • بل ينبغى أن ندرك كيف واجه الانسان هذا التحدى المناخى مع أول حلول لدورة جفاف حقيقى فى عصر البلايستوسين الأوسط فصلت بين العصر المطير فى البلايستوسين الأدنى والعصر المطير فى البلايستوسين الأعلى • ولقد تمثل هذا التحدى فى نقص مورد الماء وأسفر عن تدهور النبات الطبيعى • وهذا التغير هو الذى هدد أمن الحياة ومصيرها تهديدا مثيرا • وكان ذلك الموقف الصعب أخطر نكسة طبيعية أيقظت الانسان من دفء الحنان فى المكان ، ودعته الى الدفاع عن بقائه فى أى مكان •

ولقد أسفر ذلك الموقف الصعب وما انطوى عليه من ضغوط شديدة ، عن اخلال فعلى بالتوازن فى البيئة • وتجلى عدم التوازن بين حاجة الانسان من موارد الأرض لكى تمضى حركة الحياة من جانب ، وعطاء هذه الموارد المتدهور لكى تتعثر حركة الحياة من جانب آخر • بمعنى أن هذه التغيرات المناخية قد انهت مرحلة التنعم واعتماد حركة الحياة وحضور الانسان على واقع اقتصادى، لم يشترك أصلا فى اصطناع مقوماته • بل قل انها فرضت عليه أن يبدأ مرحلة جديدة •

وصحيح أن هذا الاخلال بالتوازن معناه تحول جزيرة العرب من موطن وأرض أطعمت الحياة ، وترفقت بالانسان ، وأرضت حاجته ، الىموطن وأرض قترت على الحياة وقست على الانسان وهددت حاجة الحياة • وصحيح أيضا أن هذا الاخلال بالتوازن معناه بالضرورة انتهاء مرحلة أو مراحل التنعم والاطمئنان على حاجة الغد ، وبداية مرحلة أو مراحل الاجتهاد والكد والتخوف من الغد • ولكن المؤكد بعد ذلك كله أن هذا الاخلال بالتوازن والتخوف من الغد معناه استنفار قدرات وخبرات الانسان لكى ينازل التحدى ، ويدافع

عن مصيره وينتصر لحركة الحياة ونداء الحياة وحضوره فى مرحلة الاجتهاد والكد فى طلب العيش ٠

واذا كانت الضغوط الاقتصادية التى انهت مرحلة التنعم والأمن الغذائى ، قد استنفرت خبرات الانسان وقدراته وهى محدودة وقليلة الجدوى، وأيقظت فيه ارادة الدفاع عن حقه فى البقاء ، وهى قمة الجدوى ومن غير حدود ، فان الزيادة الطبيعية فى حجم السكان والارتفاع الصاعد فى معدلات الاستهلاك ، قد خذلت الانسان فى هذا الموقف الصعب خذلانا مبينا ٠ والخذلان المبين الذى نعنيه بالضبط هو وليد العجز وعدم القدرة على الاجراء الايجابى أو على الممارسة الايجابية لاحباط أو لابطال مفعول الضغط الاقتصادى ٠ ومن ثم اتخذ الانسان الاجراء السلبى أو الممارسة السلبية لكى ينتصر لمصيره فى هذا الموقف الصعب ٠ وتمثل هذا الاجراء السلبى فى الفرار والهجرة والانتشار ٠

والفرار والهجرة والانتشار معناه فى الظاهر الامتناع عن منازلة التحدى ، والكف عن تطويع واقع بيئى لا يطاوعه ٠ ولكن الوجه الآخر من هذا المعنى ، قد جسد مبلغ الاجتهاد فى سبيل البحث عن مخرج من الموقف الصعب وتأمين الحاجة والممارسة الحياتية فى أرض جديدة تطاوع الانسان ٠ وهكذا ندرك كيف كان الهروب أو التملص من قبضة وضغوط التحدى الذى هدد أمن ومصالح وحضور الانسان فى مراحل الجفاف والقحط ، هو وحده سبيل التشبث بالبقاء والانتصار وتأمين حركة الحياة ٠

وليس المهم أبدا فى كل جولة من جولات المصارعة بين الانسان من جانب والتحديات من جانب آخر حساب الضربات وعد النقط ، ولكن المهم دائما أن ندرك موجبات الانتصار فى أى جولة وكيف انتصر الانسان لأنه لم يستلسم أبدا لضربة قاضية ٠ وهذا معناه بالضبط :

١ ـ ان الضغوط الاقتصادية التى لم تسدد الضربات القاضية ، قد تحولت الى عوامل طرد حقيقى ٠

٢ ـ ان الانسان الذى راوغ وافلت من ضربات هذه الضغوط ، قد استجاب لعوامل الطرد ٠

بل قل أن عوامل الطرد قد طاردت الانسان فى موطنه وانتهكت حضوره ٠ ولقد حولت هذه العوامل ضرورة القبول بالتحدى والصمود دفاعا

عن أمن الانسان الى تحرك سلبي بحت أو الى ممارسة سلبية بحتة • واستوجب التحرك السلبي أمر اجتياز مسالك ودروب النجاة فى اتجاه أى بارقة أمل جذبت واستهوت هذا الفرار •

وعن الانسان فى مواجهة هذا التغير الطبيعي وضغوطه الاقتصادية التى تحدت الانسان وارادة البقاء والتشبث بالحياة ، ينبغي أن ندرك كيف كانت عوامل الطرد فعالة ومؤثرة • كما ينبغي أن ندرك أيضا كيف طاردت الانسان مطاردة ملحة ومستمرة من غير أن تسكت أو من غير أن تبطل نداء الحياة • ولقد أخرجت هذه المطاردة المثيرة بعض الجموع والأفواج من جزيرة العرب • بل لقد سعت هذه الهجرات البشرية وامتثلت لعوامل الطرد ، وهى فى طلب فرص الاستيطان فى أرض جديدة ، أكثر سخاء أو أكثر استجابة لحضورها •

وفى المقابل ، ينبغي أن ندرك كيف كانت عوامل الجذب التى استقطبت الخروج أو الهجرة مثمرة وجادة • كما ينبغي أن ندرك أيضا كيف أغرت الانسان اغراء ملحا ومستمرا • بل قل انها جاوبت نداء الحياة الذى جسد ارادة البقاء • ولقد استقطبت قوة الاغراء والجذب هذه الجموع والافـــواج النازحة من جزيرة العرب • بل لقد سعت هذه الهجرات البشرية فى كل وقت واستجابت لقوة الجذب ، وهى فى طلب النجاة من براثن التحدى وعدوانه الخطر على الحضور الانسانى فى ربوعها •

وعن اندفاع وخروج وتدافع الجموع والافواج النازحة من جزيرة العرب، تحت وطأة الضغوط الاقتصادية فى ذلك الوقت المبكر ، يجب أن نتصور تكرار هذه الظاهرة من مرحلة الى مرحلة أخرى • ولقد كانت الضغوط الاقتصادية التى أدى اليها التمادى فى الجفاف والامعان فى التصحر ، من أهم موجبات هذا التكرار • وهذا التكرار معناه أن جزيرة العرب ، كانت الوطن المصدرى الذى صدر الفائض من الحضور السكانى فيه •

وعن تكرار هذه الظاهرة وموجبات هذا التكرار ، ينبغي أن نتصـــور أيضا :

١ ــ كيف تحركت الجموع والأفواج فى رحلات استيطان وهى تتدافع وتتوالى فى طلب الأرض وتأمين العيش وجمع الغذاء لأنها لم تكن قد امتلكت القدرة على انتاج الغذاء •

٢ ــ كيف عبرت هذه الجموع والافواج باب المندب ، وهى تتوجه الى

الصعيد الأفريقى فى طلب الفرار والانتصار لمصيرها لأنها امتثلت لعوامل الطرد ٠

والامتثال لعوامل الطرد والفرار ، هو التعليل الأصدق والمبرر الحقيقى لاندفاع أو لتدافع الجموع النازحة من جزيرة العرب ٠ بل قل — بكل اليقين الجغرافى — أن الاستجابة لعوامل الجذب والاغراء ، لا يجب أن تبرر هذا الخروج النازح من جزيرة العرب ٠ وفى ذلك الوقت بالذات ، الذى لم يؤمن الحياة فيه غير جمع الغذاء ، يصعب ترجيح اغراء عوامل الجذب وفاعليتها ، على فاعلية والحاح عوامل الطرد ٠

وفى اعتقادى أن الامتثال لعوامل الطرد وفاعليتها ودعوتها الجادة الى الفرار ، قد لبى ما استشعره الحس الجغرافى بالفعل فى المكان من ضغوط هددت أمن الحياة تهديدا مباشرا ٠ أما الاستجابة لاغراء عوامل الجذب وفاعليتها وقدرتها الحقيقية على تأمين الحياة ، فلقد كانت فى حاجة ملحة الى أكبر قدر من الفطنة وتفتح البصيرة الجغرافية ، لكى تستشعر مبلغ اغراء هذا الجذب وجدواه ، وهو مالم يتوفر للانسان بالقطع فى ذلك الوقت المبكر ٠

وما من شك فى أن هذه الجموع أو الافواج النازحة التى خرجت خروج الفرار والامتثال لعوامل الطرد ، قد امتلكت خبرة ركوب البحر ، واجتياز الفاصل المائى واسقاط حاجز المسافة البحرى بين جزيرة العرب والقرن الأفريقى ٠ وعلى المدى الطويل فى فترة الجفاف فى عصر البلايستوسين الأوسط ، تحركت هذه الجموع والأفواج على دفعات متواليات وهى تطلب النجاة أكثر من أى شىء آخر ٠ بل قل — بكل اليقين — أن التدافع كان مستمرا وأن طلب النجاة كان غاية ، والموجات تنتقل من الصعيد الآسيوى الى الصعيد الأفريقى ٠

وعن نزوح هذه الجموع والأفواج ، وعن تدافعها تدافع من طلب الفرار والافلات والخلاص ، ينبغى أن نذكر كيف اتخذت هذه الموجات من ربوع الأرض الفسيحة فى انحاء القرن الأفريقى ، منطقة استقبال ٠ وهناك التقطت الأنفاس وبدأت فى تلمس اغراء عوامل الجذب ، التى جاوبت نداء الحياة وصرخة البقاء ٠ بمعنى أن الحضور فى منطقة الاستقبال قد انهى فاعلية عوامل الطرد لأن الانسان استشعر الأمن وهو عين المقصود بالنجاة ٠

وانهاء فاعلية عوامل الطرد ، هو الذى أيقظ فى الانسان ارادة البحث عن اغراء عوامل الجذب • وسواء أدت هذه اليقظة الى الاستجابة لعوامل الجذب والتحرك من جديد الى مواقع الاستيطان على الصعيد الأفريقى ، أو أدى وصول وتوالى وصول موجات نازحة الى التدافع والتحرك من جديد الى مواقع الاستيطان على الصعيد الأفريقى ، فان هذا التحرك كان تحركا متأنيا وهادفا • وما من شك فى أن نداء الحياة قد وظف الحس الجغرافى فى خدمة هذا التحرك والاختيار والاستجابة لاغراء عوامل الجذب • ويبدو أن الحس الجغرافى الفطرى لم يخذل نداء الحياة • بل قل أنه رشد اختيار الدروب والمسالك لكيلا يضل التحرك • وقل أيضا أنه بعد التوجة والانتشار فى ربوع كل موطن استقبل هذا التحرك فى الأنحاء المتفرقة على امتداد الصعيد الأفريقى الفسيح •

وهذا معناه ــ فى الغالب ــ أن الحضور الانسانى فى جزيرة العرب ، قد تحمل وطأة الضغوط الاقتصادية فى كل مراحل الجفاف والتمادى فى التصحر الى حد معين ــ ولكن عندما زادت حدة هذه الضغوط فى كل مرة ، وهددت فرص جمع الغذاء ، تحولت هذه التهديدات الخطرة الى عوامل طرد حقيقية(٧) • بل قل أن هذا الحضور الانسانى الذى صمد وعاش دون حد الكفاف لبعض الوقت لم يكن فى وسعه الاستمرار فى الصمود كلما زادت حدة هذه الضغوط • وعندئذ لابد أنه قد تخوف على بقائه ومصيره ، ونزح وهاجر وهو فى طلب النجاة فى ربوع أرض جديدة •

---

(٧) تعترض بعض النظريات الحديثة على هذا التصور من أساسه • ولا ينصب الاعتراض على مجرد نزوح الهجرات الى الصعيد الافريقى أو الى الصعيد الآسيوى بل انه الاعتراض على أن جزيرة العرب قد احتوت الوطن الأصلى للانسان • وربما بنى هذا الاعتراض لدى البعض على رفض توظيف العامل المأخوذ من القصص الدينى لترجيح فكرة ظهور الانسان فى وطن أصلى احتوته جزيرة العرب • ولكن الاعترض الأخطر هو اعتراض كافر لا يقر ولا يوافق أصلا على أن الانسان وحيد النشأة فى الزمان وفى المكان ويتصور نشأة الانسان واكتمال تطوره فى أكثر من وطن أصلى • ومن غير أن نتمادى فى تفنيد الأدلة والاعتراضات ، نكتفى بالحد الأدنى من الاتفاق بين المعترض وغير المعترض • ويؤكد هذا الحد الأدنى اتفـاقا على أن نزوح الموجات الحامية بدأ من جنوب جزيرة العرب الى الصعيد الافريقى • وسـواء كان النزوح رحيلا من الوطن المصدرى فى جزيرة العرب ، أو كان هو رحيـل المرور السريع بالأرض فى جزيرة العرب ، فان هذا التحرك فى حد ذاته هو العلامة التى لا تضل ولا تضلل فى شأن الامتثال العملى لعوامل الطرد •

راجع كتاب د• أحمد سوسة : العرب واليهود فى التاريخ ، وفيه تصوير جيد للعوامل الاقليمية والبشرية وأثرهما فى بعث الهجرات من الجزيرة العربية من صفحة ١٩٧ الى ٢٠٤ •

وصحيح أن هذا النزوح وهو اختيار فرضه الامتثال والارغام على كل من طلب النجاة والافلات من وطأة الضغوط الاقتصادية قد خفف من حدة وضراوة هذه الضغوط على كل من آثر البقاء فى جزيرة العرب ولم يغادرها ٠ وصحيح أن هذا النزوح المبكر وهو جزئى قد تأتى ودام فى وقت أو فى أوقات ومراحل طويلة كانت فرص الاختيار فيه صعبة ، لأن قدرات وخبرات الانسان وهو جامع للغذاء على مواجهة تحديات وضغوط الجفاف والتصحر والقحط مواجهة ايجابية ، كانت اعجز من أن تحبطها أو أن تبطل مفعولها ٠ ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هذا النزوح المبكر المغامر الذى دام على مراحل طويلة ، قد أفرغ جزيرة العرب من معظم الحضور الانسانى فيها ٠ وهو فى نفس الوقت النزوح الذى انتصر بالفعل لحركة الحياة الانسانية وانتشلها من براثن التحدى ٠ ولقد أحسن الانسان – كما قلنا – توظيف هذا التحرك السلبى واستخدام الحس الجغرافى اليقظ ، لكى ينتصر فى مسعاه الذى تمثل فى أعمار الأرض فى المواطن التى نزل بها واحسنت استقباله واغرائه على الصعيد الأفريقى(٨) ٠

ومن غير أن نتمادى فى شأن هذ الرحيل عن جزيرة العرب ، والانتشار على الصعيد الأفريقى أو على الصعيد الآسيوى ، فان الاتفاق بين بعض الباحثين المتخصصين فى علم الانسان قائم على أن هذه الموجات البشرية ، قد غادرت ونزحت نزوح الامتثال لعوامل الطرد ٠ بل قل انه النزوح الذى جسد معنى ومغزى الفرار ودام أو توالى لدى استشعار وطأة الضغوط وعوامل الطرد فى مراحل متعددة ومتباعدة على المدى الطويل ٠

وهذا معناه أنه كلما زادت وطأة الجفاف وتصاعد ضغط التصحر فى جزيرة العرب من ناحية ، وزاد النمو السكانى وتصاعد الطلب على الغذاء من ناحية أخرى ، حدث الخلل وعدم التوازن ٠ وفى كل مرحلة من مراحل عدم

---

(٨) فى رأى الفريق الذى لا يعترض على رأينا أن باب المندب قد شهد هـذا العبور المستمر العظيم ، اعتبارا من أقدم الموجات التى حملت العناصر السابقة للبشمن الى أحدث الموجات الحامية ٠ بل لقد شهد أيضا عبور بعض الموجات السامية الى الحبشة ٠ ومن منطقة الاستقبال على صعيد الأرض فى القرن الافريقى ، استأنفت كل موجة من هذه الموجات انتشارها الى مواطنها الافريقية ٠

: واجع عن الجدل حول الوطن الأصل والهجرات والانتشار الفصل السادس من كتاب يسرى الجوهرى بعنوان الانسان وسلالاته ٠ الاسكندرية ١٩٧٢ ، من ص ١١٥ الى ص ١٢١ ٠

التوازن ، هبط مستوى المعيشة هبوطا خطيرا الى مادون حد الكفاف • ولم يسفر ذلك الوضع الخطير الذى انتهك الأمن الغذائى عن شيء أخطر من زيادة وطأة وفاعلية عوامل الطرد التى طاردت الخروج والفرار النازح من جزيرة العرب[٩] •



(٩) فى شأن الذبذبات المناخية ، هناك دراسات ممتعة كثيرة من الجفاف وكيف أحله التغير المناخى فى عصر الهولوسينى محل المطر فى عصور المطر فى البلاستوسين • والتغير المناخى هو الذى أنهك النمو النباتى وغير معالمه وعرض الانسان وهو يجمع الغذاء لخطر الجوع • راجـــع

(أ) د• أحمد سوسة ، المرجع السابق ص ١٩٨ ـ ١٩٩ •

(ب)

Childe, V.G. : New lights on the most Ancient East, London 1964.

(جـ) جواد على ، المرجع السابق جـ ١ ص ٩٧ ـ ١٠٢ •

الفصل الأول

جزيرة العرب

الوجود السامي والتفرد العربي

الفصل الأول

جزيرة العرب
الوجود السامى والتفرد العربى

جزيرة العرب وطن الساميين(١) :

انتقال الموجات البشرية ورحيلها النازح أو فرارها المتعجل من جزيرة العرب ، وتدافعها الملهوف الى الأرض وطلب النجاة على الصعيد الأفريقى أو على الصعيد الآسيوى ، لا يعنى شيئا أهم وأخطر من تفريغ جزيرة العرب من معظم سكانها من حين الى حين آخر • وما كان من شأن هذا التفريغ السكانى أن يتحقق فى كل مرة ، وما كان من شأن هذا التدافع النازح أن ينجح فى كل خروج ، لولا أن تأتت الضغوط الاقتصادية واشتدت وطأة عوامل الطرد التى امتثل الاختيار الانسانى لها وارغمته على المخاطرة وحملته على التحرك السلبى فى رحلة استيطان تولى بموجبها اعمار الأرض •

هذا ، وكان من شأن تفريغ جزيرة العرب من معظم الحضور السكانى فى ربوعها بعد كل خروج نازح أو بعد كل تدافع مهاجر الى ديار جديدة ، أن يخلى المكان • وتلى اخلاء المكان فى كل مرة ، اعداد وتجهيز نفس المكان من جديد لتكوين ونمو حضور سكانى جديد فى جزيرة العرب • وما من شك فى أن بعض الزيادة فى كم المطر كانت الاسهام المباشر الذى أعاد تهيئة وتجهيز المكان • ومع كل تجهيز اعاد النبض والحيوية الى النمو النباتى الطبيعى فى هذه الأرض ، انتعش النبض السكانى وأمنته وفرة الغذاء •

ولقد تنعم كل حضور سكانى جديد بالحياة فى ربوع المكان • بل قل انه قد نال غايته من الأمن ، حيث عاودت المكان زيادة المطر وتحسنت الأحوال وتوفر الغذاء • وفى مثل هذا التحول ، كفت الضغوط وانتفت عوامل الطرد لبعض الوقت على أقل تقدير • وبقى تنعم الحضور السكانى بهذا الأمن الغذائى ،

---

(١) واجع الدراسة من جزيرة العرب من الحضارات السامية فى كتاب أحمد سوسة ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ - ١٩٧ •

ما بقى التوازن بين كم الغذاء المتاح من جانب ، ومقدار ما اشبع هذا الحضور السكانى الذى انكب على جمع الغذاء من جانب آخر ٠

وفى هذا المكان (جزيرة العرب) الذى شهد تكرار التغير المناخى وذبذبات هذا التغير على المدى الجيولوجى الطويل ، أدى نقصان كم المطر السنوى بعد كل زيادة الى التمادى فى الجفاف وزيادة معدلات التصحر ٠ وأسفر كل تمادى فى الجفاف عن تفريغ جزيرة العرب من معظم سكانها ٠ واعتبارا من نهاية المطر فى ذيل العصر المطير الثانى (البلايستوسين الأعلى) ، تكرر وتوالى وتمادى الضغط الاقتصادى على كل حضور سكانى فى جزيرة العرب ٠ وانهى الضغط الاقتصادى الذى اصطنعه الجفاف والتمادى فى التصحر فى أكثر من مرة المرحلة التى تنعم فيها الحضور السكانى ٠ بل قل انه زلزل التوازن بين كم الغذاء ووفرته وجمع الغذاء واستهلاكه ٠ أو قل انه انتهك أمن الحياة وأهدر مصلحة الناس فى هذا الأمن ٠

وانهاء كل مرحلة من مراحل التنعم وانتهاك أمن الحياة فى كل مرة ، أسفر بالضرورة عن تردى الأوضاع وتدهور معدلات الاستهلاك الغذائى الى مستو هو دون حد الكفاف ٠ ومن ثم يمكن أن نفهم جيدا :

١ - موجبات القول والتأكيد على تكرار خروج الموجات البشرية من جزيرة العرب من حين الى حين آخر ، وكيف امتثل هذا الخروج النازح لعوامل الطرد ، وكيف رشد الحس الجغرافى الفطرى اليقظ مسيرته فى رحلة البحث عن الموطن الأفضل وجاوب نداء الحياة ٠

٢ - موجبات القول والتأكيد على تكرار تكوين الحضور السكانى الجديد بعد كل خروج أفرغ جزيرة العرب من سكانها الذين غادروا الديار ، وكيف ملأ هذا الحضور السكانى الحيز فى كل مرة بعد أن اعادت العوامل التوازن الاقتصادى بين كم الغذاء ووفرته وجمع الغذاء وطلبه واستهلاكه ٠

وبعد انتهاء الخروج الأخير الذى سجل رحيل وتدافع الموجات الحامية الى الصعيد الأفريقى[٢] ، وهو الخروج المتفق عليه بين بعض الباحثين ، أفرغت جزيرة العرب من معظم سكانها ٠ وحقق هذا التفريغ أو هذا الاخلاء أول ما حقق

---

(٢) فى شأن انتشار الحاميين على الصعيد الافريقى ارجع الى :
الجوهرى ، يسرى . الانسان وسلالاته ط ٢ ، الاسكندرية ١٩٧٤ ، ص ٣٢٧ - ٣٣٢ ٠

حدة الطلب على الغذاء وجمعه • وكان معين الغذاء قد نضب أو كاد عندما سيطر الجفاف فى أواخر البلايستوسين وبدأ التمادى فى التصحر • بل قل ـ بكل اليقين ـ أن هذا الخروج قد خفض معدل الطلب على الغذاء وأعاد التوازن بين كم الغذاء من جانب ، وجمع الغذاء من جانب آخر الى سابق عهده •

واعادة هذا التوازن الاقتصادى على صعيد جزيرة العرب ، لا يعنى شيئا أهم من الاعداد والتجهيز من جديد ، لاحتواء واشباع حضور سكانى جديد • ومعناه أيضا أن موجبات الطرد قد خفت حدتها ، وأن موجبات أخرى قد كفلت الحياة وحضور الانسان من جديد • بل قد يعنى هذا التوازن الاقتصادى أيضا استئناف مرحلة جديدة من مراحل التنعم بوفرة فى كم الغذاء •

وهكذا ندرك كيف تنعم الحضور السكانى الجديد الذى التأم شمله فى جزيرة العرب بهذا التوازن وهذه الوفرة فى كم الغذاء • بل لا ينبغى أن نتشكك فى الوصول الى حد الكفاية وتأمين حاجة الناس من الغذاء • وسواء تحقق هذا التوازن الاقتصادى فى جزيرة العرب ، بموجب الانخفاض والنقصان فى معدلات طلب الغذاء وجمعه بعد رحيل معظم السكان رحيلا مغادرا دون عودة ، أو تحقق هذا التوازن الاقتصادى بموجب الزيادة فى كم المطر وفى معدلات النمو النباتى ووفرة الغذاء وثراء المعين ، فان اعادة هذا التوازن كان بكل اليقين الجغرافى فى صالح حد الكفاية المشبع الذى كفل الحضور السكانى الجديد •

وفى ظل هذه العودة الى التوازن الاقتصادى الغذائى ، نما الحضور السكانى الجديد فى جزيرة العرب نموا طبيعيا وهو آمن على نفسه • وكان هذا الحضور السكانى من سلالات قوقازية بصفة عامة من سلالة البحر المتوسط على وجه الخصوص • ولقد أسفر نمو هذا الحضور السكانى عن تكوين مجموعة الشعوب السامية[٣] • ولقد آثار الجدل حول هذا التكوين

---

(٣) راجع البحث الممتع الذى ورد فى شأن تكوين الشعوب السامية والافتراضات بشأن الموطن الأصلى لهم فى :

أ ـ جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ الفصل السادس من صفحة ٢٢٣ الى ٢٦٠ •

ب ـ لطفى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة (مدخل حضارى فى تاريخ العرب

شكا كثيرا فى مبلغ صدق ذلك الانتماء الى الموطن الأصلى أحيانا(٤) ، أو ذلك الانتماء الى الأصل السامى أحيانا أخرى(٥) ٠

وفى اعتقاد بعض الباحثين أن موطن هذا التكوين السكانى السامى كان فى جزيرة العرب ٠ وفى اعتقاد هذا البعض أيضا أنه لا غبار على مضمون هذا الانتماء الى العنصر السامى ٠ وما من شك فى أن هذا الحضور السكانى السامى المتفرد على صعيد جزيرة العرب قد تنعم بالحياة فى هذا الموطن ٠ ولقد أتاح التفرد له نضج ساميته وتكوين أصولها اللغوية التى أشاعت السامية فى أنحاء كثيرة فيما وراء جزيرة العرب منذ وقت بعيد ٠ بل لقد أمن هذا الموطن حاجة هذا الحضور من الغذاء بعد التحسن الطفيف الذى طرأ فى أحوال المناخ على هذا الصعيد ٠

وكان من الطبيعى ، أن يملأ هذا الحضور السكانى من الشعوب السامية مع مرور الوقت المكان ٠ وكان من الطبيعى أيضا أن يتنعم هذا الحضور

قبل الاسلام) ١٩٧٩ بيروت ، ص ٤٩ الى ٧٠ ٠

جـ - صلاح الدين الشامى ، فؤاد الصقار : جغرافية الوطن العربى الكبير ط ٢ الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٠ - ٢٣ ٠

(٤) هناك ثلاثة افتراضات على الأقل فى شأن الانتماء السامى الى الموطن الأصلى ٠ والافتراض الأول أعطى للساميين موطنا وأصلا أفريقيا وجمع بعض الأدلة التى دلل بها على هذا الافتراض ٠ والافتراض الثانى أعطى للساميين موطنا آسيويا فى غير جزيرة العرب وأبدى الاهتمام بعلاقة موطنهم بالجمل الذى حملهم الى جزيرة العرب ٠ وهناك أخيرا الافتراض الذى ربط التكوين السامى بجزيرة العرب واعتمد على تصور حالة المناخ التى أسعفت وأمنت هذا التكوين ٠

راجع فى شأن هذه الافتراضات :

أ - لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق من صفحة ٥٠ الى صفحة ٦٠ ٠

ب - نجيب ميخائيل : موسوعة مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٣ ط الاسكندرية ١٩٥٩ ٠

جـ - Hitti, K. Ph : History of the Arabs, London, 1961, P. 10.

د - Caetani, L. : Studi di Storia Orientale. Milano, 1911.

هـ - Moscati, S. : The Semites in Ancient History, Cardiff, 1959.

(٥) التشكيك فى الانتماء الى الأصل السامى وتكوين وحدة من الساميين ، قد بنى على استبعاد العلاقة العرقية أو العنصرية ٠ والانتماء الى سام بن نوح الذى حدث به التراث اليهودى هو الذى أثار هذا الانتماء العنصرى ٠ والأصل كله قد قاد إليه التشابه اللغوى أكثر من أى شىء آخر ٠ راجع :

أ - لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق من صفحة ٤١ الى صفحة ٤٨ ٠

ب - المرجع السابق : Moscatis.

بالتوازن الغذائى فى ظل تحسن نسبى فى أحوال المناخ وزيادة طفيفة فى كم المطر فى العصر الحجرى الحديث . وحفلت جزيرة العرب بنمو هذا الحضور من الشعوب السامية نموا طبيعيا أمنته الوفرة فى كم الغذاء الى حد معقول وهو حد الكفاية المشبع .

وقد لا نعرف بالضبط ما اذا كان هذا الحضور من الشعوب السامية قد خاض تجربة الثورة الاقتصادية الأولى وتعلم انتاج الغذاء . كما لا نعرف بالضبط أيضا احتمالات التعرض للكوارث الطبيعية المباغتة . ولكن الذى نعرفه بالضبط ـ بكل اليقين الجغرافى ـ هو التغير المناخى من جديد . ولقد باغت أو داهم هذا التغير المناخى حياة هذا الحضور من الشعوب السامية فى عقر ديارهم على صعيد جزيرة العرب .

والعودة الى التغير فى أحوال المناخ من جديد(٦) ، والمضى مرة أخرى أو التمادى فى الجفاف والتصحر ، على صعيد جزيرة العرب قدر على هذا الحضور السامى أن يواجه الموقف الذى حفل بالضغوط الاقتصادية . ولقد خاض هذا الحضور السكانى بالضرورة تجربة عدم التوازن الاقتصادى الغذائى ، وتحولت المعيشة من حد الكفاية الى حد الكفاف . بل لقد كتب عليه أن يصارع هذا التحدى من جديد ، من أجل البقاء والانتصار لنداء الحياة .

هذا ، وكتب العرب وهم شعبة من شعب هذا الحضور السكانى الذى فرض عليه التغير فى أحوال المناخ خوض هذه التجربة ، والتصدى فى جلد شديد للضغوط الاقتصادية . بل قل لقد واجه العرب مثلما واجهت الشعوب السامية الأخرى الموقف الصعب . وباتت حركة الحياة وهى فى مصارعة حقيقية مع الجفاف والتصحر . وتضررت هذه الحياة تضررا فعليا بالضغوط الاقتصادية التى أخلت بالتوازن الغذائى وانتهكت أمن الحياة وهددت مصيرها .

---

(٦) بدأ هذا التحول منذ حوالى الألف العاشرة ق بل الميلاد . ورغم نجاح الأدلة الجيولوجية فى البحث فى مناطق محدودة لاثبات هذا التحول بالفعل فان هناك من يدخل عوامل أخرى فى تبرير الضغوط الاقتصادية التى عجلت بتأثير هذه الضغوط وعوامل الطرد وتحرك الهجرات من جزيرة العرب . راجع رأى حزين فى :
Huzayyin, S.A.S. : Changement Historique du Climet et du Paysage de L'Arabie du Sud. (Bulletin of the Faculty of Arts.) Cairo 1935.

(٤)

الحضور العربي[٧] والتفرد في جزيرة العرب :

صحيح أن هذه المصارعة التى تصدت للتحديات الطبيعية من أجـــل البقاء ، ومواجهة الخلل فى التوازن الاقتصادى الغذائى ، والانتصار لمصـير هذا الحضور السكانى فى ذلك الوقت البعيد كانت صعبة بكل المقاييس • وصحيح أيضا أن ضراوة المصارعة ، قد فزعت أمن هذا الحضور وانتهكت مصيره انتهاكا شديدا • ولكن المؤكد أن بعض هذا الحضور وليس كله قد صمد وانتصر فى مواجهة هذه الضغوط •

وهذا معناه أن الحضور السكانى فى جزيرة العرب فى مواجهة الضغوط الاقتصادية التى أسفر عنها التغير المناخى قـــد تفاوتت قدراته على الصمـود وتجاوز المحنة • ويمكن أن نميز بين :

١ ــ قطاع من هذا الحضور السكانى ، صمد ولكنه لم يفلح فى تحمل وطأة الضغوط الاقتصادية • بل لعله استسلم للمحنة وتردت معيشته الى ما دون حد الكفاف حتى هلك وانقرض وتبدد وجوده •

٢ ــ قطاع من هذا الحضور السكانى ، آثر الفرار وفضل الهجرة • بل لعله انسحب من المصارعة ولم يمكن للمحنة من أن تهلكه أو أن تبدد وجوده •

٣ ــ قطاع من هذا الحضور السكانى ، صمد وأفلح فى كبح جمـــاح الضغوط الاقتصادية • بل لعل تجاوز المحنة وحافظ على بقائه وامتلك زمام مصيره ولم يهلك أو لم يتبدد حضوره •

---

(٧) هناك تجاوز بين استخدامنا كلمة (العرب) وظهور هذه الكلمة بالفعل • ذلك أن الظهور الحقيقى لكلمة عربى كان فى حوالى القرن التاسع قبل الميـــلاد نقط فى بعض المدونات الأشورية • بل هناك من ربط ربطا وثيقا بين كلمة عربى وحيـــاة البداوة فقط • ومن ثم تستخدم كلمة عربى فى هذه الدراسة استخداما مرنا متحررا من هذه الإتجاهات • وفى رأينـــا أن كلمة عربى تصلح لتصوير ذلك الجمع الذى عاش اعتبارا من تكوين الحضور السامى وفى شكل شعبة من شعبه الكثيرة •

راجع نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ط ٣ ، ١٩٧٥ دمشق من صفحة ٤٦ ــ ٦٥ •

وصمود هذا القطاع الأخير ، هو الذى جسد معنى الانتصار للوجود أو للبقاء فى الأرض على صعيد جزيرة العرب • وبصرف النظر عن كيفية هذا الانتصار وموجباته ، وبصرف النظر عن كيفية الصمود الذى اصطنع هذا الانتصار ، ينبغى أن ندرك كيف أسفر عن تفرد الحضور العربى ، بعد غياب بقية الحضور السامى غيابا كليا من جزيرة العرب •

وفى اعتقاد بعض الباحثين على الأقل ، أن هذا الصمود الناجح الذى جسد الانتصار العربى وحقق التفرد فى جزيرة العرب ، هو الحقيقة التى لا ينتهكها الجدل أو التى لا تستحق الاعتراض(٨) • بل قل أن هذا الصمود هو العلامة البارزة التى لا تضل ولا تضل وهو انطلاقة الانتصار التى تؤكد بموجبها على أن جزيرة العرب هى الموطن الأصلى للحضور العربى أو للعرب • وحتى لو عرفنا أن لا علاقة عرقية تؤكد الانتساب ، فان هذا التفرد فى هذا الموطن ، قد وضع أول لبنة فى لم شمل هذا الجمع ، لكى يبتنى على المدى الطويل أمة(٩) • والتفرد فى الأرض والاشتراك فى المصير على صعيد هذه الأرض ، هو مبرر منطقى للتماسك أو للتجمع فى شمل شد بعضه أزر بعضه الآخر •

وعلى هذا الصعيد ، تهيأت كل الأوضاع والأسباب والمبررات ـ أسفرت عنها جملة من المتغيرات الطبيعية والبشرية ـ التى تكون ونما وترابطت بموجبها أوصال الحضور العربى فى جزيرة العرب • بل قل لقد تهيأت الأوضاع الجغرافية التى رسخ هذا الحضور السكانى بموجبها وجوده وسيادته ، أو التى أمن بها حياته ومصيره المشترك فى وطنه الأصلى • وهذا

---

(٨) صلاح الدين الشامى ، فؤاد الصقار : المرجع السابق ، صفحات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ •

(٩) الاعتماد على عدم وجود الدلالة من نقش قديم أو من مدونات مكتوبة فى اثارة الجدل أو الاعتراضات ، يكون له ما يبرره فى كثير من الأحيان • ولكن فى مثل هذه الحالة ، يجب أن نذكر جيدا أن التغير المناخى فى حد ذاته كان كفيلا بطمس واخفاء بعض هذه الدلالات التى مضت عليها آلاف السنين • بل يجب أن نفطن جيدا الى أن الاتجاه العام فى مراحل أحدث قد سجل مدى الحرص على اخفاء الحقائق واشاعة الغموض وتوظيفه بشكل أو بآخر فى كل مجالات الدفاع عن المصالح الخاصة والعامة • ولا وجه للغرابة فى شأن مضى الوقت الطويل قبل أن يجسد هذا الحضور هويته وأن يجمع شمله رباط لغوى اصطنعته المصلحة المشتركة فى ربوع جزيرة العرب • بل هو لا يعنى أكثر من أن تفرد الحضور السكانى الذى أسفرت عنه هذه المحنة ، أتاح الفرصة لتكوين الحضور العربى وتحديد أواصر العلاقات بين الناس فيه تكوينا بطيئا وعلى المدى الطويل •

هو ما نعنيه بالضبط عندما نتحدث عن ثمرات تفرد هذا الحضور على صعيد *جزيرة العرب*(١٠) ٠

والتيقن من صدق وحقيقة هذا التفرد ، ومعرفة كيف ولماذا كان هـذا التفرد الذى أسفر عن تكوين الحضور العربى فى جزيرة العرب ، لا تغنى فتيلا فى شأن معرفة متى بدأ بالضبط هذا التفرد العربى ٠ وهل نشك فى افتقاد الأدلة الأثرية التى تحدد بالفعل هذه البداية ؟ وهل لا نتشكك فى مبلغ صحة أو صدق الربط بين حقيقة البداية فى هذا التكوين المتفرد وحقيقة استخدام كلمة عرب فى حوالى القرن التاسع قبل الميلاد فقط ؟

وحتى لو قبلنا وتجاوزنا فى شأن طلب الدليل لكى نجيب عن الوقت الذى بدأ فيه هذا التفرد العربى ، فلا ينبغى أن نتجاوز فى شأن أو فى مبلغ البطء فى التكوين والمدى الزمنى الطويل الذى تحققت اثنائه موجبات هـذا النضج الذى عبر عنه استخدام كلمة عرب : وقد نتصور نهاية المطر الغزير فى العصر الحجرى الحديث بداية معقولة لموجبات هذا التفرد وبداية التكوين البطىء ٠ ولكن تبقى بعد ذلك كله الحيرة الحقيقية حول التحديد الصحيح لنهاية هذه الزيادة فى المطر ٠

ومن غير أن يضل البحث فى التكهنات ، ومن غير أن يضلل البحث سيل من الافتراضات فى شأن هذه البداية ومتى بدأ بالضبط يكفى أن نتخذ من نهاية زيادة المطر فى العصر الحجرى الحديث ، بداية لتفرد الحضور العربى٠ وفى الموطن الأصلى على صعيد الجنوب من جزيرة العرب ، بدأت حركة حياة هذا الحضور وموجبات تكوينه العربى البطىء ٠ وما من شك فى انه قد عكف على الانتفاع بالغذاء المتاح ٠ بل لعله اجتهد كثيرا من أجل فرض سيادته ودعم تفرده واصطناع موجبات تكوينه البطىء ٠

بل ولا ينبغى أن نشك أو أن نتشكك فى جدوى هذا الاجتهاد الصامد وكيف أمن حياة عاشت على جمع الغذاء ، وكيف حقق حد الكفاية ٠ ومع ذلك لا يغيب عنا كيف تضررت هذه الجدوى وكيف هبط أمن الحياة من حد الكفاية الى حد الكفاف ، بعد أن قطع هذا التفرد شوطا من أشواط صموده الطويل٠

---

(١٠) راجع فيليبى فى كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ، الاسكندرية ١٩٤٧ ، من ص ٩ الى ما بعدها ٠

ولا شيء يفسر هذا التضرر غير ادراك حقيقة التردى فى سوءات عدم التوازن الاقتصادى الغذائى من جديد ٠

ومن غير التمادى فى تفاصيل كثيرة حول اجتهاد الحضور المتفرد فى الموطن الأصلى ، وجدوى هذا الاجتهاد بالفعل وكيف تضرر ، يمكن أن نذكر - بكل اليقين الجغرافى - كيف واجه مصير هذا الحضور الخطر الذى فزعه وانتهك أمنه ٠ ولقد تمثل هذا الخطر فى اتجاه الاحوال المناخية الى مزيد من الجفاف من جانب ، وفى اتجاه النمو السكانى الى زيادة فى الكم من جانب آخر ٠ وفى الوقت الذى أسفر فيه الجفاف عن التصحر والنقص فى الغذاء ، أدت الزيادة فى السكان فيه الى تصاعد فى طلب الغذاء ٠ وهل يعنى ذلك شيئا أخطر من عدم التوازن الغذائى ؟ بل وهل جسد هذا الخطر وكشف عن ضراوته شيء أهم من التمادى فى الجفاف والأمعان فى القحط الذى اصطنعه التصحر ؟ ٠

وعندئذ ، ينبغى أن ندرك كيف توجبت على هذا الحضور المصارعةوجوبا من أجل البقاء واستجابة لنداء الحياة ٠ كما ينبغى أن نتلمس الكيفية التى أدار بها هذه المصارعة ، والكيفية التى انتصر بها هذا الحضور لحياته ٠ وهل خلصه من قبضة هذه الضغوط فلم تصرعه ، شيء غـــير الفرار والافلات والانتشار ، على كل صعيد جزيرة العرب ؟

•• •• ••

(٥)

الانتشار السكانى ، معناه ومغزاه :

الانتشار السكانى الذى نعنيه بالضبط ، هو التحول من تجمع فى ربع من ربوع جزيرة العرب الى تناثر فى كل ربع من ربوع جزيرة العرب ٠ ومع استمرار التغير المناخى بعد آخر زيادة فى كم المطر سجلت فى العصر الحجرى الحديث ، ومع توالى النقصان فى معدلات المطر(١١) وشيوع ظاهرة التصحر والتمادى فى نقص الغذاء ، ومع المضى فى النمو السكانى واطرار الزيادة

---

(١١) أحمد سوسة : العرب واليهود فى التاريخ ط ٤ دمشق ١٩٧٥ ص ١٩٧ - ٢٠٤ ٠

الملحة في طلب الغذاء ، استشعر الحضور السكاني المتفرد في الربع المحدود من جزيرة العرب الخطر وتضرر بعدم التوازن الغذائي · بل قل انه واجه الشح والقحط والتقتير في الرزق الذي هدد أمن الناس ومصير الحيـــاة وضروراتها تهديدا صارخا ·

وما من شك في أن هذا التهديد الضاغط ، قد أعاد مستوى المعيشة هبوطا الى حد الكفاف أحيانا ، والى ما دون حد الكفاف أحيانا أخرى · بل لقد وظف هذا التهديد سلاح التجويع ، الذي جسد سوءات الخلل وعدم التوازن الغذائي ، بين وفرة الغذاء وهي هابطة في نقصان ملحوظ من جانب ، ومعدلات الطلب من الغذاء وهي صاعدة في زيادة مؤكدة من جانب آخر · وهل هناك من بين سوءات عدم التوازن الغذائي أخطر من سلاح التجويع الذي فزع أمن الناس ومصير الحياة وانتهك وجودها ؟

وعندئذ ، قل — بكل تأكيد — أن هذا التجويع بعينه ، كان بمثابةالتحدي الحقيقي الذي واجه وداهم مراحل التكوين البطيء للحضور المتفرد في الموطن الأصلي · وينبغي أن ندرك جدوى هذا التحدي وضغوطه وكيف استنفر الحضور المتفرد وكيف أيقظ فيه نداء الحيـــاة ، وكيف ألهب قدراتـــه واستعداداته · وما كان في وسعه غير أن يجاوب نداء وارادة الحياة · بل لقد خاض هذا الحضور التجربة الصعبة وتصدى وصارع دفاعا عن البقاء والوجود والمصير ·

وفي ساحة هذه المصارعة ، وجب على هذا الحضور عدم التفريط في الحق لحساب الحياة ، أو في الاستجابة لنداء الحياة · بل لقد حق عليـه الاجتهاد في شأن احباط هذا التهديد الخطر وابطال مفعوله ، ليس لكي يؤمن الحياة فقط ، بل لكي تمضي خطوات حركة الحياة في الاتجاه الآمن · وهل كان في وسع هذا الحضور أن يتنصل من هذه المصارعة ؟ واذا كان قد خاضها ولجأ الى التحرك السلبي وتعمد الفرار والهرب ، فكيف والى أين وهل انتصر بموجب هذا الفرار دفاعا عن مصيره ؟

ومن غير أن نتمادى في تقصي حقيقة وأبعاد هذه المصارعة ، ومن غير أن نمتلك الدليل المادي المكتوب أو الأثري المصنوع ، على طبيعة هذه المصارعة ، ينبغي أن ندرك كيف حتمت نداءات الحياة على الحضور العربي خوض هذه المصارعة · ولأنه لابد مما ليس منه بد ، ينبغي أن ندرك أيضا كنة هذا التحدي وضغوطه ومبلغ الضراوة في جولات هذه المصارعة · وعندئذ لا تعني

هذه المصارعة شيئا أهم وأخطر من الاختيار الصعب بين أن يكون هذا الحضور منتصرا لمصيره ووجوده أو أن لا يكون . وكأنها كانت مسألة حياة أو موت أو كانت قضية وجود أو عدم وجود ، على صعيد جزيرة العرب .

وفى حلبة هذه المصارعة امتلك الحضور العربى لخوضها أقوى نداءات التشبث بالحياة وأضعف الوسائل الايجابية للانتصار . ومن ثم فضلت أو آثرت الفرار وطلب النجاة فى أول جولات هذه المصارعة . وهذا بالقطع هو الاتجاه السلبى الذى أفلت الحضور السكانى بموجبه من قبضة وضغوط التحدى وعدم التوازن الغذائى . وما أسفر الفرار أو التحرك السلبى فى مواجهة هذا التحدى المناخى وضغوطه الاقتصادية عن شىء أهم من الانتشار من الموطن الأصلى فى الحيز المحدود . وغطى هذا الانتشار مساحات فى ربوع جزيرة العرب فى انحائها الفسيحة .

وكأن الانتشار السكانى الذى أسفرت عنه الضغوط الاقتصادية قد أخرج الناس من قبضة القحط والشح والتقيير الذى تضررت به حركة الحياة فى الموطن الأصلى . بل لقد خفض الانتشار معدلات الطلب على الغذاء وجمعه فى وحدة المساحة . وبدلا من أن كان طلب كل الناس من الغذاء من حيز محدود فى جزيرة العرب ، هو بعينه الموطن الأصلى لهم ، أدى الانتشار على صعيد جزيرة العرب الى وضع اقتصادى استهلاكى أفضل . وفى هذا الوضع الذى استحدثه الانتشار بل قل التشتت والتناثر على أوسع مدى أصبح الطلب والحصول على الغذاء من انحاء وربوع متفرقة وفسيحة على صعيد كل جزيرة العرب هينا .

وهذا هو عين ما أسفر عنه الانتشار السكانى طلبا للنجاة من وطأة ضغوط عدم التوازن الغذائى التى هددت الوجود والمصير . ذلك أن اتساع مساحة الأرض التى لبت الطلب من الغذاء ، قد حقق أو اعاد قدرا معقولا من التوازن بين معدلات الطلب من الغذاء من جانب ومعدلات الاستهلاك من الغذاء . وهل يعنى العودة الى هذا القدر من التوازن الغذائى شيئا أهم من الافلات من قبضة ضغوط الجوع وتردى مستوى المعيشة الى ما دون حد الكفاف ؟ . وهل يعنى الافلات من هذه القبضة شيئا أهم من الانتصار الذى اصطنعه الانتشار ؟ وهل كان فى وسع الانسان وهو فى طور جمع الغذاء أن يفعل شيئا أجدى من الانتشار ؟

ومن الجائز فعلا أن نعرف مدى اتساع الأرض على صعيد جزيرة العرب

التى استوعبت هذا الانتشار • بل من الجائز أيضا أن نصور كيف أسعف هذا الانتشار على صعيد جزيرة العرب طلب الغذاء وجمع الغذاء ، أو كيف انتشل هذا الانتشار الناس من حياة دون حد الكفاف وأمن لهم حد الكفاية أو حد الكفاف • ولكن لا نستطيع بعد ذلك كله تحديد الزمان الذى حقق فيه هذا الانتشار السكانى هذا النمط من انماط الانتصار تحديدا دقيقا •

ومع ذلك ، ينبغى أن نثق فى جدوى هذا الانتشار السكانى من وجهة النظر الاقتصادية • كما ينبغى أن ندرك جدوى هذا الانتشار السكانى من وجهة النظر الاجتماعية لأنه وسع قاعدة الوجود أو الحضور العربى • والعلاقة بين اتساع قاعدة الوجود أو الحضور السكانى العربى من جانب واتساع قاعدة التعامل مع الأرض التى جمع منها الناس الغذاء من جانب آخر ، علاقة صحيحة وبناءة ، ومجدية اقتصاديا •

وعلى صعيد هذه القاعدة التى اتسعت ، خاض الوجود السكانى جولة جديدة من جولاته المتكررة فى صراعه مع ضغوط الجفاف وخطر الجوع • وفى هذه الجولة ، كان فى وسعه أن يفعل شيئا ايجابيا • ولقد أسعف الانسان فى هذا الاتجاه الايجابى التغير الحضارى • وتمثل هذا التغير الحضارى فى معرفة حولت اجتهاده الاقتصادى من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء • وبموجب هذا السلاح الحضارى كان فى وسع الناس على صعيد جزيرة العرب أن يتعاملوا مع الأرض تعاملا جديدا • وأدى هذا التعامل الى الانشطار الحضارى •

وهكذا ، يمكن القول أن الانتشار العربى كان نقطة التحول التى استجاب بموجبها الحضور السكانى فى مرحلة لضغوط الجفاف ، واعتمد عليه فى حل مشكلة الغذاء • ولكن فى المرحلة التالية كان الانشطار العربى نقطة تحول أخرى استجاب الحضور السكانى الذى انتشر على صعيد جزيرة العرب بموجبها لتغير حضارى اعتمد عليه ليس فى حل مشكلة الغذاء فقط بل لبداية مسيرة اجتهاد اقتصادى انتاجى مثير •

• • • • • •

(٦)

الانشطار العربى ، أبعاده الحضارية ونتائجه الاقتصادية :

فى ذلك الماضى البعيد ، الذى سجل الاتجاه السلبى والفرار والانتشار فيه الانتصار والتغلب على ضغوط التحدى المناخى الاقتصادى من خـــلال اتساع قاعدة الوجود على صعيد جزيرة العرب والافلات من قبضة القحط والشح ، كان جمع الغذاء من موارده فى أنحاء هذه القاعدة الواسعة والوصول الى حد الكفاية أو حتى الى حد الكفاف ، هو الانجاز الاقتصادى الوحيد الذى أمن حياة الناس وجسد معنى وأهداف الانتصار • ولكن الانجاز الاقتصادى الذى أسفر عنه التحول الحضارى العظيم قد وضع الناس على بداية طريق جديد غايته الانتاج ووسيلته العمل والتعامل مع الموارد طلبا لهـذا الانتاج •

والتحول الحضارى العظيم الذى سجله اجتهاد الناس فى العـــصر الحجرى الحديث ، كان تحـــولا خطيرا ومجديا بكل المقاييس الاقتصاديـــة والاجتماعية والحضارية • بل لقد فجر هذا التحول الحضارى المثير أول وأعظم **ثورة اقتصادية** فى حياة الانسان• بل قل انها كانت نقطةالبدايةفى التحول المثير البناء اقتصاديا فى حياة الحضور العربى من جمع الغذاء والقبول بالكم والكيف الذى اعتمدت عليه الحياة ، الى انتاج الغذاء الذى أسفر عنه الاجتهاد والعمل الاقتصادى ولبى طلب الحياة •

وفى اطار هذه الثورة الاقتصادية بكل دلالاتها الحضارية والاجتماعية ، بدأ الاجتهاد الاقتصادى بداية فعلية فى مسالكة الانتاجية • بل وبدأ الاتجاه الايجابى فى شأن الأخذ بزمام السيطرة على العملية الانتاجية • وبكل موجبات هذا التحول تعامل الانسان مع الأرض وعكف على استخدام ما انطوت عليه من مصادر متنوعة • وعرف بالضرورة كيف يكون انتاج الغذاء •

وهكذا ، عرف الحضور السكانى العربى المنتشر على أوسع مدى فى ربوع جزيرة العرب لأول مرة ، كيف لا يشقيه البحث عن الغذاء وجمعه • بل قل أنه أقبل على تحرك ايجابى بناء طوع بموجبه المواقف لصالحـــه وامتثلت لارادته هذه المواقف واطاعته • بل قل أيضا أنه عرف كيفية استخـدام المصادر التى انطوت عليها الأرض وكيفية توظيف العمل والآداء العملى فى هذا الاستخدام الذى اعطاه انتاجا فى مقابل العمل • بمعنى انه حول المصادر الى موارد استجابت للعمل وللاستخدام حتى جنى ثمرات انتاجها المتنوع •

وبموجب هذا التحول الاقتصادى المثير ، انتقل الحضور السكانى فى ربوع جزيرة العرب انتقالا ناجحا من وضع اقتصادى كانت حاجة الحياة فيه عاله على ما توفره أو تجود به موارد الأرض ، الى وضع اقتصـــادى جديد ، عرفت الحياة فيه ، كيف توظف الخبرة والمهارة والعمل فى الانتاج وضبط كمه وكيفه • وبدلا من التهافت على جمع الغذاء ، بدأ السعى والاجتهاد فى انتاج الغذاء • وبدلا من أن كان الانسان مستهلكا الى درجة الانتفاع الجائر بأى مورد أو المدمر لأى معين ، أصبح اجتهاد الانسان الاقتصادى اجتهادا منتجا ومستهلكا فى وقت واحد •

وبموجب هذا التحول الاقتصادى الانتاجى المثير ، اتخذ الانســـان والحضور السكانى فى ربوع جزيرة العرب مكان ومكانة المنتج والمستهلك • بل لقد أخذت حركة الحياة عندئذ بزمام الأمر فى :

١ ــ احراز أعظم تغير اقتصادى سيطر على مقومات الانتاج سيطرة من أصبح فى وسعه أن يؤمن حاجة الحياة ، وأن يخفض معـــدلات القلق على الغذاء ، وأن يشد أزر المصير العربى •

٢ ــ احراز أعظم تفتح حضارى سيطر على نمو واتساع دائرة الحاجات الضرورية سيطرة من أصبح فى نيته أن يلبى هذه الحاجات وأن يجاوب ارادة التنعم بها •

وامتثالا لموجبات هذا التحول الحضارى العظيـــم الذى اصطنعته أول ثورة اقتصادية ، وتمشيا مع طبيعة ومنطق العلاقة السويه بين التحـــول الحضارى والاجتهاد الاقتصادى ، اتجه الحضور السكانى المنتشر على صعيد جزيرة العرب اتجاها بناء وايجابيا • ولقد عرف هذا الاتجاه الكيفية التى جاوب بها على ارادة النجاة وطلب التصدى للضغط الاقتصادى الذى هدد التحدى المناخى بموجباته مصالح الناس فى شأن الحصول على الغذاء •

ولقد حقق هذا الاتجاه أهدافه وغاياته الاقتصادية على دربين متباينين • وكان اتجاه الاجتهاد العملى على أى درب من هذين الدربين كفيلا بانتاج الغذاء وانهاء الاهتمام بجمع الغذاء • بل قل ــ بكل اليقين ــ أن التوجه على هذين الدربين فى طلب الغاية الاقتصادية وانجاز العمل الذى حققها ، كان فى نفس الوقت سبيلا الى الانشطار انشطارا حقيقيا فى البنية العربية من وجهة النظر الحضارية والاجتماعية •

وهذا معناه أن أول ثمرات التحول الحضاري والاجتهادي الاقتصـادي الانتاجي قد تمثلت في هذه النتيجة الحضارية والاجتماعيـة • بل قل ـ بكل الثقة ـ أن مسألة الانشطار في بنية الحضور العربي على صعيد جزيرة العرب قد تمثلت في :

١ ـ شأن الممارسة الاقتصادية واستخدام الموارد الأنسب ، وفي شأن الكيفية التي تأتي بموجبها العمل والاجتهاد الفعال في عمليـات انتـاج الغـذاء(١٢) •

٢ ـ شأن الممارسة الحضارية واصطناع النمط الحضاري الأنسب ، وفي شأن الكيفية التي انطلقت بموجبها المسيرة والعمل البناء في الصرح الحضاري العربي(١٣) •

٣ ـ شأن الممارسة الاجتماعية واصطناع النمط الاجتماعي الأنسب ، وفي شأن الكيفية التي جسدت التركيب الهيكلي للبناء أو للنظام الاجتماعي العـربي •

البداوة والوجود البدوي :

على الدرب الأول الذي شهد الاتجاه في طلب الغاية الاقتصادية ، تعلم شطر من الحضور السكاني العربي ، بموجب التحول الحضاري وكل المقومات الطبيعية البيئية التي كفلت هذا التحول ترويض الحيوان واستئناس بعض الأنواع منه وكيفية التعامل معه واستخدامه • ولقد انتخب هذا الشطر العربي ـ آنذاك ـ الحيوان الأنسب في اطار الواقع الجغرافي البيئي • بل وتعلم كيف يقتني القطعان من الحيوانات آكلة العشب • ومن ثم انتفع هذا الشطر البدوي بانتاج الحيوان المتنوع الذي لبى حاجته الى الغذاء وأشبعه وأمن حركة حياته ووجوده في ربوع المراعي •

---

(١٢) جواد علي : المرجع السابق جـ ١ من صفحة ٩٧ الى صفحة ١٠٢ •

(١٣) راجع في شأن هذه الثروة الاقتصادية الأولى رأى جوردن تشايلد • ولقد حبذ التصور الذي رأى فيه أن بعض الواحات في ربوع الصحراء شأنها في ذلك شان سهول الأنهار الفيضية الدنيا ، هي أنسب الأرض وأحسن مكان تعلم فيه الانسان واكتسب الخبرة في شأن استئناس الحيوان وممارسة الرعي وفي شأن استئناس النبات وممارسة الزراعة • وهذه الممارسة في هاتين الحرفتين ممارسة اقتصادية انتاجية • راجع :

(أ) Childe, G. : Social Evolution London, 1951.

(ب) Colborn, R. : The Origin of Civilized Societies. London, 1959.

وصحيح أن هذا الشطر السكاني من الحضور العربي قد عاش عيشة البداوة ، وتعشق الحركة الفصلية واتقن الطواف من غير ملل في ربوع المراعي الفسيحة في جزيرة العرب • وصحيح أن هذا الطواف في ربوع الرعي بحثا عن الماء والكلأ قد انضبط الى حد ملحوظ بضوابط أو بعوامل طبيعية • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الطواف وعدم الاستقرار والتحرك المنضبط ، قد كفل حصة البداوة من هذه الثورة الاقتصادية الانتاجية • وما من شك في أن الانتاج الغذائي الحيواني الذى أمسكت البداوة بزمامه وسيطرت على مقوماته في اطار الواقع الجغرافي البيئي ، قد أمن أهل البادية على قوت يومهم ، الى الحد المعقول الذي لم يصطنعه أو يكفله جمع الغذاء في الماضي •

وما من شك في أن الوجود البدوى قد سار في مضمار الممارسة الحضارية التى جاوبت ارادة البداوة ، والسلوك الحضارى للبداوة في ربوع البادية • وأفصح هذا السلوك عن طلب الحد الأدنى من الضرورات المادية • بل سجل أيضا الاقتناع بحد الكفاف والتحلي بالجلد ، في مواجهة احتمالات التغير في كم الغذاء وانتاجه من سنة الى سنة أخرى • وأباح مجتمع البداوة من أجل ذلك التغير في كم الغذاء السلب والنهب • بل ربما أضفى على السلب والنهب والغزو قدرا كبيرا من التمجيد والبطولة •

الاستقرار والوجود الزراعى :

على الدرب الآخر الذى شهد الاتجاه في طلب الغاية الاقتصادية ، تعلم الشطر الآخر من الحضور العربي ، بموجب التحول الحضارى وكل المقومات الطبيعية البيئية التى كفلت هذا التحول ، استئناس النبات واختيار بعض الأنواع منه وكيفية استخدامه وزراعته • ولقد انتخب هذا الشطر المحاصيل الأنسب في اطار الواقع الجغرافي البيئي • بل وتعلم كيف يفلح الأرض ويغرس الأشجار ويزرع المحاصيل المتنوعة • من ثم انتفع هذا الشطر المستقر الزراعى بانتاج الزراعة المتنوع ، الذى لبى حاجته الى الغذاء ، وأشبعه وأمن وجوده واستقراره في المساحات المناسبة •

وصحيح أن هذا الشطر السكاني من الحضور العربي قد عاش عيشة الاستقرار ، وتعشق حيازة الأرض وامتلاكها ، وفضل السكن والاقامة المستقرة في مستوطنات قروية • وصحيح أن حيازة الأرض وامتلاكها وطلب الانتاج الزراعى المتنوع منها ، قد انضبط الى حد ملحوظ بضوابط أو بعوامل طبيعية • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الزراعة وغرس الأشجار في كنف

الاستقرار المنضبط ، قد كفل حصة الاستقرار من هذه الثورة الاقتصادية الانتاجية • وما من شك فى أن الانتاج الزراعى الغذائى الذى أمسك الاستقرار بزمامه وسيطر على مقوماته فى اطار الواقع الجغرافى البيئى ، قد أمن أهل الاستقرار على قوت موسم طويل • وهذا هو الأمن الغذائى الحقيقى الذى لم يصطنعه أو يسفر عنه ابدا جمع الغذاء فى الماضى •

وما من شك فى أن الوجود المستقر قد سار فى مضمار الممارسة الحضارية التى جاوبت ارادة الاستقرار ، والسلوك الحضارى للاستقرار فى ربوع الزراعة • وأفصح هذا السلوك عن طلب الحد الأقصى من الضرورات المادية • بل سجل أيضا اللهفة على المزيد والتحلى بالتطلع الى تنمية المطالب المادية الحضارية • وما كان فى وسعه أن يقبل بالتغير فى طلب الغذاء وانتاجه الا اذا كان فى الاتجاه الى الأفضل • وأضاف الى ذلك كله طلب الأمن ووضع الضوابط الاجتماعية التى رسخت الأمن والاطمئنان وأمنت الحقوق الخاصة •

• • • • • •

التضاد الحضارى والبحث عن المصالحة :

كأن الانتشار الذى جسد معنى الافلات من قبضة وضغوط التحدى المناخى الاقتصادى[١٤] ، لم يسفر آنذاك عن مجرد الانتصار لوجود ولمصير الحضور العربى الذى عاش فى ربوع جزيرة العرب المترامية الأطراف فحسب، بل لقد يسر هذا الانتشار أمرين هما :

١ ــ حدوث الثورة الاقتصادية الانتاجية فى الوقت المناسب الذى أمن انتاج الغذاء فيهه انتصارا للوجود والمصير العربى •

٢ ــ حدوث الانشطار الحضارى والاقتصادى والاجتماعى فى الوقت

---

(١٤) ارجع الى رأى ابن خلدون والى رأى توينبى فى شأن استثمار جدوى وفاعلية وضغوط التحدى المناخى والتصحر ، فى استنفار قوى الابداع الانسانى انتصارا لمصير الحياة واستجابة لنداء الحياة • وهل يبدع الانسان من أجل شىء أهم من احباط أو ابطال مفعول أى خطر يهدد أو يفزع أمن ومصير الحياة ؟

المناسب الذى ميز بين البداوة والاستقرار وانتهك وحدة الوجود والمصير العربى ٠

وصحيح أن هذا الانشطار قد جاوب الواقع الجغرافى البيئى الذى وجه الاتجاه الاقتصادى الى انتاج الغذاء ٠ وصحيح أيضا أن هذا الانشطار الذى انتهك وحدة الوجود والمصير العربى قد برر مكتسبات كل شطر من ثورة انتاج الغذاء ٠ ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن انتهاك وحدة الوجود والمصير العربى فى جزيرة العرب قد رسخ التضاد الحضارى بين البداوة والاستقرار ٠

وبموجبات هذا الانشطار العربى على صعيد جزيرة العرب فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب ، تأتى الافتراق الحتمى على هذين الدربين من دروب الحياة الانتاجية ، وهما درب البداوة والاشتغال بالرعى والانتاج الغذائى الحيوانى ، ودرب الاستقرار والاشتغال بالزراعة والانتاج الغذائى الزراعى ٠ والافتراق على هذين الدربين التزام حضارى واجتماعى واقتصادى أملته المصالح الخاصة لكل طرف من هذين الطرفين ٠

بل قل — بكل اليقين — أن هذا الافتراق بين البداوة والاستقرار على هذين الدربين ، والالتزام بموجباته هو :

١ — افتراق حضارى بالضرورة فى الممارسة الحضارية وفى الوسيلة الحضارية وفى الغاية الحضارية ٠

٢ — افتراق اقتصادى بالفعل فى الممارسة الاقتصادية وفى الوسيلة الاقتصادية وفى الغاية الاقتصادية ٠

ولقد اصطنع هذا الافتراق الحضارى والاقتصادى أسس ومنطق وحقائق التناقض بين البدو وأهل الرعى والانتاج الحيوانى والحضر المستقرين أهل الزراعة والانتاج الزراعى[١٥] ٠ وهذا التناقض هو عين ما نعنيه بالتضاد الحضارى بين البداوة والاستقرار ، وهما معا أصحاب المصلحة المشتركة فى وحدة الوجود والمصير العربى فى جزيرة العرب ٠

---

(١٥) نقلا عن الرحالة شوينفرت ، يسجل العقاد القول بأن الوجود العربى قد فجر ثورة الاقتصاد الانتاجى وعرفوا استئناس الحيوان والنبات قبل أن تقع هذه الثورة فى كل من مصر والعراق ٠

عباس العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوروبية — القاهرة سنة ١٩٦٠ ص ١١ ٠

واصطناع وترسيخ هذا التضاد بين البداوة والاستقرار على صعيد جزيرة العرب ، قد جعل أمر الانشطار فى بنية الوجودالسكانى العربى صدعا حقيقيا بكل المقاييس الاجتماعية والحضارية والاقتصادية • ولا شىء كان منذ ذلك الوقت أخطر على مصير الحياة المشترك فى جزيرة العرب وحق الحضور السكانى العربى فيها من مضاعفات هذا الصدع • بل قل — بكل اليقين — أنه لا شىء فزع الوجود العربى وهدد مصيره وانتهك وحدته وأمنه ، وأعظم وأخطر من هيمنة روح ومنطق واتجاهات هذا التضاد الحضارى الواقعى بين البداوة والاستقرار ، على مسيرة حركة الحياة •

وهكذا هدد اجتماع البداوة والاستقرار معا فى اطار المصير الواحد والمصالح الاقتصادية المشتركة ، فعل وردود أفعال ذلك التضاد الحضارى • بل لقد تمادت مضاعفات الصدع فى البناء السكانى العربى الى حد الخطر فى بعض الأحيان • وأصبح التضاد الحضارى بعدا من أهم الأبعاد المؤثرة فى مسيرة الحياة فى السر والعلن • بل لقد تسلل هذا البعد المؤثر الى ضمير ووجدان الوجود العربى تسللا خرب ودمر كل أمل فى طلب الأمن أو فى تأمين مسيرة الحياة •

وسجل الواقع الذى جسد التضاد فىذلك الماضىالبعيد كيف مضت حركة الحياة وهى ترتجف من الخوف والفزع الذى اصطنعه التضاد الحضارى بين البداوة والاستقرار • كما سجل هذا الواقع مبلغ تخوف الاستقرار وفزعه من بطش البداوة وجهالة عدوانها المدمر • وهل دعا ابراهيم عليه السلام ربه وتوسل من أجل شىء أهم واجدى من طلب الأمن والأمان ؟ وهل كان طلب الأمن من أجل شىء أهم من احباط عدوان البداوة وكبح جماحه حتى يطمئن الاستقرار ويأمن على وجوده فى مكة ؟[١٦] •

وصحيح أن من شأن **البداوة** ، وهى تمرح فى ربوع البوادى وتعيش حياتها ونمط معيشتها ، ولا تملك سببا وجيها أو مبررا مقبولا يدعوها الى

---

(١٦) جاء فى سورة البقرة من القرآن الكريم : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر • قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير » الآية رقم ١٢٥ • وهل يخاف الاستقرار فى مكة الذى ابتنى ابراهيم فيه لولده سكنا من شىء أخطر من البداوة التى تحيط بها من كل جانب ؟ هل لم يكن فى حاجة الى عناية الله لكى تؤمنه وفى حاجة الى حزام أمن يضبط التحرك منها واليها من أجل الأمن ؟

الاستقرار والثبات ، أن تتعشق الحركة والانتقال ، وأن توجه حركة الحياة ومسيرتها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية على طريق معين ودرب مخصوص لانتاج الغذاء ٠ وصحيح أيضا أن من شأن **الاستقرار** ، وهو يتشبث بالأرض ويعيش حياته ونمط معيشته ، ويملك سببا وجيها ومبررا معقولا يدعوه الى حيازة الأرض والاستقرار فيها ، أن يتعشق السكن فى القرى ، وأن يوجه حركة الحياة ومسيرتها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية على طريق آخر ودرب خاص لانتاج الغذاء ٠ ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن وحدة الغاية والهدف لا تنفى أبدا :

١ ـ التناقض الفعلى بين البداوة والاستقرار ٠ بل قل من غير تردد ، انه هو التضاد الحضارى الحتمى بين النقيضين على هذين الطريقين من طرق الاجتهاد الاقتصادى لانتاج الغذاء ٠ ولقد انطوى هذا التضاد الحضارى على عداء بينهما ، ظاهر ومستتر ٠ وهو عداء قابل للتفجر واثارة الفتن واستنفار الشغب والحرب والمتاعب ٠

٢ ـ خطورة هذا التفجر العدائى الذى اصطنعته حركة البداوة فى ربوع البداوة واستخفافها بالاستقرار المسالم وتعديها على مصالحه ٠ بل قل أن هذا التفجر العدائى الخطير قد أهدر دم الاستقرار وبطش بانجازاته وبدد أحلامه وانتهك اجتهاداته فى انتاج الغذاء ٠

وهكذا أفلت الحضور السكانى العربى عندما انتشر على صعيد جزيرة العرب الفسيح ، من قبضة وضغوط التحدى المناخى الاقتصادية ٠ ولكن محصلة الثورة الاقتصادية الأولى والتحول الى انتاج الغذاء ، قد أوقعت به فى قبضة وضغوط ومضاعفات التضاد الحضارى بين البداوة والاستقرار ٠ وهذا معناه أن انشطار الحضور السكانى العربى فى جزيرة العرب انشطارا حضاريا ، قد وضع هذا الحضور بشطريه ووضع مصالحه الاقتصادية تحت رحمة التضاد الحضارى ٠

وعندئذ ، باتت الحاجة على صعيد جزيرة العرب ملحة الى فعل نشيط أو الى اجتهاد حصيف ، لحسم هذا التضاد الحضارى بين البداوة وهى عدوان وبطش والاستقرار وهو خائف وغير آمن ٠ وحسم هذا التضاد لا يعنى أقل من أسلوب حصيف كبح جماح المضاعفات التى تخوف منها الاستقرار وفزعت حركة الحياة أحيانا ، أو التى تضررت وانتكست بموجبها حركة الحياة أحيانا

أخرى • وهل حسم هذا التضاد الحضارى وكف أذى مضاعفاته شيء أفضل وأجدى من مصالحه بين الأطراف المعنية ؟

كما باتت الحاجة على صعيد جزيرة العرب أكثر الحاحا الى من كان فى وسعه أن يتولى أمر هذه المصالحة أو من كان فى وسعه أن يوظفها التوظيف الحصيف القادر على الحسم بين البداوة والاستقرار • وهل من سبيل لاحباط ضغوط التضاد الحضارى أو لابطال مفعوله العدائى غير القبضة القوية التى عرفت كيف تفرض وتحقق غايات وأهداف هذه المصالحة ؟ •

• • • • • •

(٧)

المصالحة ، معناها ومغزاها :

المصالحة التى كانت مطلوبة بكل الالحاح هى أقرب ما تكون للحل الوسط بين الأطراف المعنية • وهذا الحل الوسط لا يعنى بالضرورة شيئا أهم من عدم التمادى فى التضاد الحضارى ومضاعفاته المدمرة • وقد نرى فيها بعض أهم القواعد والضوابط التى رسختها التقاليد والاعراف التى اجتهدت فى اصطناع التعايش السلمى بين البداوة والاستقرار • أو قل انها — على أقل تقدير — الاتفاق على صيغة الحد الأدنى من علاقات سوية ، حتى لا يتردى التضاد الحضارى بهما معا الى حضيض الصراع أو الضياع •

وصحيح أن هذه المصالحة كانت مطلوبة بالحاح لحساب الاستقرار لأنه هو الطرف الخائف ، أو لأنه الطرف المتضرر بالفتنة التى أثارها التضاد الحضارى • ولكن الصحيح أيضا أن اقتناع البداوة وقبولها بأهداف هذه المصالحة كان أمر ضروريا لكى يتحقق بالفعل الالتزام بها والايمان بجدواها لكل الأطراف المعنية • ولا شيء وضع البداوة فى موضع القبول والالتزام بهذه المصالحة غير الحصافة التى جسدت جدوى الانتفاع المباشر بها وهى مظلة للأمن ، والتى جسدت مبلغ الخطر على حركة الحياة ومصالح البداوة اذا تيقظت الفتنة فى غيبة هذا الأمن •

ولأن تطلع الاستقرار الى جدوى هذه المصالحة كان تطلعا جادا • فلقد خرجت من صفوفه فئة الرجال الذين وضعوا أساس هذه المصالحة • بل انهم

قد اصطنعوا عامل الجذب الذى استقطب اهتمام البداوة وكفل التزامهم بأغراض وغايات هذه المصالحة . وما من شك فى أنهم فى نهاية المطاف كانوا طرفا معنيا من الأطراف المتعددة التى انتفعت بجدوى هذه المصالحة .

والمصالحة التى قلمت أظافر العدوان وكبحت جماح الفتنة ورسخت روح التعايش السوى بين البداوة والاستقرار على صعيد جزيرة العرب ، كانت - بكل تأكيد - من نوع فريد . والتفرد الذى نعنيه بالضبط ليس لأن هذه المصالحة قد نشأت وتوثقت قواعدها وضوابطها واحكامها مع مرور الزمن فى أحضان السوق فقط ، بل لأن سريان مفعول هذه المصالحة المتفق عليها ، كان على المدى الزمنى الطويل الأسلوب الأنسب للانتفاع بالمصالح المشتركة بين كل الأطراف المعنية فى السوق ، على مختلف الأصعدة فى جزيرة العرب .

وهذا معناه أن التفرد قد تمثل فى حسن توظيف العامل الاقتصادى فى خدمة العامل الاجتماعى والعامل الحضارى . واذا كانت العلاقة بين الاقتصاد والاجتماع والسياسة[١٧] علاقة وثيقة فى اطار حركة الحياة ، فان ادراك هذه العلاقة والاعتماد عليها فى انجاز هذه المصالحة ، هو عين الحصافة التى تحلت بها الفئة التى وضعت هذه المصالحة . بل قل أن وضع وسريان هذه المصالحة قد أبقى على قناة اتصال بين البداوة والاستقرار رغم الاستغراق أو التمادى فى التضاد الحضارى .

وهذا معناه أيضا أن النخبة التى انسلخت من الاستقرار الريفى الذى تبنى انتاج الغذاء من الزراعة ، واستقرت فى مواقع عقد الأسواق ، قد تولت أمر هذه المصالحة وأصبحت طرفا معنيا بها . بل قل أن هذه النخبة قد أفلحت الى حد بعيد فى :

١ - تحديد مكان وزمان وسبل سريان مفعول هذه المصالحة .

---

(١٧) عدم نضج فكرة الدولة وعدم نضج منطق السياسة فى ذلك الوقت ، كان أمرا طبيعيا . ومن ثم يمكن أن ندرك المبررات التى حالت دون توظيف العامل السياسى فى ابطال مفعول التضاد الحضارى بين البداوة والاستقرار . كما ينبغى أن ندرك أيضا كيف لم يكن فى وسع الدولة عندما ظهرت فى وقت لاحق أن تنقل زمام المصالحة الى سلطانها ، بل تركت الأمر كله فى الأيدى التى أحسنت توظيف العامل الاقتصادى فى ترسيخ هذه المصالحة .

٢ – وضع صيغة أو صيغ التطبيق العملي للانتفاع بهذه المصالحة والعمل والتعامل بين الأطراف المعنية بموجباتها .

ومن ثم اتخذت هذه النخبة من تطبيق هذه المصالحة وسريان مفعولها بين البداوة والاستقرار سبيلا ، ليس للكسب المشروع فقط . بل كان هذا التطبيق سبيلا اشتركت بموجبه كل الأطراف المعنية اشتراكا اختياريا ، في تأمين حصصها من المصالح المتبادلة أيضا . وعرفت هذه الفئة جيدا كيف تمسك بزمام المصالحة ، لحسابها الذاتي ولحساب الأطراف المعنية الأخرى. بل عرفت أيضا كيف توظف هذه المصالحة التوظيف الأنسب ، لكي تصعد بموجبها الى المكانة المرموقة التي بلغت حد السيادة والتسلط على الأطراف المعنية الأخرى .

وبعد ، هل تعني المصالحة في هذه الصورة أو في هذا الشكل شيئا غير أن توظيف عامل الاقتصاد قد حقق الغاية ؟ وهل تعني السيادة والتسلط على الأطراف المعنية بموجب هذا التوظيف شيئا أهم وأجدى من قيادة حركة الاقتصاد العربي وتوجيه الاجتهادات التي رسخت هذه الحركة ؟

الأسواق والمصالحة(١٨) :

في مثل هذه الأوضاع التي انشطر بموجبها الحضور السكاني العربي الى شطرين ، وتفرقت بهما سبل انتاج الغذاء وطلب العيش في الأنحاء الفسيحة في ربوع جزيرة العرب ، اصطنعت الفرقة التضاد الحضاري ورسخت العداء بينهما وغرست بذور الشقاق والخوف والفزع . ومع ذلك

---

(١٨) في المصالحة التي حققت الحد الأدنى من السلام الاجتماعي لحساب الاقتصادية ، شكل من أشكال المهادنة ، ولكن لا يمكن أن تحل المهادنة تماما محل المصالحة . وفي المصالحة أيضا شكل من أشكال التوافق والتوازن الاجتماعي ولكن لا ينبغي استخدام مفهوم التوافق الاجتماعي بين البداوة والاستقرار ، لأنه لا يعبر تعبيرا صادقا عن معنى ومغزى وأهداف هذه المصالحة . ومع ذلك يجب أن نثق في أن هذه المصالحة – في ثوبها الحقيقي – لا ولم تمثل عقدا أبرمته الأطراف المعنية ، وانها لا ولم تكتسب الشرعية والتزام الأطراف المعنية بها ، بموجب تعهدات واتفاقات موثقة . بل قل هي أقرب ما تكون الى العرف أو الاتفاق العرفي الذي اصطنعته التقاليد واستوجبت مقوماته المصالح المتبادلة من البداوة والاستقرار . وفي القرون القليلة السابقة لظهور الاسلام فقط ، ترجمت مواثيق أهل مكة التي عقدت مع بعض القبائل في أنحاء جزيرة العرب ، مدى الاهتمام بترسيخ هذه المصالحة . ولقد عرفت هذه العهود والمواثيق باسم الايلاف .

أبقت الغاية المشتركة فى طلب العيش على علاقة واهية بين البداوة والاستقرار. ولقد تعرضت هذه العلاقة الواهية فى بعض الأحيان لانتهاكات الفتن التى أثارتها العداوة بينهما .

وهذا معناه أن كل العوامل التى أسفرت عن الانشطارالسكانى وميزت بين البداوة والاستقرار حضاريا واجتماعيا واقتصاديا ، قد أبقت على خيط رفيع اصطنعته وحدة الغاية والهدف . وهذا الخيط الرفيع أو تلك العلاقة الواهية هى التى وظفت بكل الحصافة فى تقوية أواصر المصالح المتبادلة أحيانا ، والمصالح المشتركة أحيانا أخرى بين البداوة والاستقرار . ومن ثم كانت الحاجة ملحة الى مصالحة ترعى وتؤمن هذه المصالح بقدر الحاجة الى مصالح تدعم وتحافظ على المصالحة ، بين الأطراف المعنية .

وسواء كانت المصالحة مطلوبة لأنها هى التى أبقت ورعت المصالح وهى الخيط الرفيع الذى ربط بين البداوة والاستقرار ، أو كانت المصالحة وهى الصيغة التى تعامل من خلالها الاستقرار مع البداوة مطلوبة لأنها تدعم المصالح وتبقى عليها ، فان حسن توظيف العلاقة بين المصالح الاقتصادية والمصالحة كان السبيل الأفضل الذى أمنت بموجبه كل الأطراف المعنية ما خصها واهتمت به فى اطار هذه العلاقة . بل ان تأمين ثمرات هذه العلاقة وتأمين استحقاقات الأطراف المعنية فيها ، كان نقطة بداية فى اسهام مشترك بناء فى العمل الاقتصادى . بل انه هو بعينه الاسهام الذى اصطنع به الشركاء **القاعدة المشتركة العريضة للبناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام .**

وحسن توظيف العلاقة الوظيفية ، بين المصالح الاقتصادية من جانب ، والمصالحة بين البداوة والاستقرار من جانب آخر ، هو الذى أسفر عن الضوابط والقواعد التى رسخت جدوى هذه المصالحة وأمنت حقوق الانتفاع بها . بل انه هو التوظيف الحصيف الذى شد أزر القبضة القوية التى امتلكت قوة الضغط وفاعلية الممارسة لكى تكفل الحقوق فى صلب هذه المصالحة أو لكى تبقى على العلاقة التى استوجبت هذه المصالحة . وفى كثير من الأحيان ، تشددت هذه القوة أو امتدت هذه القبضة القوية امتدادا حاسما وفعالا ، لكى تمنع الالتحام العدوانى بين البداوة والاستقرار أو لكى تنهى أو تفض النزاع بينهما من أجل الابقاء على روح المصالحة .

والقوة التى كان فى وسعها أن تمتلك هذه القبضة القوية أو القدرة الفعالة ، هى – فى رؤيتنا العصرية – الحكومة ووسائلها وادواتها ونظمها

الحاكمة • وصحيح أن قيام حكومة لكى تؤدي هذا الدور الوظيفي ، كان كفيلا بأن تتحقق هذه القوة التى رنت اليها المصالح والمصالحة ، لكى تنظم وتؤمن مسيرة الحياة فى جزيرة العرب • ولكن المؤكد إن هذا الحضور السكانى العربى بشطريه البدوى والحضرى ، لم يكن قد بلغ آنذاك مرتبة معقولة من النضج الحضارى والاجتماعى ، لكى يتلمس هذه القوة ، أو لكى يصطنع الحكومة • بل وما كان فى وسع المجتمع أن يجسد مقومات تؤدى بموجبها الحكومة الدور الوظيفى المنظم أحيانا والحاكم أحيانا أخرى لمسيرة وأوضاع ومصالح حركة الحياة •

ومن الجائز أن ندرك كيف مضت مسيرة حركة الحياة على المدى الطويل وهى منتفعة بهذه المصالحة • كما يمكن أن نتبين كيف اسهم هذا الانتفاع بالمصالحة فى نمو وتطور ونضج الاستقرار الذي تنعم بالأمن وتمادى فى التحضر • وصحيح أن هذا النضج والتمادى فى التحضر قد أسفر عن قيام حكومة وتكوين دولة واكتمال اهم مقومات وجودها ودورهما الوظيفى السياسى فى انحاء من الجنوب العربى منذ حوالى ٢٠٠٠ سنة قبل الاسلام(١٩) • ولكن الصحيح أن القبضة القوية التى كانت قد أمسكت بزمام المصالحة وتولت أمرها قبل قيام هذه الحكومة ، قد أبقت على هذه المسئولية أمانة فى عنقها ، ولم تفرط فيها أو لم تتنازل عنها • بل ربما لم تتحمس الحكومة لنقل هذه المسئولية الى سلطاتها •

أما مسيرة حركة الحياة التى عاشتها البداوة فى ربوع البوادى ، وقطعت أشواطها المتأنية من قرن الى قرن آخر أو من مرحلة الى مرحلة أخرى الى عهد ظهور الاسلام ، فقد رسخت النظام القبلى والانتماء الى القبيلة أكثر من أى انتماء آخر • وحال ذلك التشبث الاجتماعى بالانتماء القبلى دون النضج الحضارى الذى يصطنع التداخل والتلاحم فى بناء بشرى متجانس يحبذ قيام حكومة ويطلب تكوين دولة تمسك بزمام السلطة • كما حالت الأوضاع الحضارية فى ربوع البداوة دون نشأة الفكرة التى تمثل النواة فى بناء صرح الدولة • بل قل انه فى حالات الاستثناء المحدودة التى قامت فيها حكومة

---

(١٩) مملكة معين هى أقدم نظام أقام دولة فى حوالى القرن ١٣ قبل الميلاد • وشغلت هذه الدولة المساحة بين نجران وحضرموت فى اطار الجنوب العربى • وتقع خرائب مدينة معين فى القسم الجنوبى من الجوف •

أحمد سوسة : العرب واليهود فى التاريخ ط ٤ دمشق سنة ١٩٧٥ ص ٢٠٧ •

واكتمل الشكل المادى للدولة ، لم تضمن هذه الحكومة تماما ولاء القبائل البدوية واكتمال الشكل البشرى للدولة • ومن ثم ما ملكت مثل هذه الدولة التى جسدت الاستثناء فى اطار البداوة ، القدرة ، وما كان وفى وسعها تحمل مسئولية المصالحة بين البداوة والاستقرار •

وسواء أبت القوة التى تحملت مسئولية سريان مفعول هذه المصالحة التنازل عن زمامها للحكومة فىمجتمع الزراعة والاستقرار ، أو افتقدت الحكومة فى مجتمع البداوة والرعى القدرة على تحمل مسئولية سريان مفعول هذه المصالحة ، فان الحاجة الى ثمرات هذه المصالحة لكل الأطراف المعنية ، قد أبقت عليها • وظلت فئة التجار فى السوق وهى النخبة المرموقة فى نظر الحضور العربى من البدو والحضر ، القوة الأنسب لسريان مفعول وتنفيذ مقررات المصالحة ، والقبضة الأقوى لتأمين مصالح الأطراف المعنية فى هذه المصالحة •

ولأن البداوة على صعيد جزيرة العرب سجلت على المدى الطويل رفض قيام حكومة أو استخفت بها وبنظامها عندما قامت بالفعل ، ولأن البداوة تحررت من أى نظام وكل نظام قيد حريتها أو ضبط تحركاتها المتحررة فى ربوع المراعى الفسيحة ، كانت الحاجة الى المصالحة ملحة لأنها هىالتى اشركت البداوة فى الواقع الاقتصادى العربى • بل كانت الحاجة الملحة أيضا الى من أمسك بزمام المصالحة بين البداوة والاستقرار وكفل سريان مفعولها مسألة حيوية ، لأنها هى التى أمنت حصتهم من الواقع الاقتصادى قبل الاسلام •

ولأن الاستقرار على صعيد جزيرة العرب سجل على المدى الطويل التخوف على مصالحه من تحركات البداوة المتحررة أو المستخفة بالنظام ، ولأن الاستقرار تطلع الى الأمن والسلامة فى اطار الأرض الزراعية ، أو فى اطار القرى التى اعتصم بها ، تشبث الاستقرار بالمصالحة وباسهامها الاقتصادى فى الواقع الاقتصادى العربى • بل تشبث المستقرون بالنخبة التى أمسكت بزمام المصالحة بين البداوة والاستقرار تشبثا قويا ، لأنها هى التى امنت حصتهم فى الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام •

ولأن النخبة من القوم التى أمسكت بزمام المصالحة كانت هى فئة التجار ، فلقد أصبحت الأسواق المكان الأنسب لعقد وتوثيق هذه المصالحة بين البداوة والاستقرار • ومع ذلك يجب أن ندرك أن الحاجة الى التعامل بين المنتجين من خلال المقايضة أحيانا ، أو من خلال البيع والشراء أحيانا

أخرى ، هى التى بررت أو دعت أو استوجبت نشأة وقيام السوق • ولقد هيأ مناخ التعامل فى السوق ، واستشعار المتعاملين من البداوة والاستقرار جدوى أو قيمة المصالح التى حققها هذا التعامل قيام هذه المصالحة والحرص على سريان مفعولها •

هذا ، وكان من الضرورى أن ينتخب المكان الأنسب فى الموقع الأنسب لقيام السوق وتوظيفه فى آدائه العملى • كما كان من الطبيعى أيضا أن تفرغ فئة التجار نفسها تفرغا كليا للاهتمام بالسوق وتوظيف السوق • وما من شك فى أن الانتفاع بالسوق وتوظيفه ، سواء كان التعامل فيه موسميا أو يوميا أو دائما ، قد رسخ السوق وثبت وجوده فى مكانه • بل قل — بكل اليقين — أن هذا الانتفاع قد أثرى وقوى قبضة ورفع مكانة كل أولئك الذين عكفوا على تنظيم العرض والطلب ، أو تولوا أمر حركة البيع والشراء • ومن ثم وظفت هذه الفئة هذه القدرات وتلك المكانة فى سريان مفعول المصالحة والتعامل بموجبها بين البداوة والاستقرار •

وما كان غير السوق مكانا أنسب لكى تضع حركة التعامل فيه أو لكى تصطنع المصالح المشتركة فى دوره الوظيفى فى الاساس الحقيقى والمبادىء الأولية لفكرة المصالحة بين البداوة والاستقرار فى جزيرة العرب • بل قل أن التعامل فى السوق قد رسخ على المدى الطويل كل الضوابط والاحكام التى جسدت معنى ومغزى المصالحة ، ومدى المحافظة عليها • كما نجح التعامل فى السوق فى تطوير وتنمية هذه المصالحة ، لحساب الحضور العربى ومصالحه الاقتصادية •

ويمكن القول أن بعض أهم الأسواق التى قامت فى أكثر من مكان منتخب آنسب ، وآدت دورهما الوظيفى فى خدمة التعامل التجارى عند تقاطع بعض أهم الدروب والمسالك على صعيد جزيرة العرب ، فى الشمال والجنوب ، قد اصطنعت :

١ — نوايات نمت من حول كل نواة مستوطنة بشرية • وتحولت مع مرور الوقت الى ما يجب أن نسميه مدن الأسواق[٢٠] •

---

(٢٠) اختيار موقع السوق كان فى الغالب من الأمور التى رشدها الحس الجغرافى الفطرى وادراك قيمة المكان • وما من شك فى آن هذا الاختيار قد اهتم بالعلاقة بين الطريق أو الدرب من ناحية والدور الوظيفى الذى لا ولم يعززه غير الأمن على الطريق من ناحية أخرى • ومواقع

٢ ـ نقطة البداية فى أغرب نموذج مثير أو أجدى نمط مثمر من انماط المصالحة طويلة الأمد بين البداوة والاستقرار ٠

وفى السوق أى سوق وكل سوق ، على صعيد جزيرة العرب ، سواء كانت الحركة منه واليه لحساب التعامل التجارى الاسبوعى أو الموسمى أو اليومى ، أو كانت الحركة مارة به فى طلب الأمن والتقاط الأنفاس على مراحل الطريق ، التقت مصالح البداوة ومصالح المستقرين وجها لوجه ٠ ولقد ظللت هذا اللقاء مظلة الأمن التى نشرتها المصالحة ووظفتها توظيفا ماهرا ومجديـا لحساب كل الأطراف المعنية(٢١) ٠

والتقاء المصالح وجها لوجه على هذا النحو ، معناه من كل وجهات النظر الانتفاع المتبادل ، اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا ٠ ولم يسفر الانتفاع المتبادل بين الأطراف المعنية عن شىء أهم من استثمار المصالحة ٠ بـــل لا يجب أن نشك أو أن نتشكك فى جدوى استثمار المصالحة سواء تمثلت فى :

١ ـ ترشيد العلاقات السوية بين البداوة والاستقرار فى مناخ نفسى هادىء ظللته روح المسالمة ٠

٢ ـ تفتح قنوات الاتصالات السلمية الهادفة بين أهل البادية وأهل الحضر ٠

ومن ثم يمكن أن نذكر من غير تردد أن هذا الالتقاء المثمر والمثير والمتكرر بين كل الأطراف المعنية بالمنافع المتبادلة ، قد رسخ فى التقاليد والاعـراف عند أهل البداوة وعند أهل الاستقرار ، جدوى المصالحة وضرورة التعامـــل

الأسواق عند تقاطعات الطرق والدروب التى أفلحت فى ضبط وتأمين التحرك ، هى التى استقطبت الاستيطان البشرى وأصبحت مع مرور الوقت مدينة من مدن الأسواق ٠ وصنعاء مثلا عند تقاطع الطرق من الجنوب الى الشمال (تعز ـ صعده) وتقاطع الطرق من الغرب الى الشرق (المخا ـ مأرب) ، نموذج جيد لجدوى توظيف عامل المكان الجغرافى فى اختيار موقع السوق وفى تحول الموقع الى مدينة من مدن الأسواق ٠

(٢١) مكة التى اختصت بأعظم سوق أدى دوره الوظيفى لحساب التعامل التجارى على الصعيد العربى ، وأدى دوره الوظيفى لحساب تجارة المرور الدولى ، نموذج جيد آخر لاختيار المكان الأنسب ٠ ثم هى أيضا النموذج الذى جسد معنى النواة ونمو العمران والاستيطان وقيام مدينة السوق من حول هذه النواة ٠

بموجبها والابقاء عليها • بل قل أن ذلك كله قد نبه الأذهان الى مغزى ومرمى هذه المصالحة ، وأقام الحجة لصالحها ، وكيف يمكن أن تكون :

١ ـ أرض السوق هى **المكان الأنسب** لعقد وسريان مفعول هـــذه المصالحة •

٢ ـ فئة التجار هى **اليد الأقوى** التى تكفلت بتطبيق وسريان مفعـول هذه المصالحة •

٣ ـ فترة التعامل هى **الزمن الأجدى** لاستثمار جـــدوى هـــذه المصالحة(٢٢) •

وصحيح أن هذه المصالحة التى وثقتها التقاليد والاعراف فى ربـــوع جزيرة العرب كانت موفقة ، عندما نسقت بين مصالح البداوة ومصالـــح الاستقرار ، وجمعت بينهم على صعيد واحد آمن للتعامل فى السوق • وصحيح أيضا أن تكرار هذا الاجتماع أو الالتقاء كان مثمرا ، عندما جسد مفهوم المصالح والمنافع المتبادلة ورسخ معنى ومغزى المصير المشترك ، ونما فى التقاليـــد العربية قبل الاسلام ، روح ومنطق وتوجهات المصالحة الى الحد الأمثل من المسالمة بين الأطراف المعنية • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن استمرار سريان مفعول هذه المصالحة وتطور صيغتها مع مرور الوقت لم يفلح أبدا فـــى :

١ ـ انهاء التناقض بين البداوة والاستقرار لأنه تضاد حضارى •

٢ ـ ايجاد صيغة التلاحم الحضارى المتجانس لاخفاء أو ترميم الصدع فى البناء الحضارى العربى •

وهذا معناه أن سريان مفعول المصالحة قد ابطل مفعول التضاد الحضارى ومضاعفاته على المصير المشترك فى الواقع الاقتصادى • ولأن ابطال وتجميد مفعول التضاد الحضارى شيء مختلف تماما من حيث المغزى والمرمى عن انهاء وقطع دابر التضاد الحضارى ، حافظت كل الأطراف المعنية على استمرار

---

(٢٢) الأشهر الحرم التى تفرغ فيها الوافدون الى السوق ، نموذج جيد لمعنى ومغزى حسن اختيار وتحديد التوقيت الزمنى الأجدى لسريان مفعول المصالحة واستثمارها فى تأمين التعامل التجارى بين البداوة والاستقرار فى السوق •

سريان مفعول هذه المصالحة • ولقد امتثل لها كل طرف وتنعم بمظلة الأمن التى نشرتها فى فترات التعامل التجارى فى السوق •

أما فى الفترات انفض فيها السوق توقف بالضرورة سريان مفعول المصالحة • ولقد ارتد كل طرف وعاد سيرته السابقة وتحلل من كل التزام بروح ومنطق المصالحة • بل قل أن كل طرف من الأطراف المعنية قد ابقى وحافظ فى اطار انتمائه الى البداوة أو الى الاستقرار على روح ومنطق التضاد الحضارى ومبرراته السلوكية • وهذا معناه بالقطع أن توظيف المصالحة توظيفا وقتيا ، كان من قبيل الاستجابة للمنفعة الذاتية التى تطلع اليها كل طرف معنى من الأطراف المعنية الأخرى أكثر من أى شىء آخر • ومعناه أيضا انها أى المصالحة كانت ضرورة سلوكية من أجل مصلحة اقتصادية ذاتية •

ولقد تعلم البدو فى ربوع البوادى الفسيحة على صعيد جزيرة العرب ، كيف يكون الحرص على هذه الضرورة السلوكية من أجل المنافع والمصالح التى أسفرت عنها هذه المصالحة • بل لقد التزم البدو بسريان مفعولها فى الوقت الأنسب المتفق عليه ، وكبح ارادة كل عدوان فى هذه الفترة الزمنية المحددة • وقل انهم تجنبوا اهدار مضمون هذه المصالحة أو التفريط فى الضرورة السلوكية التى أبقت على سريان مفعولها •

وهذا بالقطع هو منطق من طلب المسالمة وليس منطق من طلب السلام • والمسالمة من أجل المصالحة أو الابقاء على سريان مفعول المصالحة شىء مختلف تماما عن المسالمة من أجل ترسيخ السلام • ومن ثم وفد اهل البادية الى السوق وهم أصحاب مصلحة ذاتية ، وتعاملوا فيها تعاملا منفتحا ، جسد معنى المسالمة وأبقى على روح المصالحة • وكان اقصى ما عبر عن روح ومنطق المسالمة وتوظيفها التوظيف الوقتى فى كبح جماح التضاد الحضارى وما انطوى عليه من ارادة العدوان ، هو افراغ شحنة العداء والبغضاء فى ساحات السوق • وتمثل هذا التفريغ فى شعر الهجاء أو فى شعر الفخر أو فى شعر الاستعلاء •

ودرج الاستقرار بدوره على حسن توظيف المصالحة والابقاء على الحد الأقصى من جدواها الاقتصادية • وتعلم أهل الحضر المستقرين فى أرض الزراعة والقرى المتناثرة التى جمعت شملهم ، معنى ومغزى حسن استثمار هذه المصالحة اقتصاديا • بل لقد ابدع هذا الطرف وتفنن فى ترسيخ تقاليد واعراف هذه المصالحة • كما تمادى اجتهادهم الحصيف فى تطويرها على

المدى الطويل ، وافرط فى التشبث بسريان مفعولها وتنعم بالتزام كل الأطراف المعنية بها ٠

وهذا بالقطع هو منطق من قبل بروح المسالمة ، لأنه لم يجد السبيل الى منطق وروح السلام ٠ ولقد وفد أهل الاستقرار الى السوق مسالمين وهم أصحاب مصلحة ذاتية فى هذه المسالمة الوقتية ، وتعاملوا فيها تعاملا متفتحا ابقى على المصالحة ورسخها ، وطور العمل بها ٠ وكان أقصى ما اسفر عنه هذا الاجتهاد فى شأن تأمين مكتسبات الاستقرار من هذه المصالحة ، هو حسن توظيف المسالمة فى اشاعة الأمن وتأمين الحقوق ليس فى ثمـــرات المصالحة فى ساحة السوق فقط بل فى ربوع الاستقرار أيضا ٠ وقل انه عرف كيف يتحلى باليقظة من أجل هذه الغاية ولم ينغمس فى متاعب وسوءات القلـق ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

الأسواق وحركة الاقتصاد العربى :

فى موقع كل سوق هامة من أسواق العرب ، الذى شهد نشأة مستوطنه و بلدة ، عند أهم تقاطعات الطرق والدروب والمسالك الحساسة ، ظهر فريق التجار وهم النخبة العربية التى استثمرت قيمة المكان ونمت مكانته ٠ وحققت هذه النخبة بموجب هذا الاستثمار الأرباح المجزية والمكاسب المادية والأدبية، فى وقت واحد ٠ ولعبت هذه النخبة فى الوقت نفسه دورا بارزا ، فى شأن سريان مفعول المصالحة بين البداوة والاستقرار ٠ ولقد جعلوا من توظيف هذه المصالحة وسريان مفعولها أساسا مجديا للانفتاح على التعامل فى السوق فى الشكل وعلى المستوى الذى عزز قنوات الاتصال والعلاقات الاقتصادية بـين كل الأطراف المعنية ٠ ومن ثم كسبت هذه النخبة ود واحترام وثقة كل طرف من الأطراف المعنية بالمصالحة ، لحسابه الاقتصادى الذاتى ٠

ومن خلال العلاقات السوية والتعايش الاقتصادى الأفضل الذى رسخته المنافع المتبادلة فى الأسواق ، بين البداوة والاستقرار انتعشت الأسواق وحركة الاقتصاد انتعاشا حقيقيا ٠ ومن خلال تصدى فريق التجار بكـــل الحصافة والمهارة والسمعة الحسنة ، لاعتلاء صهوة المكانة المرموقة بين الحضور السكانى العربى (البدو والحضر) فى جزيرة العرب قبل الاسلام ، ترسخت

وتطورت أسس واصول وقواعد عززت انتعـاش الأسواق(٢٣) ، ومـدن الأسواق ٠

ولقد تجلى هذا الانتعاش مع مرور الوقت ، والمضى بنجاح فى توظيف الأسواق توظيفا رشيدا أو فى تنشيط حركة الاقتصاد تنشيطا مستمرا ٠ ومن ثم كانت للاسواق الكلمة المسموعة والأمر المطاع والنهى الرادع على المستوى الاقليمى فى ربوع جزيرة العرب فى شأن

١ ـ التعامل التجارى وحركة الاقتصاد والمصالح المتبادلة بين أهل البادية وأهل الحضر ٠

٢ ـ ضبط وانضباط الحركة والمرور على الطرق والمسالك منهـا واليها ٠

٣ ـ سريان مفعول المصالحة وتوظيف روح المسالمة فى اشاعة الأمن وتأمين الحقوق الخاصة والعامة ٠

بل قل لقد ادرك الحضور العربى ممثلا فى البداوة والاستقرار ادراك الرشيد المستفيد ، قيمة أو جدوى السوق والابقاء على المصالحة والالتزام بها ٠ ومن ثم كان الحرص الواعى على قنوات الاتصال التى سيرت وأمنت وأبقت على العلاقات والتعامل فى الأسواق ٠ كما حافظت وأبقت على الأواصر التى شدت أوصال هذا التعامل وطورت دوره الوظيفى لحساب حركة الحياة٠ وبموجبات هذا الادراك الحصيف استشعر الحضور العربى فى البادية وعلى صعيد المراعى ، أو فى الريف وعلى صعيد الأرض المزرعة معنى ومغزى وحدة المصير العربى اقتصاديا ٠

كما أدرك هذا الحضور العربى مثلا فى البداوة والاستقرار ادراك العاقل المستفيد ، قيمة أو جدوى الابقاء على وحدة المصير العربى اقتصاديا ٠ ومن ثم كان الحرص الشديد والانصياع لفريق التجار وهم النخبة المهيمنة فى الأسواق التى أمنت وحافظت وأبقت على سلامة وجديـة التعامل فى اطـار

---

(٢٣) تأثر الهمدانى فى كتابته التى أوردها فى كتابه صفحة جزيرة العرب بعصره وحركة الحياة فى عصره المزدهر بنور وقوة الاسلام ، ومع ذلك أعطت الصورة انطباعا جيدا عن قيمة السوق ٠ (راجع صفحة ١٧٩ وما بعدها) ٠

وحدة المصير الاقتصادى . كما تمادى الاهتمام والحرص على تطلعات هـذا المصير ومصلحته فى الوحدة من غير تجنى أو اعتراض أو تخوف من عـدم التجانس الحضارى بين الأطراف المعنية . وبموجبات هذا الادراك الحصيف أيضا ، سلم الحضور العربى فى البادية وعلى صعيد المراعى ، أو فى الريف وعلى صعيد الأرض المزرعة زمام ذلك المصير الاقتصادى المشترك للنخبـة المرموقة فى الأسواق .

والعودة الى مسيرة كثير من المواقع عند تقاطعات الطرق والدروب بين الشمال والجنوب ، وبين الشرق والغرب ، على صعيد جزيرة العرب قبـل الاسلام ، التى نشأ ونما وذاع صيت الاستقرار فى انحائها ، واصطنع لوجوده ومسكنه بلده أو مدينة ، تكشف عن كنه ومغزى وجدوى الدور الوظيـفى للأسواق . بل هى تكشف أيضا عن جدوى حركة التعامل التجارى فى كل سوق من هذه الأسواق ، وكيف تجلت هذه الجدوى فى شأن :

١ ـ قيام المدنية ونموها العمرانى نموا عززه الانفتاح التجارى والتفتح الحضارى .

٢ ـ انتعاش الحركة والمرور على الطرق والدروب والمسالك فى ظـل الأمن الذى كفلته المدينة .

٣ ـ ارتباط النبض الاقتصادى فى ريف الزراعة أو فى ريف البداوة بالنبض الاقتصادى فى المدينة أى مدينة من مدن الأسواق .

ـ وهكذا كانت السوق النواة التى أسفرت فى بعض المواقع الجغرافية المنتخبة عن قيام المدن . واستهوت مدن الأسواق الأفئدة ، وتبنت المصالحة وتأمين التعامل بين المبداوة والاستقرار . واصطنعت من المصالحة حالة من المسالمة أمنت مصالح المصير الاقتصادى العربى المشترك . ولا ينبغى أن نميز فى هذا الشأن وموضوعيته الاقتصادية بين مكة وصنعاء ومأرب وعدن ويثرب غيرها من مدن الأسواق . ولقد شهد الزمان كيف بدأت فى مواقعها الأسواق وغرست النواة . وعندئذ نشأت كل مدينة من مدن الأسواق على مراحل . وفى اطار وجودها العمرانى ونبض حيويتها الوظيفية أثمرت المصالحة وازدهر التعامل التجارى .

وبلدة أو مدينة السوق على مختلف الأصعدة فى ربوع جزيرة العـرب قبل الاسلام قد هيمنت على حركة الاقتصاد . وسواء قامت هذه المدينة فى

قلب البادية أو أشرف الاستقرار في انحائها على ريف الزراعة فى ربوع الأرض المنزرعة ، كان الدور الوظيفى للسوق وحيوية الحركة فيه هو صلب وجودها ومبعث هيمنتها الاقتصادية ٠

ولقد تولت مدينة السوق أمر الأمن على أوسع مدى من حولها ، لأنه هو الضمان الفعلى الذى نشط وأبقى على نبض العمران فيها ، وأمن الحركة منها واليها ٠ بل امتدت مظلة الأمن الى حد تأمين حقوق البداوة وحقوق الاستقرار فى حركة الاقتصاد والتعامل التجارى ٠ وهل نشك فى أن هذا الأمن الاقتصادى هو قمة الجدوى فيما انتهت اليه المصالحة بين الأطراف المعنية على صعيد السوق ؟ أى سوق وكل سوق ٠

الاعتقاد الدينى ودعم حركة الاقتصاد العربى :

وفى مدن الأسواق ، تمادى فريق التجار الذى أشرف على سريان مفعول المصالحة وروح المسالمة بين البداوة والاستقرار ، وآل اليه زمام التعامل التجارى وحركة الاقتصاد فى السوق ، الى أبعد مدى فى شأن دعم مكانة السوق ٠ ولا شىء كفل هذا الدعم وأبقى عليه غير التشدد فى الأمن وضوابط الأمن من أجل تأمين البلدة والعمران الذى نشأ على الأرض حول السوق ، وحماية كل الأهداف والوظائف التى تصدت لها هذه البلدة(٢٤) ٠ ومدت سلطة التجار فى البلدة مظلة الأمن من حولها الى أوسع مدى ، حتى أمنت تجارة المرور وحركة القوافل التى وظفها الاستثمار فى خدمة العمل الاقتصادى(٢٥) ٠

وامعانا فى دعم بلدة السوق وترسيخ مكانتها الاقتصادية ، تبنت هذه البلدان الاعتقاد الدينى فى بعض الأحيان ، أو التصق وجودها ودورها العمرانى الوظيفى به فى بعض الاحيان الأخرى ٠ بل قل انها فى أى وضع من هذين الوضعين ، وظفت الاعتقاد الدينى فى أى شكل من أشكاله أو من أشكال

---

(٢٤) تطور مفهوم المصالحة على المدى الطويل ٠ وأسفر هذا التطور عن عقد وابرام عهود ومواثيق ٠ ولقد كفلت هذه العهود التى عرفت بعقود الايلاف الأمن على الطرق وأمنت تجارة المرور ٠ وجاء ما يعزز هذا المفهوم فى القرآن الكريم ٠ (بسم الله الرحمن الرحيم ، ايلاف قريش ايلافهم ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ٠

(٢٥) هناك أكثر من عقد ايلاف عقدت بين قريش والفرس والروم والأحباش ٠
جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٧ ص ٢٨٧ ٠

الاعتناق والعبادة والتدين(٢٦) ، توظيفا ماهرا ومؤثرا فى مكانة الحركة الاقتصادية ، وفى تنشيطها وانتظامها ٠

ولقد أضاف هذا التوظيف الحصيف عنصرا من أخطر العناصر الفعالة فى الدور الوظيفى للسوق ٠ واستقطب هذا العنصر اهتمام التعامل فى السوق بالقدر الذى استهوى الحس الدينى والاعتناق ودعا الناس الى زيارة السوق٠ كما كفل هذا العنصر للسوق وللتعامل فيه وللعمران من حوله مزيدا من الأمن والتعظيم ٠ بل قل ان التعظيم والاحترام الذى غرسه الاعتقاد الدينى فى نفوس الناس كان منبعا من منابع الأمن الذى تنعمت به مدن الأسواق ٠ والاعتقاد الدينى الذى أحسن العمل التجارى توظيفه واستثماره استثمارا اقتصاديا ، هو الذى كفل تحديد الاشهر الحرم التى تنعم التعامل التجارى فيها بالأمن . وأمن المدى الزمنى لسريان مفعول المصالحة بين الأطراف المعنية بهذا التعامل التجارى(٢٧) ٠

ولا تتريب علينا عندما نضرب المثل بمكة وهى واحدة من مدن الأسواق٠ بل قل انها تربعت فى مكانة القمة بين مدن الأسواق على صعيد جزيرة العرب قبل الاسلام ٠ وينبغى أن ندرك كيف نشأت واحتوت فى اطار العمران السوق والبيت العتيق ٠ وصحيح أن هذا الاحتواء قد ضل وضلل عندما وضع الأصنام من حول الكعبة المشرفة ، ولكن الصحيح أن هذا الاحتواء هو ما نعنيه بالضبط بتطويع الاعتقاد الدينى لحساب العمل التجارى ٠ واحتواء البيت العتيق قد عبر بالقطع عن معنى التدين فى الظاهر ، ولكنه عبر بالفعل عن مغزى توظيف الاعتقاد الدينى توظيفا غير متجرد فى دعم المكانة

---

(٢٦) انغماس العرب قبل الاسلام فى الضلال والكفر وعبادة الأصنام ، لا ينفى عنهم أبدا انهم كانوا قد تمادوا فى الاعتناق والتدين ٠ وكانوا من غير شك يعرفون الله ولكن ضللهم حسهم الدينى وأغرقهم فى غياهب الشرك والضلال ، وربما أوصلهم الانفتاح الاقتصادى والحضارى الى التخبط الروحى ٠

(٢٧) فى الجاهلية السابقة مباشرة لظهور الاسلام ، اختلف العرب حول مبلغ حرمة الأشهر الحرم وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم متواليات وشهر رجب ٠ وتخلف فريق منهم عن الاعتراف بهذه الحرمة ٠ واشترك فى هذا الفريق النصارى واليهود جنبا الى جنب مع المحلون الذين أحلوا أنفسهم من التقيد بهذه الحرمة ٠

جواد على : الفصل ١٣٢ من نفس المرجع جـ ٨ ط ١ من صفحة ٤٧١ الى صفحة ٤٨٧ ٠

الاقتصادية(٢٨) لمدينة مكة ٠

وبصرف النظر عما كان من أمر الضلال والتمادى فى الشرك بالله وهم على معرفة بالله وفضل الله ، يجب أن ندرك كيف لوت قريش ذراع التدين ووجهت الاعتقاد الدينى الضال والمضلل الذى تبنته مكة قبل الاسلام ، الوجهة التى أعلت مكانة البلدة حتى عرفت بأم القرى على صعيد جزيرة العرب ٠ ولقد وظفت مكة مواقع المواقيت التى يدخل منها الوفود الى مكة حاجين أو معتمرين توظيفا اصطنع من حولها حزاما للأمن ٠ كما وظفت قريش ضلال هذا الاعتقاد الدينى توظيفا مكشوفا عزز مكانتها بين جموع العرب والقبائل وقوى قبضة تحالف التجاريين على زمام حركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام ٠ وهل نتشكك بعد ذلك كله فى جدوى توظيف الاعتقاد الدينى توظيفا مؤثرا فى حركة الاقتصاد ؟ وهل نستنكر كيف بلغت مدن الاسواق بموجب هذا التوظيف مكان السيادة وكيف تنافست فيما بينها على هـــذه المكانة قبـــل الاسلام ؟(٢٩) ٠

هذا ، وما كان من شأن مكة أم القرى أن تحتل المكانة الأعظم بين مدن الأسواق العربية ، وما كان من شأن قريش وتحالف التجاريين أن تبلغ درجة السيادة المرموقة بين العرب ، من غير اقدام جرىء على الأخذ بزمام التعامل التجارى وبزمام القيادة الدينية فى وقت واحد ٠ ومن الضرورى أن نتصور كيف فجرت هذه المكانة والتفوق الاقتصادى المرموق روح المنافسة وأشعلت نار الحقد ضدها ٠ ولقد وصل الأمر وهو خطير ، الى حد اقدام العدوان الحاقد

---

(٢٨) كفل البيت العتيق فى مكة قبل الاسلام دائما ، قوة الجذب الدينى التى شدت الانتباه ووجهت الحركة الكثيفة اليها من كل أنحاء وربوع جزيرة العرب ٠ واستجاب الله دعاء ابراهيم عليه السلام ، حيث استقطبت أهم وأثرى أطراف الجمع الذى تألف منه تحالف التجاريين الذى سيطر على حركة الاقتصاد العربى ، وهدت اليها وفود الحج والتعامل التجارى فى وقت واحد ٠

(٢٩) كان عدوان أبرهة الحبشى الحاقد صاحب الفيل هو النمط أو النموذج الذى فجرته المنافسة وحفزته روح الحقد الاقتصادى ٠ وحرص أبرهة على بناء القليس فى صنعاء وهى واحدة من مدن الأسواق ، فى مقابل اعتزام أكيد على هدم الكعبة ، هو للعلامة التى لا تضل ولا تضلل فى شأن استشعار جدوى احتواء الاعتقاد الدينى وجدوى توظيفه توظيفا مكشوفا أو غير مكشوف فى تنشيط حركة التعامل فى السوق، أو فى احلال البلدة والسوق فيها فى المكانة الأفضل ، وجنى ثمرات هذه المكانة اقتصاديا ٠ راجع نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول – دمشق سنة ١٩٧٥ ط ٣ صفحة ٢٥٧ ٠

اليها وهو الذى اعتزم هدم الكعبة · ومارده عنهـا مدحورا غير ارادة اللـــه وحـــده(٣٠) ·

وهكذا ، ينبغى أن ندرك – بكل اليقين – كيف جنى تحالف التجازين فى مدن الأسواق وعلى المدى الطويل قبل الاسلام ، ثمرات التخصص فى العمل التجارى النشيط فى الأسواق ، وفى الوساطة التجارية بين عالـــم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط · كما ينبغى أن ندرك أيضا كيف امسكت هذه النخبة من تحالف التجاريين فى كل مراحل التطور الاقتصادى العربى قبل الاسلام بزمام المصالحة وسريان مفعولها بين البداوة والاستقرار · وعندئذ عرف هذا التحالف السبيل الى هيمنة اقتصادية سيطرت على حركة الحياة والمصالح الاقتصادية فى ربوع جزيرة العرب ·

وفى الوقت الذى وظف تحالف التجاريين فيه التعامل فى الأســـواق والمرور على الطرق من والى الأسواق توظيفا هيمن على حركة الحياة العربية ، وهدأ من روع الصراعات بين البداوة والاستقرار وأبقى على خيط رفيع بين أوصال الحضور العربى المتفسخ ، وظف الاعتقاد الدينى فى مدن الأسواق توظيفا لحساب الهيمنة على الوجهه الضالة التى تحركت اليها مسيرة الأغلبية من الحضور العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام ·

وفرضت هذه الهيمنة الاقتصادية والهيمنة الدينية النخبة الثريـــة

---

(٣٠) صور القرآن الكريم فى ايجاز رائع معنى ومغزى هذه المنافسة والحقد الاقتصادى فى اطار منة من منن الاعجاز الالهى الذى رد ودحر وأحبط أهداف العدوان على البيت العتيق · واقرأ قوله تعالى : –

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » ·

ولقد صـــور القصص الدينى فى نفس الوقت مدى اعتمـــاد قريش على قدرة الله فى رد هذا العدوان وسحقه · وعبر عن ذلك المعنى حرص عبد المطلب وهو واحد من تحالف التجاريين على رد ابله اليه أما البيت فقد أعلن صراحة أنه له رب يحميه ·

راجع فى تاريخ مكة : أ – محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم – الرياض سنة ١٩٧٧ من صفحة ٣٩١ – ٤٢٧ ·

ب – نبيـــه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرســـول – دمشق ط ٣ من صفحة ٢٢٥ – ٢٣٤ ·

جـ – عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام – الاسكندرية سنة ١٩٧٣ من صفحة ٢٠٨ – ٢٣٣ ·

المرموقة من تحالف التجاريين ، فى قمة المكانة العلية التى زادتهم ضلالا وتضليلا • بل قل انها أعطت مدن الأسواق زمام حركة الحياة على كـــل الأصعدة • وهل يستعصى توجيه حركة الحياة على من أمسك بزمام الاقتصاد وهيمن على مقوماته ؟

التقويم الوظيفى لمدن الأسواق :

صحيح أن الأسواق قد انتشرت على أوسع مدى فى أنحاء جزيرة العرب • وصحيح أن هذه الأسواق فى مواقعها الجغرافية المنتخبة قد جمعت وصالحت وألفت وافشت روح المسالمة لبعض الوقت بين البداوة والاستقرار • ولكن الصحيح أيضا انها قد أسفرت عن نشأة وقيام بعض المدن التى ذاع صيتها وعظم قدرها وتعاظم دورها الوظيفى فى خدمة الاقتصاد وحركة الاقتصاد فى جزيرة العرب وفى اقطار كثيرة حول جزيرة العرب •

ويمكن أن نذكر أيضا كيف ظلت بعض الأسواق فى مكانها الجغرافى ولم تستقطب العمران من حولها • بمعنى انها حافظت على وجودها وعــلى آدائها الوظيفى من غير أن تصبح نوايات لمدن أسواق • كما نذكر أيضا كيف اضمحلت بعض الأسواق أو بعض مدن الأسواق وفرضت عليها بعــض المتغيرات أن تفقد مكانتها وأن تندثر فى مكانها •

وما من شك فى أن عوامل كثيرة ومتغيرات متنوعة ، يمكن أن تبرر ذلك التباين أو أن تفسر التفاوت فى المكانة أو أن تعلل الازدهار والاندثار • بل انها تجيب على الكيفية التى تأتى بموجبها هذا التغير فى أوضاع وأحوال مدن الأسواق ودورها الوظيفى • ويبدو أن حيوية السوق مرجعها الى العوامل التى كفلت تنشيط التعامل فيه • وما من شك فى أن هذه العوامل كانــت دائما قابلة للتغير بحيث تتزايد جدواها أحيانا وتتضاءل جدواها أحيــانا أخــرى •

ومنذ الألف الرابعة قبل الميلاد أو يزيد ، يمكن أن نسجل حاجة الحضور العربى الذى انشطر الى بدو ومستقرين الى الأسواق • ولقـــد جاوبت هذه الحاجة اتجاه الاجتهاد الاقتصادى الرعوى واتجاه الاجتهاد الاقتصادى الزراعى الى انتاج غذائى متنوع ، حيوانى وزراعى • وكفلت الأسواق التعامل فى هذا الانتاج المتنوع كل فيما يخصه لكى يحصل على ما احتاج اليه •

وقد نتلمس جدوى التسويق والأسواق وجدوى حضور التجار الحصيف

الذى ضبط ونظم واستثمر المصالحة وحقوق الانتفاع والتعامل فيه بين البدو والحضر • بل قل أن هذه الأسواق التى تحول بعضها الى مدن أسواق فى وقت لاحق ، قد حفلت بأطراف نموذج من نماذج الذكاء الاجتماعى والحصافة الحضارية والاجتهاد الاقتصادى • ومن خلال هذه التوليفة البارعة حقـــق السوق شكلا من أشكال المسالمة التى خفضت معدلات التضاد الحضارى بين البداوة والاستقرار ، ونمت وطورت معدلات التعامل الاقتصادى بينهما •

واذا كان التحول من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء قد أمن حياة أهل البادية وحياة أهل الحضر ، فان الأسواق قد كفلت من خلال التعامل وانفتاح قنوات الاتصال شكلا من أشكال التكامل الاقتصادى • بل قل انها وضعت أساس اجتمع بموجبه الاجتهاد الاقتصادى الرعوى والاجتهاد الاقتصادى الزراعى فى بناء وترسيخ قاعدة الاقتصاد العربى قبل الاسلام • كما دربت هذه الأسواق التجار الذين اصطنعوا فيما بينهم تحالفا فى وقت لاحق أمسك بزمام الاقتصاد العربى ونظامه الاقتصادى •

وفى مرحلة تالية ، بدأت مع الاقتحام البحرى الذى انجزه الابحـــار العربى المغامر فى المحيط الهندى ، تباشير واحد من أخطر المتغيرات التى أثرت فى الاقتصاد العربى قبل الاسلام • بل نحن لا نشك فى أن هذا المتغير قد لعب دورا بارزا فى تنشيط الأسواق وفى شد أزر فريق التجـــار ، وفى التمكين لنشأة تحالف التجاريين •

وصحيح أن هذا الابحار العربى قد سبق فى المغامرة والاقتحام وتكتم وسيطر على حركة التعامل فى المحيط الهندى(٣١) • وصحيح أن هذا التكتم قد اخفى ضمن ما أخفى التاريخ الحقيقى لهذا الابحار العربى المغامر • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن أهم ما أسفر عنه قد تمثل فى انتظام تجارة العبور

---

(٣١) كان كل الشركاء فى الابحار التجارى فى البحر الأحمر وهم من المصريين والرومان واليونان وغيرهم لا يبرحون حيز هذا المسطح المائى • وكم تجمعت سفنهم فى ميناء المخا أياما فى انتظار الابحار العربى العائد من رحلته فى عالم المحيط الهندى من أجل التعامل معهم •

راجع : أ ـ صلاح الدين الشامى : الموانى السودانية دراسة فى الجغرافية التاريخية الألف كتاب •

ب ـ Schoff, W. : The Periplus of the Eythrean Sea, London 1912

جـ ـ Huzayyin, S.A. : Arabia and Far East. Cairo. 1942.

ومرور القوافل من الجنوب الى الشمال · وما كان فى وسع التكتم أن يخفى هذا المرور ، أو أن يحول دون بيان جدواه · وما من شك فى أن هذا المرور التجارى قد اختار الدرب الأنسب والتزم بالمرور على مواقع بعض الأسواق · وهذه الأسواق هى بعينها أهم الأسواق التى تحولت عندئذ الى مدن للأسواق وذاع صيتها واحتوت تحالف التجاريين(٣٢) ·

وسواء جاء هذا التحول والنمو بناء على اسكان أو استيطان الزمرة التى كلفت بتأمين تجارة المرور(٣٣) ، أو جاء بناء على فيض الأرباح التى حققتها تجارة المرور واستقطبت الاستيطان الذى وظف اجتهاده واستثماراته فى خدمة هذا المرور ، فان نمو مدن الأسواق قد حدث فى صورة تدريجية · وما من شك فى أن هذا التحول التدريجى قد أعلى شأنها وشأن الاستيطان أو التوطين فيهـا ·

واحتوت جزيرة العرب منذ ذلك الحين ، مدن الأسواق فى مواقعـــها الجغرافية المنتخبة المثلى ولها دور وظيفى مرموق · كما احتوت أيضا الأسواق فى مواقعها المنتخبة التى تفرغت للعمل التجارى من غير أن تستقطب عمرانا وسكنا من حولها · وفى اطار رؤيتنا الجغرافية يمكن أن ندرك كيف ميز وفرق عامل الموقع الجغرافى أكثر من أى شىء آخر بين نوع الأسواق التى تحولت الى مدن أسواق ، ونوع الأسواق التى لم يتغير وضعها ·

وكان أهم ما تفردت به مدن الأسواق ، هو مرور قوافل التجارة بها

---

(٣٢) جذور الاستيطان وهو اختيار بحت ، أو جذور التوطين وهو التزام محتم ، قد سجل البداية فى العمران والسكن والاستقرار فى مدن الأسواق · وهناك أكثر من اتفاق تاريخى على انتماء معظم هذا الاستيطان أو التوطين الى الاستقرار الذى احتواه الجنوب العربى · وجرهم مثلا نموذج لهذه الجذور فى مكة · ونحن لا نستبعد منطق التوطين الذى حتم وألزم بعض القبائل والعشائر على الحضور فى مدن الأسواق وكأنها حاميات من شأنها أن تؤمن تجارة المرور · كما لا نستبعد منطق الاستيطان الذى تمثل فى اختيار بحث استقطب اهتمام بعض الباحثين عن مكان أنسب للسكن · وقصة العرب عن وجود جرهم فيها اشارة الى الاختبار والاستئذان من هاجر لكى تسمح لهم بالاقامة والسكن فى بطحاء مكة · راجع نبيه عاقل : المرجع السابق صفحة ٢٢٧ ·

(٣٣) سيطرت سبأ على طريق التجارة البرى فى اتجاه الشمال وكانت حكومة سبأ تبعث من طرفها حكاما وحاميات عسكرية لكى تضمن السيطرة وتؤمن الطريق وكانت واحة العلا المركز الرئيسى الذى ضبط ونظم وفرض نفوذ سبأ على شمال بلاد العرب · السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق صفحة ٤٥ ·

على الطرق والدروب والمسالك ، لحساب المدنيات القديمة فيما وراء جزيـــرة العرب • بمعنى أن هذه المدن قد أمسكت بزمام تجارة المرور • وجنى التجار فيها ثمرات هذا النمط من العمل التجارى الذى وظف العرب فى دور الوسيط التجارى ووسع دائرة الحركة الاقتصادية • ولا يعنى ذلك كله شيئا أهم من اشتراك أو اسهام هذه الوساطة اسهاما فعالا فى وضع قواعد وأسس انضبطت بموجبها حركة التجارة الدولية بين عالم المحيط الهندى وعالم البحـــر المتوسط •

وفى هذه المدن ، مدن الأسواق ، تعلم الحضور العربى الوافد اليها من كل حدب وصوب ، سواء جاء من البوادى أو جاء من مواطن الزراعة ، أهم مزايا وقيم وثمرات الانفتاح التجارى • كما تعلم هذا الحضور أيضا ابعادا جديدة للتفتح الحضارى مغزاه ومرماه وما بنى عليه من استعداد حقيقى للاخذ والعطاء • بل لقد امتد مدى الرؤية العربية امتدادا متفتحا وبصيرا ، حتى أطلت هذه الرؤية على ربوع اقطار وامصار فى عالم فسيح من حول جزيرة العرب ، جرى التعامل التجارى معه ، وصار الاحتكاك الحضارى به •

ولقد افلح التجار فى مدن الأسواق ، وهم المتفرغون لهذا العمل التجارى النشيط الواسع ، فى توظيف هذا الانفتاح توظيفا ممتازا وحصيفا ، لحساب الحياة العربية الاقتصادية والاجتماعية والحضارية • بل قل انهم استثمروا هذا التفتح استثمارا ناجحا فى دعم التوازن الاقتصادى على صعيد جزيرة العرب بين مصالح البداوة ومصالح الاستقرار • وهل كان من الممكن أن تمضى حركة الحياة وقد أمسكت بزمامها النخبة من رجال التجارة فى بعض مدن الأسواق (تحالف التجارين)(٣٤) لحساب حضـــور عربى انشطر بنائـه اقتصاديا وحضاريا من غير هذا التوازن والتوازى الاقتصادى على صعيد جزيرة العرب ؟ •

وهكذا رسخت مدن الأسواق مزايا وجدوى الانفتاح على العالم الخارجى وحسنات اسقاط حواجز العزلة • بل لقد بشرت مدن الأسواق بهذا الاتجاه الحميد واشاعت التفتح من حولها • ووظفت هذه المدن الجدوى الاقتصادية

---

(٣٤) لقنت حركة الاقتصاد فى مدن الأسواق الدروس والخبرة والمهارة • كما علمتهم أيضا قيمة العمل المشترك فى حقل التجارة • وكأنها هى الوعاء الذى أسفر مع مضى الوقت عن نشأة تحالف التجاريين •

لمنطق الانفتاح والتفتح فى تحسين واعلاء مكانتها ومكانة التجار حتى وصلت أوضاعهم الى القمة المرموقة • وهذه الفئة هى التى أصبحت وكأنها تحالف التجاريين العرب •

وامتدت الأيدى القوية فى هذه المدن أو فى بعضها على الأقل امتدادا حصيفا ، طور المصالحة ورسخ المسالمـــة التى أصلحت ذات البين وأمنت العلاقات والمصالح المتبادلة بين البداوة والاستقرار • بل قل انها هى التى ابقت أحيانا أو اصطنعت أحيانا أخرى بعض الخيوط الرفيعة التى ربطت أوصال الحضور العربى على صعيد جزيرة العرب • بمعنى انها قد أوقفت فاعلية الانشطار الحضارى فلم يتمادى التضاد الحضارى وهو خطير الى درجة أو حد التفسخ • وهل هناك أجدى من حسن توظيف نتائج الانفتاح والتفتح توظيفا ماهرا وحصيفا فى ابطال مفعول كل العوامل والمضاعفات التى وجهت الحضور العربى على غير ارادته الى هاوية التفسخ ؟

ولكى تدرك حقيقة هذا التصدى الناجح لموجبات الانشطار الحضارى والتمزق الاجتماعى وكيف حال دون التفسخ فى البناء العربى ابحث وتمعن فى جدوى الرصيد العظيم الذى سجل فى شأن مكة أم القرى • وفى أسواق مكة وهى أعظم مدن الأسواق على الصعيد العربى على المدى الطويل قبـــل الاسلام ، ندرك جدوى أثر مباشر قد ضمه هذا الرصيد • وفى أسواق مكة ، وفق التعامل التجارى وهو مدعوم بالانفتاح والتفتح والاعتقاد الدينى بين تشبث القبائل العربية بلهجاتها العربية الخاصة التى اكدت بها ذاتها الخاصة من جانب ، والقبول باستخدام لهجة قريش العربية التى يسرت التعامل التجارى وآداء مناسك الحج بين جموع الوافدين الى مكة من جانب آخر[٣٥]•

---

(٣٥) استخدام اللغة العربية حسب اللهجة التى نطقت بها وتخاطبت قريش فيما بينها فى ربوع مكة قبل الاسلام ، قد أتاح وهيأ لها أن تصبح فيما بعد الاسلام لغة القرآن الكريم • ومن ثم أصبح القرآن الكريم مفهوما من غير عناء على صعيد الحضور العربى كله فى ربوع جزيرة العرب • وفى اعتقادى أن هذا انجاز من أهم الانجازات الثقافية التى أبقت على علاقات هى العلامة التى تؤكد عدم وصول الحضور العربى الى حالة التفسخ القومى قبل الاسلام •

أ ـ النعيمى ، حسام سعيد ، القرآن واللهجات العربية (رحلة فى الفكر والتراث) جامعة بغداد سنة ١٩٨٠ صفحة ٢٤٠ •

ب ـ جواد على : المرجع السابق حـ ٨ من صفحة ٦٠٣ الى صفحة ٦٢٨ •

جـ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ آداب العرب ـ القاهرة سنة ١٩١١ من صفحة ١١ الى صفحة ٨٥ •

وبعد ، هل نشك أو هل نتشكك فى قيمة أو فى جدوى مدن الأسواق على صعيد جزيرة العرب ؟ وهل نشك فى جدوى العلاقة بين حركة الاقتصاد والتعامل التجارى فى الأسواق وظهور ونمو مدن الأسواق نموا تصدت بموجبه لأهداف خطيرة لحساب الوجود العربى ؟ وحتى لو تشككنا فى تصور من هذا القبيل ، فهل نفتقد القدرة على ادراك دور مدن الأسواق الوظيفى وانها هى التى :

١ — انتشلت الحضور السكانى العربى الذى انشطر الى بداوة واستقرار وتفرق شمله على أوسع مدى ، من سوءات العداوة والبغضاء[٣٦] • بل قل انها بشرت وتبنت أهم انجاز مضاد وظفته لابطال مفعول التضاد الحضارى والتمادى فى التشرذم الاجتماعى أو فى التفسخ القومى •

٢ — اتخذت شكل الاستيطان أو التوطين المستقر الذى جسد معنى ومغزى العمران التجارى وجدواه الاقتصادية بل قل انها بشرت وتبنت أهم انجاز فعال وظفته لحساب الأمن وتأمين حركة الحياة ومرونة التحرك بين كل الأطراف المعنية بها فى الاطار العربى الجامع •

٣ — احتوت — بعضها على الأقل — مواقع العبادة ، التى لبت حاجة الحس الدينى الفطرى فى شأن الاعتناق والتدين • بل قل أن هذا الاحتواء بشر وتبنى أهم انجازات فعالة وظفتها بذكاء اجتماعى وحضارى لجمع شمل التعاطف العربى الدينى[٣٧] •

وعندما لا نشك أو نتشكك فى دور مدن الأسواق الوظيفى ، وندرك بالفعل جدواه الاقتصادية والحضارية والاجتماعية ينبغى أن نتبين كيف رسخت هذه الجدوى قيمة الاحتكاك الحضارى واتساع دائرة الرؤية والتعامل من حول جزيرة العرب • بل قل ان هذا الاتساع والاحتكاك الحضارى والتعامل التجارى بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر أحيانا أخرى ، كان بكل اليقين الوسيلة المثلى لاختراق موجبات الانطواء أو لاسقاط حواجز العزلة[٣٨] •

---

(٣٦) جواد على : المرجع السابق حـ ١ ط ٢ — بيروت سنة ١٩٧٦ من صفحة ٢١٩ الى صفحة ٢٢٠ •

(٣٧) حتى ولو سار هذا التعاطف فى طريق الشرك والكفر والضلال فانه قد شد أوصال الرؤية التى أسفر عنها الحس الدينى الفطرى •

(٣٨) بلغ اتساع دائرة هذه الرؤية امتدادا شماليا ضم فارس وأرض الرافدين والشام ومصر ، وامتدادا جنوبيا ضم الحبشة وشرق أفريقية والهند •

ومحصلة هذه الجدوى التى نعنيها فى هذا الاتساع الفضفاض ، هى التى ابتدعت قنوات الاتصال بين اجزاء الحضور العربى المنتشر على أوسع مدى فى ربوع جزيرة العرب ، وأبقت هذه القنوات على المدى الطويل ، أو اصطنعت شكلا حصيفا من أشكال العلاقات بين أوصال ولبنات هذا البناء البشرى التى كانت كل العوامل والمتغيرات الحضارية والاجتماعية قد دعت الى تفكك أوصاله. وهل ننكر أن هذا الشكل الحصيف من العلاقات هو الذى أسفر عن ترسيخ المصالحة ووضع جسور المصالح المتبادلة بين البداوة والاستقرار ؟ وهل ننكر أيضا أن هذه المصالح المتبادلة وتوسيع اطارها ، هو الذى جهز وهيأ وأبقى على أهم جذور الاحساس بالانتماء القومى عند العرب فى محيط انتشارهم وانشطارهم وتشرذمهم على صعيد جزيرة العرب ؟

وصحيح أن الأسواق ومدن الأسواق فى مواقعها الجغرافية المنتخبة ، قد لبت حاجة الحضور العربى كله للأمن والاطمئنان ، واصطنعت الجدوى الاجتماعية والحضارية من غير أدنى تعارض حقيقى مع الجدوى الاقتصادية . وصحيح أن مدن الاسواق وبعضها على الأقل ، جمع شمل النمط الفريد من الاستيطان والسكن الذى سخر وجوده وتصدى لتنمية الرصيد الحضارى العربى . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو أن التعامل فى الأسواق وفى مدن الأسواق ، قد فجر روح ومنطق وارادة المنافسة الاقتصادية والعمرانية والدينية .

وما من شك فى أن مدن الأسواق وحدها وحركة التعامل النشيط فى ربوعها هى التى اختصت أكثر من غيرها فى شأن ارساء وصياغة بعض أهم القواعد والتقاليد والاعراف الاقتصادية على المدى الطويل(٣٩) . ولقد تداخلت هذه القواعد والتقاليد والاعراف بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر فى صياغة أو فى توليف بنية التركيب الهيكلى للاقتصاد العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام .

هذا ، ولقد تلمست الزمرة التى انشأت أو التى بدأت العمل فى

(٣٩) يمتد هذا المدى الطويل الذى نعنيه فى الفترة الزمنية التى بدأت من الوقت الذى حدث فيه الانشطار الحضارى بين البداوة والاستقرار بموجب التحول من جمع الى انتاج الغذاء ، الى الوقت الذى نشأ فيه السوق وبدأت الحاجة الى آداء دوره الوظيفى فى ظل المصالحة لحساب الأطراف المعنية .

السوق ــ أى سوق ــ اختيار مكان السوق فى الموقع الجغرافى الأنسب . وما من شك فى أنها قد استلهمت حسبها الفطرى من أجل هذا الاختيار ، بعد أن وضعت فى الاعتبار كل العوامل والمتغيرات التى أثرت فى حركة الاقتصاد وموجبات التعامل فى السوق . بل قل أن هذه الزمرة التى أسست السوق ورسخت وجوده ، قد اهتمت الاهتمام كله ، بمدى مرونة الحـركة منـه واليه(٤٠) ، ومبلغ الأمن على الطرق ومدى ذيوع وانتشار صيته وجذب الوفود اليه ، من انحاء جزيرة العرب . وما من شك فى أن استشعار قيمة المكان واستشعار أهم مواصفاته الجغرافية الطبيعية ، كانت من أهم العوامـل التى رشدت وبصرت ورجحت اختيار المكان فى الموقع الجغرافى الأنسب .

وهذا معناه أن الموضع الجغرافى الذى أمنه مورد الماء الباطنى الأنسب، وخدمته امتدادات المسالك والدروب ، كان هو المكان الأنسب لتأسيس السوق وتوظيفه . كما كانت العهود والمواثيق المكتوبة أحيانا ، وغير المكتوبة فى معظم الأحيان وهى التى أمنت التحرك المرن على الدروب من والى المكان ، وطمأنت الاستثمار والتعامل وحركة التجارة فى ربوع السوق من بين أهم العوامل التى وظفت السوق ورسخت وجوده فى المكان المنتخب الأنسب . ولكن يجب أن نثق بعد ذلك كله فى قيمة أو فى جدوى بعض العوامل والمتغيرات المتنوعة التى أدت الى دعم مكانة بعض الأسواق الى حد كفل التحول الحتمى الى مدن زخرت بالعمران والاستيطان ، وذاع صيتها على أوسع مدى .

وسواء تمثلت هذه العوامل والتغيرات التى كفلت هذا التحول ، فى عوامل محلية بحتة ، دينية أو اجتماعية أو اقتصادية ، أو فى عوامل غير محلية اصطنعتها العلاقات والانفتاح والتعامل مع العالم الخارجى فيما وراء جزيرة العرب ، فان هذا التحول قد جعل من مدن الأسواق بموجب آدائها الوظيفى مراكز ثقل اقتصادية . وهناك أكثر من مبرر أو عامل ، برر التفاوت فى قيم أو جدوى ومكانة مراكز الثقل الاقتصادية وتأثيرها على حركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام . ولكن لا شئ أهم من جملة العوامل التى اصطنعت مظلة الأمن، وأمنت هذه المكانة الاقتصادية ووزنها المؤثر فى المكان(٤١) .

---

(٤٠) فى بعض الأحوال ، كانت الطرق والدروب من بين أهم العوامل التى بصرت عمليات اختيار موقع ومكان السوق . وفى بعض الأحوال أسفر اختيار موقع السوق عن نشأة بعض الطرق والدروب التى اتجهت الى السوق .

(٤١) أى حصافة تلك التى اختارت موقع السوق فى المكان الجغرافى الذى أقيم فيه البيت العتيق . وما من شك فى أن هذا المكان قد زكاه مورد الماء الذى كفل الحياة وأمنته دعوة ابراهيم

وعندما أصبح السوق فى المكان المنتخب الأنسب مدينة من مدن الأسواق العربية ، وعندما أصبحت مدينة من هذه المدن مركزا من مراكز الثقل الاقتصادية ، لم يستخدم وجودها لحساب التعامل التجارى فقط ، بل زج بالمدينة التى احتوت السوق وتنعمت بمكانته فى حلبة المنافسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع مدن الأسواق الأخرى • وتحولت بعض مدن الأسواق الى ساحات التقاء حاشد حفل بالحضور الوافد اليه ، وجاوب نشاطه اقتصاديا وحضاريا وثقافيا ، وانغماسه فى جو المنافسات •

وكم كان هذا الالتقاء الحاشد متعدد الأغراض والأهداف ، ومتنوع الخبرات والمهارات ، فحقق اغراضه وهو آمن ، أو مارس خبراته وهو مطمئن• وربما احتزت مدينة السوق فى مواسم معينة أعظم التجمعات التى أخذت بزمام المسالمة • وانصرفت هذه التجمعات الكبيرة الى تبادل المنافع المادية والمنافع الروحية والمنافع الحضارية بين أطراف هذا الحشد الوافد من البداوة وأهل الرعى ، والحشد الوافد من الاستقرار وأهل الزراعة •

ولقد أسفر هذا اللقاء الحاشد الوافد الى الأسواق فى مدن الأسواق من كل حدب وصوب عن منافع كثيرة ومتنوعة • وهى منافع ومصالح وثمرات لبت الحاجات المتنوعة ، ليس فى المكان والزمان فقط ، بل عاشت وترسخت مردوداتها فى الضمير الحضارى(٤٢) ، الى زمن ظهور الاسلام • وهل لا نذكر — على سبيل المثال — الوفود التى قدمت فى كل موسم حج قبل الاسلام ؟ وهل لا يجسد هذا الحضور الوافد الى مكة فى كل موسم حج معنى ومغزى التطلع الى هذه المنافع المتنوعة ؟

هذا ، ولقد تمثلت هذه المنافع — رغم استشعار المنتفعين بها انها ذاتية — وكلها ايجابيات فعالة على المدى الطويل فيمايلى(٤٣) :

التى أجابها الله • وفى اعتقادى أن حسن الاختيار قد جسد جدوى الاستشعار الذكى لقيمة الاعتقاد الدينى فى جذب الوفود الى السوق ، وفى دعم حركة التعامل فيه •

(٤٢) أبقى الاسلام على ، بل طور وحفز بعض مردودات هذه المنافع التى ترسخت فى الضمير الحضارى العربى ، وحارب الاسلام وحرم بعضها الآخر الذى لوثه الفجور والشرك والضلال •

(٤٣) جواد على : المرجع السابق جـ ١ ط ٢ — بيروت سنة ١٩٧٦ صفحة ٢٢٠ •

١ — الحد الأقصى من التعارف بين أطراف الحضور العربى المعنية ، ومن المصاهرات بين القبائل من البداوة والاستقرار • وجنى البناء البشرى بالقطع ثمرات القرابة والنسب • وفضلا على ما أدت اليه هذه الثمرات من فى جزيرة العرب ، وفى احياء أو فى الابقاء على روح ومنطق الانتماء القومى العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام •

٢ — الحد الأفضل من الاحتكاك الحضارى البناء المباشر بين أطراف الحضور العربى من أهل البداوة ومن أهل الاستقرار على ساحة السوق • وجنى البناء الحضارى العربى المشترك ثمرات الانفتاح الحقيقى والتعامل الفعال مع العالم الخارجى • وفضلا على ما أدت اليه هذه الثمرات من تنمية وتنور التحضر والمدنية العربية ، افلحت فى ترسيخ واشاعة روح ومنطق واتجاهات التفتح القومى •

٣ — الحد الأمثل من التعاون بين أطراف الحضور العربى المعنية بحل ومعالجة أعقد المشكلات والخلافات والصراعات المستعصية لحساب أكبر قسط من المسالمة بين البداوة والاستقرار • وجنى البناء الاجتماعى العربى ثمرات حقن الدماء واحباط العداوة والبطش • وفضلا على ما أدت اليه هذه الثمرات من تأمين المصلحة العربية المشتركة ، افلحت فى صيانة وترميم جراح وصدوع انهكت البناء العربى ، وفى تنشيط ويقظة واشاعة روح السلام القومى العربى •

٤ — الحد الأجدى من التعامل التجارى بين أطراف الحضور العربى المعنية على صعيد السوق من أهل البادية ومن أهل الاستقرار • وجنى البناء الاقتصادى العربى ثمرات التكامل وتبادل المنافع • وفضلا على ما أدت اليه هذه الثمرات من انضباط التكامل الاقتصادى العربى ، افلحت فى تجسيد معنى ومغزى المصير الاقتصادى العربى المشترك ، وفى ترشيد وحسن توظيف الاقتصادى فى دعم وترسيخ روح الترابط فى المصير القومى العربى قبل الاسلام[٤٤] •

---

(٤٤) الابقاء على هذا الاتجاه أو محاولة انعاشه قبل الاسلام ، هو الذى انتشل الحضور العربى قبل الاسلام من كثير من سوءات التمزق الاجتماعى والتشرذم الحضارى • ولقد سهل ذلك أيضا مهمة الاسلام فى لم الشمل العربى وتوظيف الجموع المؤمنة توظيفا فعالا فى الجهاد دفاعا عن دين الله ، أو فى الجهاد نشرا للدعوة الى الله •

ولقد شهدت بعض مدن الأسواق وفى مقدمتها مكة على وجه التخصيص، مبلغ تألق الحضور العربى وأطرافه المتعددة المعنية التى وفدت اليها فى كل موسم حج ، وتجمع على صعيد سوقها الرحب من أجل كل هذه المنافع قبل الاسلام • بل اذكر كيف انكب هذا الحضور العربى — بصرف النظر عما كان من فسق وشرك ووثنية وضلال — على ترسيخ التقاليد الاجتماعية والقيــم الروحية والممارسات الحضارية(٤٥) • أضف الى ذلك التصدى الذكى الى صياغة أحكام وضوابط العمل التجـــارى وحركة الاقتصاد فى جـــزيرة العـــرب •

وفى ساحات الأسواق وعلى صعيدها الرحب ، انعقدت مهرجانات الأدب وتألقت مساجلات الشعر ، وتجسدت عروض الفن والبذخ الحضارى والترف والمتعة • وقل لقد اصطنع ذلك كله صفحات وصفحات من التراث العربى قبل الاسلام • ولقد اعتز الحضور العربى الحاضر فى السوق والغائب عنــه بهذا التراث العريق وتغنى به فخرا وزهوا • وأضاف البيت العتيق فى مكة سيدة مدن الأسواق اضافة الفخر والمجد والفخار كله(٤٦) • بل لقد صعدت مكانة مكة صعودا كبيرا بموجب هـــذه الاضافة • وتربعت بـــل قل وتألقت فى المكانة الأعظم فى عالم جزيرة العرب قبل الاسلام(٤٧) •

وبعد ، تمعن جيدا فى ادراك وفهم واستيعاب الكيفية التى استجـــاب بموجبها الحضور العربى على صعيد جزيرة العرب التى فرضتها التحديات الطبيعية المناخية وانتصارها لظاهرة الجفاف والتمادى فى التصحر • وعندئذ

---

(٤٥) جواد على : المرجع السابق الفصل ١٠١ حـ ٧ ط ١ سنة ١٩٧١ من صفحة ٢٨٥ — صفحة ٣٠٧ •

(٤٦) فى كتابة الدكتور مهران عن مكة ، عرض جيد عن تاريخ هذه المدينة قبل الاسلام • بل هناك اجتهاد واضح فى شأن نشأة هذه المدينة • ولقد اتجه الى تصوير دقيق عن كل مرحلة من المراحل • ولا أشك فى أنه قد جسد معنى تفرغ سادة مكة من التجار الى وضع وترسيخ تقاليد وأعراف لعبت دورا بارزا فى حركة التجارة وبناء الاقتصاد العربى قبل الاسلام •

محمد بيومى مهران : المرجع السابق الفصل ١٢ من صفحة ٣٩١ — صفحة ٤١٦ •

(٣٧) أجمع المؤرخون على أن هذا التألق قد تأتى فى عصر قصى بن كلاب وهو العصر الذى بدأت فيه سيادة قريش على مكة التى رسخها قصى بن كلاب اعتبارا من حوالى القرن الخامس الميلادى• وهو صاحب فكرة دار الندوة وهى بمثابة ديوان الوجهاء ومجمع تحالف التجاريين أو هى بمثابة الغرفة التجارية • ولقد تصور بعض المؤرخين غير العرب مكة آنذاك وقد اتخذت وضعا سياسيا وكأنها جمهورية •

• راجع محمد بيومى مهران : المرجع السابق من صفحة ٤٠٠ الى صفحة ٤٦٠ •

قدر لماذا وكيف ومتى انشطر الكيان العربى الاجتماعى الى بدو وحضر . وقدر أيضا باكبر قدر من الحصافة والتنور لماذا وكيف ومتى انشطر الكيان العربي الاقتصادى وهو بصدد انتاج الغذاء الى قطاع يجنى الانتاج من الحيوان، وقطاع آخر يجنى الانتاج من الزراعة . ولاشيء أهم بعد ذلك كله من أن تقدر لماذا وكيف ومتى أنشطر الكيان العربى الحضارى وتمادى التناقض الى حد التضاد الحضارى الحتمي بين البداوة والاستقرار .

وفى هذا المناخ البشرى الذى فرض هذه الأوضاع غير السوية ، طلب الحضور العربى المتضرر الأمن والمنافع وتخفيض معدلات الآثار التى انتهكت بناء ومصير وتوليفه الحضور العربى . وفى مقابل طلب الأمن والمنافع ومن أجل الدفاع عن المصير المشترك العربى ، ترك الحضور العربى من البدو والحضر للاسواق وللتجار فى مدن الأسواق حق صياغة كل الأبعاد التى ارتكز اليها جمع أوضال المصير العربى . كما ترك للتجار فى الأسواق وفى مدن الاسواق حق وضع أهم الأسس التى ارتكز اليها التكامل الاقتصادى انتاجيا واستهلاكيا بين ريف الرعى واقتناء الحيوان وريف الزراعة وزراعة المحاصيل . بل لقد قبل هذا الحضور وتنعم بثمرات الأمن على المصير فى ظل هذا التكامل ، وتعلم كيف يعرض ويسوق ثمراته فى الأسواق أحيانا فى مرحلة ، وفى مدن الأسواق فى مرحلة أخرى .

والاهم من ذلك كله ، هو ادراك معنى ومغزى وضع واقرار وترسيخ التقاليد والمفاهيم والاتجاهات العامة التى اشترك فى صياغتها الحضور العربى الذى نظم حركة التسويق ، وقبل بها وتعامل بموجبها الناس فى الأسواق أو فى مدن الأسواق . بل قل لقد افلح التجار وهم نخبة فى قيادة وتوجيه واصطناع هذه الصياغة وتحويلها الى قوة ضبط وضغط قوت قبضتهم . وتمادى اجتهاد هذه الفئة الى حد تداخل هذه الصياغة تداخلا عضويا فى صلب التركيب الهيكلى للبناء الاقتصادى ، وفى ضوابط النظام الاقتصادى الذى نشأ على المدى الطويل فى جزيرة العرب قبل الاسلام .

وتوظيف الأسواق فى مدن الاسواق ، أو فى مواقعها المنتخبة عند تقاطعات الطرق والدروب ، فى صنع هذه الصياغة وفى تعميم ذلك الانتفاع وفى دعم التعامل التجارى فى شكل حقق درجة من التكامل بين البداوة والاستقرار ، هو - بكل تأكيد - وجه حقيقى جيد من أوجه الانجاز الجماعى المفيد فى الاقتصاد العربى قبل الاسلام . ولقد واجه بهذا الانجاز المجتمع

العربى الضغوط الاقتصادية التى اصنعها التغير المناخى وجملة أخرى من المتغيرات المتباينة · وكم بشرت عندئذ بانتصار حقيقى على هذه الضغوط ·

والانتصار الاقتصادى الفعال الذى نعنيه هو القدر الأنسب لدعم حركة الحياة فى جزيرة العرب · وهو فى نفس الوقت الحافز الذى وجه ارادة الانتصار الى تحقيق غايات اقتصادية أفضل · وهذه الغايات هى التى وجهت الاجتهاد الاقتصادى العربى قبل الاسلام توجيها انتفع بالانفتاح على العالم الخارجى · بل قل أن هذا الاجتهاد قد رشد حسن استخدام المكان الجغرافى وموقع جزيرة العرب فى الربط والتوسط التجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ·

ومنذ حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد ، على أفضل تقدير ، يمكن أن نتبين ونتابع فاعلية وجدوى هذا التوجه الذى وظف الانفتاح فى الاتجاهات الصحيحة، طلبا لاستثمار موقع جزيرة العرب الجغرافى ، فى خدمة الغرض الاقتصادى، أو فى دعم البناء الاقتصادى العربى · وما من شك فى أن استجابة الحضور العربى فى جزيرة العرب للدافع الاقتصادى الذى حفز هذا التوجه وطوره ونما الانتفاع بمردوداته ، كانت استجابة ذكية ومجدية وفعالة ، على طول المدى ، اقتصاديا وحضاريا ·

ولكن المهم أن نعرف بالضبط الكيفية التى تأتت بها هذه الاستجابة ، منذ ذلك الوقت البعيد · بل المهم أن ندرك بالضرورة مدى الامعان والتمادى والاستمرار فى آداء كل ما من شأنه أن انجح هذه الاستجابة ، وأضاف مردوداتها الى الانتصار الاقتصادى العربى قبل الاسلام · وهل جسد هذه الاستجابة وجنى ثمراتها شىء أهم أو اجدى من الهجرة والخروج العربى النشيط من جزيرة العرب ؟

* * *

الفصل الثانى

الخروج العربى

مغزاه ومرماه واتجاهاته

الفصل الثانى

الخروج العربى

مغزاه ومرماه واتجاهاته

الخروج من جزيرة العرب ، كان دائما أمرا من الأمور التى قبلتوأقبلت عليها حركة الحياة • وكم شهدت الدنيا من حول جزيرة العرب بموجبات هذا الخروج انتشار وتسلل الموجات البشرية اليها • وهذا معناه اننا نود الاشارة الى أن الخروج العربى من جزيرة العرب هو استمرار لظاهرةالخروج بصفة عامة • وحتى لو تلمسنا بعض الاختلاف فى مابين الخروج القـــديم والخروج العربى ، فان هذا الاختلاف لا يحول دون الاعتقاد فى أصالة الاتجاه والموجبات التى استوجبت وحفزت ووظفت هذا الخروج •

وصحيح أن الخروج فى المراحل القديمة قد استثمر المكان وقيمة الموقع الجغرافى لكى يكون الفرار من قبضة الضغوط الاقتصادية ومواجهة التصحر والقحط عندما كان الاعتماد أصلا على جمع الغذاء • وصحيح أن الخروج بعد التحول الى انتاج الغذاء قد استخدمه الاجتهاد الاقتصادى العربى لجنى ثمرات المكان ولاستثمار جدوى الانفتاح على العالم الخارجى • ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن هذا الخروج من جزيرة العرب لعب دورا بارزا ومستمرا ومؤثرا على حركة الحياة بكل ابعادها الحضارية والاقتصادية والاجتماعية •

والخروج العربى ، نعنى به الخروج من جزيرة الغرب خروجا حثيثا ، فى ظلب حاجة ملحة لحساب الحياة • وقد نعنى به أيضا الهجرة ومغادرة الديار وتركها — بكل موجبات الاختيار — الى ديار جديدة ، وممارسة الحياة من جديد فى غير جزيرة العرب • وهو بعد ذلك كله شكل من أشكال الاغتراب الهادف سواء كان من أجل الحياة أو كان من أجل الحياة الأفضل أحيانا أخرى • ولقد كان هذا الاغتراب الهادف اغترابا دائما فى بعض الأحيان واستجابة لعوامل معينة • وكان اغترابا مؤقتا فى بعض الأحيان الأخرى • ولكنه فى الحالتين ، كان هذا الاغتراب هو اغتراب الجماعة وليس اغتراب الفــــرد •

ولم يدعو هذا الخروج أو الرحيل ومغادرة الديار سواء كان الاغتراب اغترابا دائما أو كان الاغتراب اغترابا مؤقتا ، الى شيء أهم وأجدى من الانفتاح العربى على صعيد الأرض ، فى ربوع بعض الامصار والأقطار حول جزيرة العرب . هذا بالاضافة الى ما أسفر عنه هذا الانفتاح من توسيع دائرة العلاقات السلمية وتعزيز الصلات ، أو من اقامة الجسور وفتح قنوات الاتصال المباشر مع العالم الخارجى .

والانفتاح العربى وتوسيع دائرة العلاقات وتوظيف قنوات الاتصال والتعامل مع العالم الخارجى الذى أخذ بزمام المدنية والتحضر ، ينفى عن هذا الخروج العربى صفة العدوان أو الاغتصاب أو الاقتحام نفيا قاطعا . بل قل - بكل اليقين - أنه الخروج الذى جنح دائما الى السلم والمسالمة . وهو الذى قاد واصطنع أبعاد التفتح العربى المسالم ، وجسد أهدافه . وتطلعاته البناءة ، وجنى ثمراته المفيدة ، وسجل انجازاته الموفقة اقتصاديا وحضاريا ، فى كل وقت وعلى كل جبهة من جبهات التعامل مع العالم الخارجى .

ولقد جسد هذا الخروج العربى النشيط من جزيرة العرب ، الذىوظف الاغتراب توظيفا هادفا ومثمرا - فى تقدير الباحثين - معنى ومغزى الاستجابة الفعلية التى جاوبت أو امتثلت لعوامل الطرد . ولكن لماذا كانت عوامل الطرد ؟ ومتى وكيف كانت قوة أو فاعلية الضغط أو الضغوط التى طردت أو طاردت ؟

وقبل أن نجد أو نتلمس الرد على هذه الاستفسارات أو التساؤلات ، ينبغى أن لا نصور الطرد من جزيرة العرب على أنه شكل من أشكال التشريد أو التشرد . بل هو نتيجة مباشرة لجولات صراع تكررت على صعيد جزيرة العرب . ولقد صارع الانسان فى كل جولة من هذه الجولات ضغوط المناخ وتحديات التصحر والقحط وافتقد القدرة على ابطال مفعولها وانتزاع النصر الذى يؤمن حياته . ومن ثم لجأ الى التراجع والفرار لكى ينتصر لمصيره . ولم يتركه بالقطع فريسة ينقض عليها هذا التحدى ويتلاعب بمصيره الاقتصادى .

وما من شك فى أن استمرار وتمادى وتصاعد ضغوط التغير المناخى فى المنطقة ، واشتداد وطأة الجفاف والتصحر وتدهور النمو النباتى الطبيعى ، وهو الذى قتر على الحضور العربى فى جزيرة العرب تقتيرا شديدا ، قد أعلن هذا التحدى ، ضد ارادة ومصالح الحياة . وهذا معناه أن هذا التحدى هو استمرار لذات التحدى ، الذى أدى الى انتشار الحضور العربى قبل أن تنشطر

بنيته الى بداوة واستقرار حال التحول من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء • وهل هناك أخطر من القحط والشح والتقتير الذى لا يعنى غير النقصان فى عطاء وانتاج موارد الأرض المتاحة ؟ واذا كان اجتهاد الانسان وحيلته أو وسيلته أعجز من أن تحبط هذا التحدى أو أضعف من أن تطوعه وتنتصر عليه ، فهل من من المعقول أن نفتقد معنى قوة الطرد أو هل من المعقول أن يكون الفرار فى مقابل قوة الطرد هزيمة ؟

وهكذا يجب أن ندرك أن هذا الفرار أو الهروب ، هو عين الانتصار على التحدى • بل ينبغى أن ندرك كيف تعاظمت فاعلية الجفاف(١) وآثار التصحر تعاظما ألهب دوافع ومبررات الخروج ومغادرة الديار من جزيرة العرب • وعوامل الطرد هى — فى اعتقادى — نتيجة مباشرة لقوة الدفع الاقتصادى التى بررت أو استوجبت الخروج العربى من جزيرة العرب فى طلب أى شكل من أشكال النجاة والافلات من براثن التحدى •

وما من شك فى أن نجاح هذا الخروج العربى فى طلب أو تحقيق الغاية ، قد قدمت له واسعفته عوامل الجذب والاستقطاب فى الامصار والاقطار التى وصل اليها أو التى استقبلته وتعاملت معه • بمعنى أن قضية الخروج العربى من جزيرة العرب قد نالت النجاح وبلوغ الغاية ، وهى القضية التى جاوبت عوامل الطرد وامتثلت لها ولبت نداء عوامل الجذب وانتفعت بها •

ولقد وظف هذا الخروج العربى وهو الاختيار الصعب والاختبار العويص ، توظيفا اقتصاديا مناسبا للتملص من براثن التقتير أو للافلات من قبضة القحط فى ربوع جزيرة العرب أكثر من أى شىء آخر • ومن ثم قل — بكل الثقة — أن عوامل الطرد قد جنت ودفعت هذا الخروج العربى دفعا الى الاختيار الصعب من غير تردد • وقل أيضا — بكل الثقة أن الخروج العربى قد اجتاز الاختبار العويص عندما انتفع واستثمر عوامل الجذب بكل الجدارة والاستحقاق فى ربوع المهجر •

والامتثال لضغط وقوة الدافع الاقتصادى وهى التى طردت واستوجبت

---

(١) راجع فى شأن هذا التغير المناخى محمد السيد غلاب ، ويسرى الجوهرى : الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره الفصل الخامس من صفحة ١١٥ الى صفحة ١٤٩ •

الخروج ، والتنعم بالواقع الاقتصادى الجديد وهو الذى جذب وحقق الغاية من الخروج ، يصور لنا ــ بالضرورة ــ مبلغ الحاجة الى هذا الخروج العربى النشيط فى طلب أسباب الحياة الأفضل ٠ والخروج فى طلب العيش وأسباب الحياة لا يمكن أن يعنى غير التوظيف الاقتصادى لهذا الخروج فى كل موطن من مواطن أفسحت مكانا أو تعاملت واحسنت استقبال هذا الاغتراب أو هذه الهجرة ٠

موجبات الطرد والخروج العربى :

لكى ندرك حقيقة عوامل الطرد ، ولكى نقوم قوة دفع هذا الطرد ، يجب أن نتبين أبعاد وفاعلية وجدوى الضغط الاقتصادى ، وكيف هدد حاجـــة الانسان العربى من انتاج الغذاء ٠٠ والضغط الاقتصادى هو قحط أسفرت عنه التغيرات المناخية ، التى بدأت اعتبارا من نهاية عصر البلايستوسين ٠ وصحيح أن هناك زيادة طفيفة فى المطر فى أثناء العصر الحجرى الحديث ٠ ولكن المؤكد أن الاتجاه العام الى الجفاف قد انهى هذه الزيادة وبدأ الجفـاف مرة أخرى ٠

ولقد اصطنع الجفاف التصحر فى ربوع جزيرة العرب(٢) ٠ ومن الطبيعى أن ندرك معنى ومغزى هذا التمادى فى الجفاف أو الامعان فى التصحر فى هذهالمرحلة التى سجلت التحول من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء ٠ ومن ثم يجب أن نستشعر بوضوح أو أن نقوم بصدق كيف :

١ ــ تحمل البناء الاقتصادى فى ربوع البوادى العربية نتائج الجفاف وضغوط التصحر ، التى أفقرت النمو والكساء الخضرى على صعيد المراعــى وانقصت مواد الماء الى حد العطش ٠ وهذه هى المضرة المباشرة التى ضغطت على حيوية البناء البشرى فى البادية وهددت أمنه وأوشكت على انتهاك مصيره ومصير قطعانه وانتاجها الغذائى ؛

٢ ــ تحمل البناء الاقتصادى فى مواطن الزراعة العربية نتائج الجفاف

---

(٢) راجع ظروف المناخ وكيف ضغطت على الحياة عندما بدأ الجفاف فى نهاية البلايستوسين فى ٠

Childe. G. : What happened in History. London 1942.
: Man Makes Himself. London, 1941.
Social Evolution. London, 1951.

وضغوط الذبذبة فى كم المطر السنوى المتفاوتة ، التى أثرت على مساحة الأرض الزراعية المطرية ، وعلى كم انتاج الزراعة من المحاصيل المتنوعة على صعيد الأرض المنزرعة • وهذه هى المضرة المباشرة التى ضغطت على حيوية البناء البشرى فى كنف الاستقرار وهددت أمنه وأوشكت على انتهاك مصيره ومصير غذائه وقترت عليه فى الرزق •

وعلى صعيد **البداوة** ، وفى ربوع البوادى الواسعة ، افتقدت الأرض أهم واخطر مقومات النمو البنائى الطبيعى • وانتهك الجفاف ثراء الكساء الخضرى (الحشائش والأعشاب) وانهك التذبذب احتياجات الحياة • عندئذ قتر المرعى الذى تدهور النمو الطبيعى فى ربوعه على القطعان وأهلك الجوع والعطش بعض الحيوانات واستشعر البدو فداحة الكوارث والخسائر التى ألمت بهم •

بل قل افتقد الناس فى ربوع البوادى مورد الماء الأنسب ، وافتقدوا الحيلة أو الوسيلة التى كان من الضرورى أن يواجهوا بها هذه المضرة ، أو التى كان فى وسعهم أن ينتصروا بها لأنفسهم ولقطعانهم • وزادت هذه الضغوط ، عندما التزم البدو بالحركة الفصلية والانتشار على الصعيدالأوسع مع القطعان بحثا عن الماء والكلاء فى المراعى المقترة • وهذا هو التهديد المباشر الذى هدد انتاج الغذاء من الحيوان بكل الضرواة •

وعلى صعيد **الاستقرار** ، وفى ربوع الزراعة ، افتقدت الأرض المنزرعة أهم وأخطر مقومات الزراعة وانتاج الغذاء • وانهك الجفاف النسبى والتذبذب فى كم المطر بالزيادة أو النقصان عن المعدل ، وفى توقع المطر بالتبكير أو التأخير عن الموعد امكانات الزراعة • وقتر المطر على الحقول فى الأرض الزراعية المطرية تقتيرا أضر بانتاجها الغذائى • واستشعر المزارعون فداحة الخطر والمتاعب التى ألمت بهم وضيقت الخناق على ارزاقهم وغذائهم وقوت يومهم •

بل قل افتقد الناس فى ربوع المزارع التى انتكست الأمن الغذائى الأنسب ، وافتقدوا الحيلة أو الوسيلة التى كان من الضرورى أن يواجهوا بها هذه المضرة ، أو التى كان فى وسعهم أن ينتصروا بها لأنفسهم ولانتاجهم الغذائى • وزادت وطأة هذه الضغوط عندما زاد الطلب على الغذاء وقل وتناقص العرض من الغذاء • وهذا هو التهديد المباشر الذى فزع الاستقرار وحمله المشقة ومواجهة شبح الجوع واخطار المجاعة •

وهكذا ، تحمل البناء الاقتصادى فى جزيرة العرب ، فى البادية ، وفى مواطن الزراعة ، على حد سواء وطأة التغير المناخى والضغوط الاقتصادية · وجنى البناء البشرى على كل الجبهات ثمرات ونتائج هذا التغيير وذلك التقتير والضغط على البناء الاقتصادى لا يعنى غير الاستخدام الجائر الذى دمر الموارد وانهكها ·

بل لقد تضرر البناء الاقتصادى كثيرا من جراء الخلل الاقتصادى وسوءات عدم التوازن بين العرض والطلب من الغذاء والانتاج الغذائى · وانطوى عدم التوازن الغذائى على تحديات معلنة وصريحة وهى ضارية ضد مصالح الحياة وأمنها ووجودها · وهل مواجهة الجوع والتقتير فى الأرزاق وعدم التوازن الغذائى تعنى — فى جملتها — شيئا أخطر من الانتهاك الصارخ الذى هدد وبدد وأفسد ، وكأنه العدوان الذى أهدر دم الحياة وأخذ فى مطاردتها ؟

وليس أخطر ولا أفدح بالفعل من تحديات الخلل الاقتصادى وعدم التوازن الغذائى وضغوطه ، وهى التى اصطنعت كل الاخطار التى انتهكت أمن الحياة وفزعت الحضور العربى على مصيره · بل قل بكل الثقة أنها هى بعينها الضغوط الطاردة التى طاردت حركة الحياة وتعقبت مصيرها وهى تلوذ بالفرار · ولقد تجددهذا الخطر ، وتصاعد الخللالاقتصادى وتوالت مضاعفات الضغوط الطاردة من خلال عدم التوازن بين :

١ — تقتير وشح وقحط ونقصان حقيقى فى حجم الانتاج الكلى من الموارد المتاحة (الحيوان والزراعة) بموجب النقص فى المطر والتمادى فى الجفاف والتصحر · وهذا لا يعنى غير النقص فى العرض من الغذاء ·

٢ — زيادة ونمو وتصاعد حقيقى فى حجم الاستهلاك الكلى من مواد الغذاء (الحيوانية والزراعية) بموجب النمو الطبيعى فى عدد السكانوالتمادى فى الاستهلاك · وهذا لا يعنى غير الزيادة فى الطلب على الغذاء ·

والنقص فى العرض من الغذاء ، والزيادة فى الطلب على الغذاء ، هى الحقيقة التى لا تكذب عندما عبرت عن معنى الخلل الاقتصادى · ولا ينبغى أن نشك أو أن تتشكك فى صدق ما أسفرت عنه هذه الحقيقة الاقتصادية · كما لا يجب أن نتهاون فى استشعار جدوى عدم التوازن بينمعدلات الانتاج من الغذاء ومعدلات الاستهلاك من الغذاء فى جزيرة العرب · وعدم التوازن

الغذائى ، ضغط حقيقى لأنه ساق الناس الى مواجهة الجوع ٠

واذا كان عدم التوازن الغذائى قد كشف ابعاد حدود المعادلة الصعبة وجسد العقدة المستعصية وجب علينا أن نجيب على :

١ ـ هل أسفر التمادى فى الجفاف وشيوع ظاهرة التصحر عن شيء غير النقص فى انتاج الغذاء وهبوط معدلاته هبوطا مستمرا ؟

٢ ـ هل أسفرت الزيادة الطبيعية فى كم السكان عن شيء غير الزيادة فى الطلب وارتفاع معدلات استهلاك الغذاء ارتفاعا مستمرا ؟

٣ ـ وهل يعبر هذين الحدين فى المعادلة بكل وسائل التعبير عن شيء غير الخلل الاقتصادى ؟

والاجابة التى تكون عن كل سؤال بنعم ، ولا يمكن أن تكون بغير نعم ، هى التى جسدت وتجسد حجم القعدة المستعصية أو حجم التحدى ٠ ولا تثريب علينا لو بحثنا فى الكيفية التى واجه بها الناس هذا التحدى أو الوسيلة التى اعتمد عليها الناس فى حل هذه العقدة المستعصية ٠ وهل من المنطق فى شيء أن يكون الجمع قد استسلم للجوع استسلاما وافتقد وسيلة أمنت وجوده ومصيره الاقتصادى ؟

ربما أدى هذا الخلل وعدم التوازن الغذائى الى تضور بعض الحضور العربى فى جزيرة العرب جوعا ٠ وربما أدى الجوع الى سؤ استخدام الموارد أو الى استخدامات جائرة ضغطت على الموارد المتاحة فى ربوع البوادى ، أو فى مناطق الزراعة ، طلبا أو تطلعا الى زيادة معدلات الانتاج وتخفيض معدلات الجوع والتردى فى المجاعة ٠ ولكن هل نصر الاستخدام الجائـــر الذى بدد الموارد ودمرها حاجة الناس ورد عنهم وطأة الجوع ؟ وهل أمن الحضور العربى هذا الاستخدام الجائر وشد أزره فى تحمل الضغوط الاقتصادية ؟

ولقد قدر على أجيال عربية كثيرة فى ذلك الزمن البعيد أن تستشعر ضغوط الخلل الاقتصادى وأن تتحمل مضاعفاته الخطرة فى اطار الواقـــع الجغرافى الطبيعى المتغير ٠ بل قل لقد واجهت هذه الاجيال العربية تحديات الجفاف والتصحر المعلنة ضد ارادة الحياة والمصير بقدر كبير من الجلد وقوة التحمل ٠ ولكن كان على هذه الاجيال المتضررة والصامدة ، أن تحمى وجودها أو أن تنتشل مصيرها من براثن الخطر ، أو أن تعمل كل مافى وسعها لكى

توقف انهيار مستوى المعيشة الصعبة الى ما دون حد الكفاف • فماذا فعلت وكيف تصرفت ؟

وفى هذه المواجهة الصعبة ، كان فى وسع الحضور العربى الذى انتفض للدفاع عن حقه فى الحياة ، أن يختار بكامل تقديره للمتغيرات بين ، خيارين لا ثالث لهما :

١ ـ صمود وبقاء واستمرار فى جزيرة العـرب تتهدده الضغـــوط الاقتصادية وتفتك به المجاعة وسؤ التغذية •

٢ ـ خروج ومغادرة جزيرة العرب فى طلب النجاة تؤمنه فرص الحياة أو الحياة الأفضل فى المهجر •

ولقد كان الحضور العربى عندئذ ، هو الطرف الاعجز عندما قدر له أن يختار • وكانت الضغوط الاقتصادية ، هى الطرف الأقوى عندما أملت عليه الاختيار • ولم يمتلك الحضور العربى آنذاك حيلة أسعفته أو مهارة نصرته أو وسيلة قهرت لحسابه هذا التحدى من خلال عمل ايجابى مباشر أو غير مباشر • وهذا معناه انه لم يمتلك حقه الفعلى فى الاختيار • وهل كان فى مقدوره أو فى وسع بعض هذا الحضور العربى على الأقل ، أن يختار غـير الخروج ومغادرة الديار ؟

وصحيح أن هذا الخروج العربى وهو اختيار على غير ارادة ، قد جسد معنى من معانى الفرار أو الانسحاب والتهرب من ضراوة الخطر الذى تمثل فى عدم التوازن الغذائى • وصحيح أيضا أن هذا الفـــرار أو التهرب أو الانسحاب ، قد وفر الاسلوب السلبى الأمثل للتملص من براثن التحديات المستعصية أو من خطر الجوع وانهيار مستوى الغذاء الى ما دون حد الكفاف• ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هذا الاختيار وهو عين الامتثال لعوامل الطرد من جزيرة العرب هو قمة الانتصار لوجود مصير ومصالح الحياة والنـاس فى ربوعها •

ودون ما حاجة الى تبرئة هذا الخروج وهو ما نعنيه بهذا الاختيـــار من شبهة الفرار والتهرب والعمل السلبى ، فان هذا الاختيار الحصيف لا يعنى شيئا أهم وأجدى اقتصاديا من :

١ - تلمس أسباب الحياة والاستيطان وطلب العيش فى أرض جديدة، والاجتهاد الاقتصادى وجنى ثمرات العمل والسعى المثمر والانتاج فى غير جزيرة العرب ٠

٢ تلمس أسباب الرزق وطلب الكسب والربح والتعامل مع اقطار جديدة ، والاجتهاد الاقتصادى وجنى ثمرات العمل والسعى المثمر والتعامل والحصول على الحاجة من غير جزيرة العرب لحساب جزيرة العرب ٠

وهذا الحصاد الاقتصادى الذى جنت ثمراته اجتهادات الخروج العربى ، سواء عادت مردوداته الى جزيرة العرب بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر وانتفعت بها أو لم تكن له مردودات واضحة انتفعت بها ، فانه لا يعنى فى نهاية المطاف أو فى الحساب الختامى للجدوى شيئا أهم أو أجدى اقتصاديا من :

١ - انخفاض معدلات الطلب على الغذاء انخفاضا ملموسا خفف عن كاهل البناء الاقتصادى بعض الأعباء ٠ وهذا اسهام حقيقى فى انخفاض معدلات الخلل الاقتصادى وعدم التوازن الغذائى الصارخ بين الانتاج والاستهلاك ، أو فى تعديل العلاقة الحتمية بين العرض والطلب من الغذاء ٠ وهل غياب بعض الناس الذين غادروا وخرجوا لا يؤدى الى تخفيض معدلات الطلب ؟

٢ - انهاء سوءات الضغط الجائر فى شأن استخدام الموارد المتاحة لانتاج الغذاء (الحيوان والمراعى ، والأرض المنزرعة) ٠ وربما عاد من آثر من الناس البقاء ولم تستخفه الحاجة الى المغادرة والخروج فى طلب الحياة الأحسن الى رشده ٠ وعاود أساليب الاستخدام الأفضل وتجنب استنزاف المعين ٠ وهذا اسهام حقيقى وفعال فى صيانة الموارد والمحافظة على حيوتها ، وفى تأمين التوازن الغذائى من غير امعان أو تماد فى تدمير موارد انتاج الغذاء ٠

هذا ، واذا كان الخروج العربى والهجرة والمغادرة من جزيرة العرب، هو سبيل الانتصار الذى أحبط التحدى وخلص مصير الحياة فيها من تسلط الجوع وبطش المجاعة ، فهو أيضا سبيل الاجتهاد الذى ابطل مفعول عـــدم التوازن الغذائى ، واعادة مسيرة الحياة الى سبيل الأمن الغذائى ٠ ويرى بعض الباحثين أن الحاجة الى هذه الموازنة بين العرض والطلب من الغذاء كلما تمادى الجفاف وسيطر التصحر ، هى التى استوجبت خروج هذه الموجات

المهاجرة من جزيرة العرب على رأس كل الف عام(٣) ، والتى استوجبتاقتحام هذا الخروج المحيط الهندى فى ابحار تجارى مغامر ·

وكان هذا الخروج العربى دائما وعلى كل الجبهات من أجل كل غاية تجشم الرحلة فى سبيلها ، وسيلة الاتصال وعين الانفتاح المبصرة · بل لقد تحمل هذا الخروج مسئولية اتساع دائرة الرؤية العربية ، وتنشيط التعامل والعلاقات السلمية التى انتفعت بها مصالح الحياة فى جزيرة العرب قبل الاسلام · بمعنى أنه الخروج العربى الفعال الذى فتح الأبواب والمنافذ واسقط الحواجز والموانع بين جزيرة العرب والعالم الخارجى فيما حولها ·

ومن هذه المنافذ وتلك الأبواب اطلت حركة الحياة العربية فى جزيرة العرب على حركة الحياة فيما وراء جزيرة العرب · واتاح التعامل علاقات حميدة وقنوات اتصال مباشرة وغير مباشرة بين حركة الحياة على هذين الصعيدين المحلى والعالمى · وتداخلت محصلة هذا التعامل وهذه العلاقات فى ترسيخ الاحتكاك الحضارى ومردوداته المتنوعة · ولقد أثرت هذه المردودات فى بنية الواقع الحضارى والواقع الاجتماعى والواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام وأثرته ·

بل قل أن هذا الخروج العربى الناجح الذى اصطنع قنوات الاتصال المباشر وغير المباشر بين حركة الحياة فى ربوع جزيرة العرب من جانب وحركة الحياة فى ربوع اقطار وامصار كثيرة من جانب آخر ، قد أبقى دائما على هذا الاتصال وما فرط أبدا فى جنى ثمراته · ولقد كفل ذلك الاستمرار والدوام أو الابقاء على قنوات الاتصال المنفتحة رافدا مهما من أهم روافد التجديد فى الحيوية السكانية العربية ، وفى البنية الحضارية ، وفى التوليفة الاقتصادية·

---

(٣) بدأ هذا الخروج منذ وقت بعيد فى عصور ما قبل التاريخ وتكرر ولم يتوقف أبدا حتى كان الخروج العربى الذى قاد مسيرته الاسلام فى القرن السابع الميلادى · راجع

أ - Warrell, W. : A study of Races in Ancient Near East Cambridge 1927.

ب - Winckler, H. : The History of Babylonia and Assyria N.Y. 1907

جـ - Huzayyin, Sq. S. : Arabia and the Far East. Cairo, 1947.

د - Hitti, P.K. : History of the Arabs. London 1960.

كيفية الخروج العربي :

منذ حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد أو يزيد(٤) ، أصبح ذلك الخروج العربي الذى استخفته الحاجة والتزم بالمغادرة حقيقة فعالة لا تقبل الجدل ، ولا تستحق الانكار . بل قل ــ بكل اليقين أن هذا الخروج العربي الذى حفزته عوامل الطرد الاقتصادى كان خروجا هادفا وهو مغادر فى ثقة واطمئنان. فهو لم يبدأ رحلته من غير دوافع ، ولم تخذله ارادته وتطلعاته الى بلوغ الغاية . وما كان من شأنه ابدا أن تخبط أو ضل طريقه الصحيح فى اتجاه الهـــدف .

ونجاح هذا الخروج العربي فى بلوغ الغاية وتحقيق الهدف لم يقف عند حد اقتنع به وجاوب تطلعاته . بل قل انه قد تمادى وتوالى ودام ، فلم يكف عن المضى فى الطريق والتقدم من شوط الى شوط آخر . ولقد واصل هذا الخروج اجتهاده الذكى الذى أطاع ولبى تجدد تطلعاته وتفتح شهيتـــه واتساع آماله . ولماذا يكف هذا الخروج أو لماذا يتوقف هذا الخروج عند حد ، وهو فى طلب الرزق أو وهو فى طلب الحياة الأفضل ؟

ولقد اتخذ هذا الخروج العربي النشيط شكلا من أشكال الانتشار على المدى الواسع فى ربوع الأرض الآسيوية والأرض الأفريقية فيما وراء جزيرة العرب . وهذا معناه أنه قد أحسن استثمار الموقع الجغرافى وعرف كيف يكون التحرك بشكل مباشر أو غير مباشر الى حيث بلغ الغاية أو حقق الهدف، منذ وقت بعيد . كما عرف آنذاك كيف يجد له المكان المناسب بين الناس حضورا وتعاملا فلا تبعده مقاومة أو يطرد كما يطرد الجسم الغريب .

وتأتى هذا الخروج على دفعات أو موجات فى مراحل ، الى مواطـــن الاستيطان أو الى مواطن الاغتراب فى أنحاء المهجر الفسيح . واختار الطريق أو الدرب الأنسب واجتاز حاجز المسافة وهو معتمدا على حسه الجغرافى الفطرى الذى بصره ، وما ضلله ابدا . كما اسعفه هذا الحس الفطرى كثيرا ورشد اختيار المكان المناسب الذى احتواه وحقق فيه الغاية التى غادر من أجلها .

وهكذا أصبح هناك حضوران عربيان ، عاش كل حضور منهما حياته

---

(٤) هناك رأى يدلل على أن الخروج العربي بدأ منذ الألف الخامسة قبل الميلاد وربما سبق ذلك . راجع د. أحمد سوسة المرجع السابق صفحة ١٩٨ .

وممارسته الاجتماعية والحضارية والاقتصادية فى اطار الواقع الجغـرافى الطبيعى البيئى الذى احتواه وضمه • وهذان الحضوران العربيان هما :

١ ـ حضور عربى أصلى أقام فى جزيرة العرب وعكف على تطويـع الواقع الجغرافى الطبيعى ، وترسيخ حركة حياته ترسيخا أبقى على سيطرته على زمام الأمور • وما كان الخروج والمغادرة خروج تفريغ لكى تفقد جزيرة العرب عروبتها •

٢ ـ حضور عربى مغترب أقام فى المهجر وعكف على تطبيع حياته مع الواقع الجغرافى الطبيعى والبشرى وجنى ثمرات اغترابه ودعم وجوده دعما أمن مصالحه وحركة حياته ، واصنع علاقة مع جزيرة العرب • وما كان الخروج والمغادرة والاغتراب اغتراب تفريط لكى ينقطع عن عروبته •

ولقد كانت دائما أكثر من وسيلة واقعية أو عملية ، وأكثر من قناة منفتحة ، وأكثر من علاقة وظيفية ابقت وحافظت وطورت الاتصال بين الحضور العربى الأصلى الصامد فى جزيرة العرب من جانب ، والحضور العربى المغترب فى انحاء المهجر من جانب آخر • وهذا الاتصال وتلك العلاقة كانت على كل المستويات سواء اتخذت السبل المباشرة أو السبل غير المباشرة • وأسفرت هذه السبل وتلك القنوات عن تداخل فعلى ومفيد بين :

١ ـ مسيرة حركة الحياة فى جزيرة العرب بكل ابعادها الحضاريـة والاجتماعية والاقتصادية •

٢ ـ مسيرة حركة الحياة فى الاطار الواسع الفضفاض فى ربـوع المهجـر •

هذا ، وقبل أن نتلمس ما أسفر عنه هذا التداخل وطبيعته وأساليبه وأهدافه ، وقبل أن نتبين مبلغ تأثير هذا التداخل وانجازاته الفعالة ، وقبل أن نحسب حساب الجدوى ونقوم نجاحات هذا التداخل ، يجب أن نعرف جيدا كيف أصبح هذا التداخل رافدا من أهم الروافد التى شدت أزر الواقع الاقتصادى وهو القطاع الحيوى من حركة الحياة الصامدة على صعيد جزيرة العرب • كما يجب أن ندرك أيضا ، كيف سار هذا الخروج العربى فى المسالك وكيف كانت اتجاهاته على دروب الانتشار والمغادرة ، وهو باحث عن غاياته وأهدافه وتطلعاته •

ومن ثم نعرف جيدا كيف عاش الاغتراب العربى عيشة الانفتاح والتفتح فى وقت واحد ٠ كما نعرف كيف اصطنعوا قنوات الاتصال المنفتحة التى يسرت وأبقت وأمنت العلاقة بينهم فى المهجر وبين أصولهم فى جزيرة العرب٠ بمعنى أن نعرف فى هذا الشأن الهام كله الاجابة الحقيقية والصادقة عن الأسئلة التالية :

١ ـ كيف عرف الخروج العربى طريقه واختار سبيله الى الوطن الجديد أو الى المهجر ؟

٢ ـ كيف استثمر هذا الخروج العربى النازح أو المهاجر حضوره واجتهاده وتطلعاته فى المهجر ؟

٣ ـ كيف أبقى هذا الاغتراب على العلاقة مع الحضور العربى الصامد فى ربوع جزيرة العرب ؟

والاجابة على هذه الأسئلة هى ـ بكل تأكيد ـ السبيل الأفضل الذى نكشف بموجبه الغطاء عن اتجاهات هذا الخروج واختيار الهدف ٠ وما من شك فى أنه لم يتخبط ابدا ٠ بل انه لم يضل عندما ضرب فى المجهول ٠ وبموجب هذه الاجابات تتضح الرؤية الصادقة ونعرف كيف وظفت النخبة من التجار فى مدن الأسواق أو تحالف التجاريين هذا الخروج وهذه العلاقة التى حافظ عليها فى دعم التركيب الهيكلى للبناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام ٠

وفى شأن الكيفية التى عرف بموجبها هذا الخروج العربى النازح طريقه فى اتجاه الهدف أو الغاية فى الوطن الجديد أو فى المهجر ، ينبغى أن ندرك جيدا كيف :

١ ـ أن عوامل الطرد وضغوط الحياة واختناق أبواب الرزق قد حفزته وطاردته ٠

٢ ـ ان الحس الجغرافى الفطرى قد ألهمه وبصر مسيرته وسدد خطاه على الطريق ٠

٣ ـ ان التعامل مع الواقع الجغرافى بهذا الحس ، قد رشد اختياره وكفل تحديد الغاية والهدف ٠

وهذا معناه أن الالتزام بالخروج والانصياع لضغوط عوامل الطرد من جزيرة العرب ومغادرة الديار ، لا يعني اطلاقا أنه قد ضرب في المجهول وعلى غير هدى • كما لا يعني ابدا انه انساق انسياقا غير حصيف أو غير حذر أو غير بصير • وما من شك في أن هذا الخروج ما افتقد القدرة ابدا في شأن تأمين المسيرة والاطمئنان الحذر على المصير • وهل نشك في أن هذا الخروج النازح من جزيرة العرب كان خروجا رشيدا طلب الحياة الأفضل ، ولم يطلب أبدا الضياع أو التخبط ؟

أما عن الكيفية التي عرف بموجبها هذا الخروج العربي استثمار خروجه ومغادرة الديار والابقاء على علاقات مع بني جلدته وظفها التجار في دعم البناء الاقتصادي العربي فلا يكشف عنها غير البحث في شأن اتجاهات هذا الخروج النازح • كما يكشف عنها أيضا تقصي حقيقة الغايات وتعقب الأهداف وحساب جدوى المردودات التي أسفر عنها أو التي انجزها هذا الخروج على المدى الطويل •

اتجاهات الخروج واختيار الهدف :

ما من شك في أن اتجاه الخروج العربي وهو مطارد من جزيرة العرب قبل الاسلام ، كان اتجاها هادفا • وهو لم يغادر الديار ويتجشم عناء الرحلة ومشقة الاغتراب في انحاء المهجر ، الا من أجل غاية اقتصادية بالدرجة الأولى • وكأن الدافع الأصلي الذي حمله على المغادرة ، والغاية التي استقطبت وقع خطواته على الطريق ، كانت اقتصادية في البداية والنهاية • ومن ثم كان التوجه النازح شديد الحذر والاقدام في اتجاه الهدف • ولكنه في نفس الوقت لم يكن توجها خائفا أو اقداما مترددا •

بل قل - بكل اليقين - أنه كان الخروج النازح المغامر الذي غادر الديار ، وهو هادف وواثق ومطمئن • كما كان في وسعه أن يؤمن وقع خطواته الحذرة والشجاعة على الطريق الصحيح في طلب الهدف وبلوغ أقصى الغاية من هذا الهدف • ولقد عرف هذا الخروج النازح طريقه تماما وهو فار من ورائه كل عوامل الطرد وضغوطها التي حفزته وفزعته في وقت واحد • كما عرف أيضا كيفية اختيار المهجر الذي جاوب اهدافه ولبى تطلعاته ، وفي صحبته الحس الجغرافي الفطري الحصيف الذي بصره وهداه ولم يخذله أو لم يضلله •

ولقد توجه هذا الخروج المغامر توجها واثقا على دربين متباينين . وصحيح أن الهدف الاقتصادى كان قبلة هذا الخروج على كل درب منهما . ولكن الصحيح أيضا أن هناك اختلاف واضح تماما ، فى شأن الكيفية التى سعى بموجبها لانجاز أو لتحقيق وجنى ثمرات هذا الهدف الاقتصادى . ومن ثم ينبغى أن ندرك معنى ومغزى هذا التباين وكيف كان تباينا فعليا من حيث الوجهة التى اتجه اليها الخروج المغامر ، ومن حيث اختيار هذه الوجهة وسبل الوصول اليها ، ومن حيث بلوغ الهدف وتحقيق المقصد وانجاز الغاية .

بل قل - بكل الثقة - أن هذا التوجه على كل درب من هذين الدربين المتباينين كان توجها متوازنا وموفقا وناجحا . ولقد وفرت له هذه الصفات حسن اختيار الوجهة وسبل التحرك من أجل بلوغ الغاية وجنى الثمرات الاقتصادية . بمعنى أن هذا التوجه العربى الهادف على كل درب ، بدأ فى الوقت المناسب وسار بكل الثقة والاطمئنان فى الاتجاه الصحيح الى الهدف المجد أو المفيد . بل لقد بدأ هذا التوجه لكى يستمر ولم يتردد أو لم يكف عن آداء دوره الوظيفى . وما توانى قط فى جنى ثمرات هذا الآداء .

وهو - على كل حال - خروج غامر بجسارة مغامرة من بحث عن الهدف، ولم يضل ابدا ولم يتمادى فى الضلال . وهل كان من الممكن أن يضل هذا الخروج العربى المغامر ، وهو الذى اختار الهدف وتلمس الطريق اليه ؟ بل ولماذا يضل أو لماذا ينساق فى الضلال ، وهو الذى ان كان قد طاوع عوامل الطرد فقد جاوب كل عوامل الجذب والاغراء ؟ ومن ثم كان على هذا الخروج المغامر الذى استقطبت اهتماماته واغرت تطلعاته وداعبت احلامه وتوقعاته كل مغريات الهدف الاقتصادى أن يتجنب الضلال أو التمادى فيه .

وعلى أى درب من هذين الدربين ، واجه الخروج العربى المشقة والخطر فى البر أو فى البحر على حد سواء . ولقد تحلى بالاقدام والشجاعة والاصرار، واعتصم بالجلد والصمود والمثابرة ، ولكنه ما تراجع أو تخوف أو تردد ونكص على عقبيه أبدا . وما كان عليه أن يتهاون أو أن تلين قناته ، لأن الهدف كان مهما وحيويا وشديد الاغراء من وجهة النظر الاقتصادية .

وما من شك فى أن الهدف الاقتصادى الذى تطلع اليه هذا الخروج العربى المغامر ، وهو طالب الحياة الأفضل آنذاك قد استحق المخاطرة والصبر على المشقة . بل لقد استحق أيضا الاقدام المثير الذى تفانى فى خوض هذه التجربة . ويجب أن ندرك مدى الاصرار على المخاطرة وأن نطرى التمادى فى

خوض وتكرار هذه التجربة على المدى الطويل قبل الاسلام · كما ينبغي أن نحسب أيضا جدوى هذا التكرار والاستمرار والتمادى اقتصاديا ، فى نهاية المطاف ·

.. .. ..

الخروج فى طلب الأرض : (الاستيطان)

فى سبيل هذه الغاية ، وعلى هذا الدرب ، سجل الخروج العربى نشاطه واجتهاده على المدى الطويل · كما سجل مبلغ وضوح رؤيته للهدف الذى توجه اليه ، ومبلغ اصراره على النزوح ومغادرة الديار من أجل هذا الهدف الاستيطانى وحيازة الأرض · ولقد سار هذا الخروج النازح على طرق ودروب ومسالك برية وعرة موحشة احيانا ، وعبر البحر الاحمر الى الجانب الأفريقى أحيانا أخرى ·

وهكذا ، عبر السهل والجبل ، وعبر المسطح المائى ، وتجاوز هذا الخروج النازح الموطن فى ربوع جزيرة العرب ، واخترق حاجز المسافة فى الاتجاه الصحيح نحو الهدف · وعرفت هذه الهجرة وكل موجة نازحة من هذه الهجرة طريقها جيدا · ولقد بصرها الحس الجغرافى الفطرى ورشد اقدامها الجرىء · وهى التى توالت وتتابعت وتدافعت على أطول مدى الى ظهور الاسلام · بل انها الموجات التى خرجت واختارت التوجه الى هذا المصير ·

وما من شك فى أن هذا الخروج العربى النازح ، كان خروجا جماعيا وقت مغادرة الديار فى جزيرة العرب · وربما كان القرار هو قرار الجماعة كلها الذى انتهى اليه الأمر فى مواجهة الموقف العصيب الذى انتهك المصالح وأمن الحياة · ومع ذلك قد فرضت قيادة الجماعة احيانا أخرى هذا القرار اشفاقا منها على الناس وتطلعا منها الى الحياة الأفضل ·

وامتثالا للقرار ، لم يعرف عن هذا الخروج النازح وهو مغادر الديار ، غير التحرك والنزوح فى افواج كبيرة · ولقد تألف أى فوج نازح أو كل جمع مهاجر ، من دياره على صعيد ربع من ربوع جزيرة العرب من حشد جامع استخفته الحاجة الى الخروج · ولم شمل هذا الجمع وجمعت أوصاله ووجهت تحركاته ، ارادة التوجه الى الهدف وطلب الأرض ·

ولقد ضم هذا الجمع الحاشد الرجال والنساء ، الآباء والابناء ، الكبار والصغار فى كل فوج مغادر • وربما استشعر الجمع كله فردا فــــردا آلام الفراق ومغادرة الديار والتفريط فى الارض وموطن الذكريات ولكن لا رجعة أو عدول عن القرار • ولقد اصطحب هذا الجمع الحاشد معه فى رحلته الصعبة بعض الحاجات والأغراض التى اعتز بها ، وعز عليه أن يتركها مع ذكرياته واطلال موطنه • بل وكيف يترك شيئا هاما كان فى وسعه أن يحمله معه وهو على طريق كتب على من ذهب فيه أو اجتازه الا يرجع أو الا يعــــود مرة أخرى الى الديار ؟

ولعل هذا الخروج الحافل المغادر فى هذا الجمع الحاشد الكبير ، قد تحرك بكل البطء والحذر ، ولكنه عندما اقدم وجاوب القرار وتحرك على الدرب بكل الاصرار والمثابرة والتطلع المبشر بالأمل ، لم يخلف من ورائه أحدا من ذوى النسب أو الانتماء القريب • أو شيئا عز عليه التفريط فيه • ولا عجب فى ذلك كله ، لأن الجمع المهاجر فى كل فوج ، قد خرج من غير أن ينطوى على ارادة العودة أو الرجوع • بمعنى أنه خرج من الديار الخروج النهائــى وهو مكره بعد أن دفعته وطاردته عوامل الطرد والضغوط الاقتصادية •

وهكذا عقد هذا الخروج النازح الذى اكرهته عوامل الطرد العزم الأكيد على مغادرة الديار • بل لقد اخلص الرجاء فى شأن عدم العودة أو النكوص فى تنفيذ القرار • بل قل لماذا يعود أو لماذا يرجع وهو المغادر فرارا من تحديات فزعته وأرهبت بالجوع والنقص فى الغذاء حركة حياته ؟ أو قل لماذا تراوده ارادة العودة فى القرار وهو المغادر طلبا وتطلعا الى طلب الأرض عوضا عن الأرض أو وهو النازح طلبا وتطلعا الى الممارسة الحياتية الأفضل ؟

وفى اتجاه **الشمال** ، تحرك كل جمع حاشد أو كل فوج مغادر ، عــلى المسالك والدروب البرية ، حركة الباحث عن سبل الخروج من جزيرة العرب• ولقد اجتاز الصحراء عند مواقع محددة(٥) وهو فى طريقه الصحيح الى فرصة الحياة الأفضل • وهناك موقعان ، احدهما فى شمال غرب الجزيرة والآخر

---

(٥) نشأت بلدة تبوك فى موقع مناسب فى شمال غرب جزيرة العرب لكى يستثمر العمران فى ربوعها قيمة أو جدوى هذا المكان الحاكم للمرور من والى جزيرة العرب •
صلاح الدين الشامى : تبوك مدينة الانذار المبكر فى جزيرة العرب (بحث غير منشور) •

فى شمالها الشرقى مرت بهما معظم الدروب والمسالك التى قادت هـــذا التحرك(٦) ٠

ولقد تجنب هذا التحرك الاندفاع والعجلة لدى اجتياز الصحـــراء الموحشة ٠ بل لعله لم يتعجل الوصول الى الهدف ٠ وما كان عليه بالفعـــل أن يتعجل وهو الذى تحسس طريقه بكل الحذر بحثا عن الارض التى طلبها٠ وكان التزاما عليه أن يتأنى وأن يختار هذه الأرض التى أراد الاستيطان بها واستئناف الحياة فى ربوعها ٠

ويمكن القول أن هذا التحرك النازح كان بطيئا الى حد كشف عن منتهى الحذر على الطريق أو الدرب ، وأوضح مدى التأنى فى اختيار الأرض ووضع اليد والحيازة فى الموطن الجديد ٠ وكان من الممكن أن يكون هـــذا التحـرك النازح أشد بطئا مما كان عليه فى بعض الأحيان ، لولا أن تدافعت الأفواج تدافع الملهوف حتى دفعت بعضها بعضا ٠ وما ترك التدافع فى بعض الأحيان فرصة للتأنى بل كان حافزا ألهب التحرك الى الغاية ٠

ونجح هذا التحرك النازح الحذر مرتين ، مرة فى اجتياز الحاجز النفسى وهو مغادر الأرض والديار والذكريات فى الموطن الذى نزح منه وفارق ترابه واطلاله ٠ ومرة أخرى فى اجتياز حاجز المسافة الطويلة على امتداد السطح الوعر وهو فى حال سبيله الى الموطن الجديد ٠ بل قل أنه قد نجح أيضا فى اختيار الدرب وفى التقاط الأنفاس عند كل توقف على الطريق ، وفى استئناف التحرك كلما حان الوقت الأنسب للرحيل فى اتجاه الهدف ٠ ولقد حان هذا الوقت الأنسب لاستئناف السير دائما ، عندما استشعر كل فوج قرب وصول طلائع الفوج الآخر الذى سار فى أعقابه وتبعه على نفس الدرب وفى اتجـاه نفس الغرض ٠

وما من شك بعد ذلك كله ، فى أن هذا التحرك الحذر البطىء كان تحركا ذكليا وحصيفا ٠ ولقد عرف التحرك كيف يختار الطريق الانسب ٠ كما عرف بالضبط كيف يؤمن المسيرة من غير اندفاع متعجل تضلله العجلة

---

(٦) سلكت الأفواج الموقع الذى مرت به الدروب فى شمال شرق جزيرة العرب فى الاتجاه الى أرض الرافدين ، وسلكت الأفواج الموقع الآخر فى شمال غرب جزيرة العرب فى الاتجاه الى الشام أو مصر ٠

أو من غير بطء متردد يثقله التخبط • كما عرف بالضرورة أيضا كيف يصل وصول الظافر الى الهدف أو الغاية التى غادر الديار وفرط فى الأرض والموطن من أجلها •

وفى اتجاه **الغرب** ، عبرت بعض الأفواج المغادرة أو النازحة المسطح المائى عبور المتمكن من ركوب البحر الى الصعيد الأفريقى • ولقد هان على هذا التحرك أمر اجتياز البحر الأحمر واسقاط حاجز المسافة البحرية وصولا الى الحبشة • بل لقد عرف هذا التحرك جيدا كيف يعتلى ظهر الأرض الوعرة والمرتفعات شديدة التضرس ، وكيف يختار المسالك والدروب وهو متقدم فى مغامرته المثيرة فى اتجاه الهدف •

وتجربة الابحار المغامر التى اقتحمت المحيط الهندى ، قد اكسبت هذا الخروج النازح الى الصعيد الحبشى كل المهارات والخبرات التى انجحت تحركه ويسرت انتقاله انتقالا مباشرا الى هذه الأرض الأفريقية(٧) • بل قل أن هذا النجاح لم يقف عند حد بلوغ الغاية من مجرد حيازة الأرض فقط ، ولكنه تمادى الى حد اقامة صرح دولة وتعزيز سلطة الحضور الحضارى الذى عرفته جزيرة العرب فى سبأ(٨) •

والتحرك العربى النازح فى هذا الاتجاه ، قد حقق أكثر من نجاح • وتمثل أول نجاح فى اجتياز البحر والاستجابة لقوة الدفع وعوامل الطرد التى حتمت هذا الاجتياز • وحيازة الأرض جسدت نجاحا حقيقيا لانها بشرت بوصول هذا التحرك النازح الى الهدف • أما اقامة الدولة وغرس البنتة الحضارية السبئية

---

(٧) تاتى هذا الانتقال والنزوح الى الصعيد الحبشى بصفة مؤكدة فى الألف الأولى قبل الميلاد • ولقد أقام دولة اكسوم على الصعيد الحبشى وكانت ميناء عدول **Adulis** النافذة التى أطلت منها على العالم • وتحكى قصة التاريخ العلاقات بين اكسوم ومروى فى ربوع السودان الشمالى كما تحكى حكاية الحرب بينهما • وربما أسفر ذلك كله عن وصول التحرك العربى النازح الى سهول السودان ولكن المؤكد أن هذه العلاقات هى التى أدخلت فى ربوع السودان نبات القطن الذى جلبه العرب من الهند •

راجع صلاح الدين الشامى : المواصلات والتطور الاقتصادى فى السودان — القاهرة سنة ١٩٥٩ •

والسودان دراسة جغرافية — القاهرة سنة ١٩٧٢ •

(٨) صلاح الدين الشامى : الموانى السودانية دراسة فى الجغرافية التاريخية • (الألف كتاب) — القاهرة سنة ١٩٦١ •

التى نمت وترعرعت فهو قمة التألق فى هذا النجاح لأنه أهم دليل أسقط عن الخروج العربى فى طلب الأرض تهمة العدوان والاكتساح والتخريب ·

هذا ولقد طلب هذا التحرك العربى المهاجر فى اتجاه الشمال الى مساحات واسعة فى ظهير البحر المتوسط الشرقى ، أو فى اتجاه الغرب الى الصعيد الحبشى الأفريقى ، حيازة الارض فى المهجر · وغاية ما تطلعت اليه هـــذه الارادة ، هو اكتساب حق الوجود والاقامة والاستيطان · كما رنت بكل الأمل الى مجالات تتسع بموجبها هذه الحيازة لاحتواء هذا الوجود وتأمين مصالحه · بمعنى أن ارادة الحيازة ، لا ينبغى أن تجسد معنى تملك الأرض فقط ، بل ينبغى أن تجسد أيضا معنى حق استخدام الأرض والانتفاع بمواردها أكثر من أى شىء آخر ·

وهكذا جسد هذا التحرك النازح وتدافع الموجات وهجرة الافواج عـلى المدى الطويل ، تجسيدا فعليا هدف ومرمى الخروج العربى المغادر من جزيرة العرب الى غير رجعة · بل قل - بكل الثقة - انه الخروج العربى النازح الذى غادر مغادرة المضطر والمكره ، والذى امتلك فى نفس الوقت حق الاختيـــار والتوجه الى الهدف · ومع ذلك فهو لم يطلب شيئا أقل من فرص الاستيطان على صعيد الأرض الانسب فيما وراء جزيرة العرب · وكان ذلك بالفعل هـو الدليل الذى لا يكذب أو لا يضلل عندما نذكر أن هذا الاختيار كان اختيارا فى كنه ومغزاه ومرماه اقتصاديا ·

ويحكى التاريخ فى سجل وصفحات التراث العربى العتيق والعريق ، مبلغ الحاح هذه الافواج النازحة ، فى شأن حيازة الأرض والاستيطان فى ربوع الأرض فى كل مهجر · كما يحكى أيضا الكيفية التى انكب بموجبها عـــلى الانتفاع بهذه الأرض ، بعد أن تداخل فى البناء البشرى على صعيد كـــل مهجر · ولقد صور القصص التاريخى مبلغ الأصرار فى شأن تطلع هـــذا الخروج النازح فى موجات متواليـــــات ومتدافعات الى الاستيـطان وكيف توجهت هذه التحركات الاستيطانية توجها صحيحا ، اختارت بموجبه الموطن الجديد فى انحاء المهجر ·

وهناك عوامل كثيرة طبيعية وبشرية ، قد بصرت هذا التوجه السديد ، وهو فى صدد الاختيار الأنسب للاستيطان الناجح · ولكن الحس الجغرافى الفطرى اليقظ ، هو وحده الذى رشد وسدد هذا الاختيار · بل يجب أن نثق فى جدوى هذا الحس الجغرافى اليقظ الذى لم يخذل ارادة الاستيطان أو الذى أسعف حيازة الأرض والانتفاع بها فى اطار خصائص الواقع الجغرافى البيئى فى ربوع المهجر الفسيحة ·

ولقد وقع اختيار هذا الخروج العربى النازح أحيانا على الموطن الجديد أرض الشام الواسعة(٩) • وزين هذا الاختيار أو زكاه الثراء فى كم المطـــر الشتوى ووفرة النمو وازدهاره الذى استقطب أو أغرى أو كفل الاستيطان بل قل انه الثراء الطبيعى الأنسب الذى أرضى طموح الاستيطان وحقق غايته من حيازة الأرض والانتفاع بها •

واختارت بعض التحركات النازحة فى طلب الأرض ، الاستيطان وحيازة الأرض وتأمين حق الوجود فى الموطن الجديد على صعيد أرض الرافـــــدين (العراق) أو على صعيد السهل الفيضى الادنى للنيل (مصر) ويبـــدو أن الاستيطان قد آثر أو فضل الحياة وحيازة الأرض على ضفاف الانهار الزاخرة بالماء والجريان الرتيب • وهناك شواهد أثرية وأدلة مادية لا تكذب ولا تضلل فى شأن اسهام هذا الاستيطان فى صنع الابداع الحضارى فى ربوع هـــذا المهجر الذى اتسع له ورحب به ولم يرفض البناء البشرى تداخله ووجـــوده وانصهاره فيه •

وتمكنت بعض التحركات النازحة فى طلب الأرض من الاستيطانوحيازة الأرض وتأمين حق الوجود فى الموطن الجديد على الصعيد الحبشى الأفريقى • ولقد غرس الاستيطان جذوره وأعطى من معرفته الحضارية العطاء السخى • وهناك شواهد أثرية وأدلة مادية حدثت بالصدق فى شأن هذا الاستيطان الذى رسخ الابداع الحضارى السبئى • وما كان فى وسع الأرض أن ترفض هذا الوجود ، وما كان فى وسع البناء البشرى أن يرفض هذا الاستيطان(١٠)•

الاستيطان العربى ، حضوره ونشاطه :

بصرف النظر عن كل النتائج التى أسفر عنها هذا الاختيار الاستيطانى

---

(٩) لا شك ولا نشكك فى اتساع مجالات الاختيار ، فى اطار التنوع الجغرافى البيئى على صعيد المهجر • وبصمات الحضور العربى الاستيطانى واضحة فى مصر والشام والعراق منذ وقت بعيد قبل الاسلام • بل ان هذا الاستيطان الاختيارى قد سجل بداية المشوار فى التعريب وتوسيع رقعة الوطن العربى •

صلاح الدين الشامى ، فؤاد الصغار : جغرافية الوطن العربى الكبير ط ٢ سنة ١٩٧٥ ـ الاسكندرية من صفحة ٣٠ الى ٣١ •

(١٠) راجع : ١ ـ عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ •

٢ ـ صلاح الدين الشامى : الموانى السودانية ـ القاهرة سنة ١٩٦١ •

العربى ، من حيث التوزيع والانتشار على صعيد ذلك المهجر الفسيح ، وبصرف النظر عن استمرار وصول الموجات العربية الاستيطانية من جزيرة العرب على المدى الطويل ، يجب أن ندرك أمرين هامين ، وهذان الأمران هما على وجه التحـــديد :

١ ـ اتساع المهجر وامتداده بالفعل على صعيد فسيح آسيوى ـ أفريقى ، ولقد امتد بين العراق شرقا ومصر غربا ، واحتلت الشام القلب الحقيقى فى اطار هذا الامتداد ، ثم اضاف العبور البحرى الحبشة والقرن الأفريقى الى هذا المهجر فى وقت لاحق .

٢ ـ ظهور بوادر التشرذم بين أنماط الاستيطان العربى على امتداد هذا الصعيد الواسع فى انحاء المهجر ، وعزز هذا التشرذم فى معظم الاحيان الاختلاف الحقيقى فى شأن النشاط والعمل والممارسة المعيشية التى اسفر عنها هذا الحضور العربى المشتت .

هذا ، وينبغى أن نفطن أن هذا الاستيطان العربى الذى لم يخضع لقيادة ما تنظم وجوده ، والذى استمر على مدى أكثر من ٣٠٠٠ سنة قبل الاسلام على الأقل ، قد تردى فى سوءات التشرذم على غير ارادته . وهو من غير شك بعيد عن شكل الاستعمار الاستيطانى الذى غرس الحضور الاوروبى فى أنحاء كثيرة من العالم فى العصر الحديث . وهذا الاستيطان العربى هو أقرب ما يكون للانتشار الذى لعب دورا مؤثرا فى عمران الأرض ، وخضع لعوامل طرد وعوامل جذب هى وحدها التى خططت لهذا الانتشار .

وينبغى أن ندرك بل ونقدر بالضرورة مبلغ لهفة وتطلع هذه التحركات الاستيطانية النازحة من جزيرة العرب ، وكيف تفرقت بهم السبل فى أنحاء المهجر الفسيح . وما كان فى وسع الاختيار الاستيطانى أن يفعل أكثر من بلوغ الغاية وتحقيق الهدف وترسيخ حضوره فى الاطار الذاتى . ولا هو اكترث بالاستيطان الذى سبقه ولا بالاستيطان الذى لحق به . كما ينبغى أن ندرك بل ونقدر أيضا ، كيف تحققت هذه الاختيارات الهادفة ، التى فرقت السبل فى اطار التنوع الجغرافى البيئى فى المهجر الفسيح وفى اطار المدى الزمنى منذ الألف الثالثة قبل الميلاد . ولا اتساع المكان ولا طول الزمان قد اسعف الربط بين هذه الاختيارات لكى يحول دون التشرذم .

ويجب أن نتصور كيف كان اقتراب هذه التحركات الاستيطانية العربية

من المواطن الجديدة ، اقترابا هادئا من غير عنف • كما كان الاختيارالاستيطانى متاحا الى أبعد الحدود • بل لقد كان دخول هذه الموجات العربية النازحة الى المواطن المنتخبة دخولا سهلا وميسرا من غير موانع اعترضته أو اعترضت على اختياره • وما من شك فى أن هذا الاختيار الاستيطانى كان امنا ومطمئنا وكان الاستيطان متاحا لم يفزعه رفض أبدته الأرض ، أو مقاومة تحمست لها الناس فى ربوع هذه الأرض •

ولعل وصول التحركات الاستيطانية العربية واختيارها وانتشارهـــا ودخولها فى ثوب الاستيطان كان وصولا أقرب ما يكون الى التسلل الهادىء أكثر من أى شىء آخر • بمعنى أن هذا الاختيار العربى الذى عقد العزم على الاستيطان قد تجنب قطعا الاقتحام والاغارة من أجل حيازة الارض • كما تجنب أيضا الارغام والعنف والاغتصاب ، لكى يدخل أو يتداخل تداخلا فعليا فى ربوع المواطن المنتخبة على غير ارادة الناس فى انحاء المهجر الفسيح •

ولقد وضع الاختيار الاستيطانى العـــــربى أيديه على الأرض ، التى استسلمت له من غير عنف أو من غير عدوان • بل لقد ثبت جذوره فى هذه الأرض وأمن حياته من غير اغتصاب فى كثير من الأحيان • وهذا هو بالضبط معنى التسلل وتجنب الاقتحام العنيف ، فى شأن حيازة الارض وحق الوجود والاقامة ، أو فى شأن الحضور المؤثر واستخدام موارد هذه الأرض • بل لقد كفل هذا التسلل الاستيطانى على المدى الطويل سهولة ويسر التداخـــــل والاختلاط والانصهار فى بنية الحياة وحركتها المطمئنة وتاريخها المستمر على صعيد كل موطن فى أنحاء المهجر •

وهذا بالقطع دليل صادق وبينة كاشفة عن مبلغ حصافة هذا النمط من الاغتراب العربى الموفق ، والاقتراب الاستيطانى الناجح • ذلك أنه كان دائما الاستيطان العاقل الذى طلب التعايش وتأمين الحق فى المعايشة ، قبل طلب العيش واستحقاقه المعيشة فىاطار اختياره الناجح فىالاوطان الجديدة • بل قل — بكل اليقين — أن هذه التحركات الاستيطانية التى وفدت من جزيرة العرب ، على المدى الطويل ، قد حققت الهدف واستثمرت الغاية وأمنـــت الغرض ، من غير أن تلجأ الى قوة العدوان أو بطش الاغتصـــاب أو ضراوة القهر (١١) •

---

١١ — من طلب التعايش قبل العيش كان حقا عليه أن يتسلل ولا يقتحم بالعنف • ولكن من طلب الانتصار على العدوان وقهره أو من طلب درء الخطر وابطال مفعوله كان حقا عليه

وفي اعتقادي أن تجنب الاقتحام والغزو وقهر ارادة الناس واغتصاب الأرض ، قد أسقط عن هذا التسلل الاستيطاني العربي صفة العدوان وجرده من عار السلب والنهب(١٢) • بل لقد جنب هذا الاقتراب المسالم ، التحرك والحضور الاستيطاني وحيازة الأرض عنف الرفض المباشر أو شراسة المقاومة والصمود دفاعا عن الأرض • ومارد الاستيطـان العربي عن غايته وهـو طالب التعايش قبل العيش ، أي شكل ايجابي من أشكال الصراع والمنازعات من أجل تأمين الوجود وحق الحياة في المهجر(١٣) •

وينبغي أن نثق في فاعلية وجدوى هذا الدخول العربي المتسلل بكل الهوادة واللين • وتجنب العنف أو الاغتصاب وحده هو الذي أسفر عن التوفيق والنجاح الحقيقي في تأمين التحرك الاستيطاني العربي السافر • وطلب التعايش قبل العيش وحده هو الذي جسده وباشر واصطنع الشكل الانسب من الانسجام والتآلف والتجانس بين الحضور العربي الوافد والحضور السكاني المقيم في ربوع المهجر • بل قل ان هذا التآلف قد أنجز أعظم الانجازات الحضاريـة الباهرة • كما أدى التجانس الى اصطناع التغيير الى ما أفضل حضـاريا واقتصاديا(١٤) •

أن يقتحم ولا يدخل خلسة أو تسللا • وهذا هو ما قد حدث بالضبط في شأن التباين بين التسلل العربي الحصيف قبل الاسلام ، والاقتحام العربي المنتصر بعد الاسلام • وهل لا يبرر هذا الاقتحام العربي المنتصر بعد الاسلام التحدى الروماني المسيحي والتحدى الفارسي المجوسي اللذين توعدا الاسلام ؟

(١٢) الاضطرار الى الرحيل وطلب الأرض وتأمين حق الانتفاع بها من خلال التعايش المسالم مسألة ضرورية • ولا مبرر للعدوان والاغتصاب والقهر • وما يدركه الاستيطان بالحيلة وحسن المعاشرة قد اكتسب شرعية الرضا والاقتناع والترحيب • أما ما يؤخذ اغتصابا فلا يمكن أن نسقط عنه أبدا شبهة النهب • بل هو حق يفتقد الشرعية على طول المدى •

(١٣) وصل حق الاستيطان العربي المشارك في بعض المراحل الى حد الاسهام في اصطناع وترسيخ البناء الحضاري والبناء الاقتصادي • ثم تمادى هذا الحق بعد ذلك في مراحل أخرى الى حد تولى السلطة والولاية السياسية • ولقد سجلت دول الانباط وتدمر الغساسنة والمناذرة على صعيد المهجر وهي دول تخوم معنى التمادي الصريح في ممارسة هذا الحق • وعن هذه الدول ارجع الى : ١ - محمد بيومي مهران : المرجع السابق - الفصول ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ من ص ٤٩٣ - ٥٩٨ •

٢ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق - الفصل الثاني من ص ٨٦ - ١٤٠ •

(١٤) في غمرة هذا التآلف والتجانس وكل موجبات العلاقات السوية والتعايش الحسن ، تنشأ وتأتي الاحتكاك الحضاري الحميد • وأصبح هذا الاحتكاك الحضاري البناء من أهم موجبات التغير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في ربوع المهجر •

وهكذا انجز التسلل الاستيطاني العربي من النجاح ، مالا نتصور نجاح الإقتحام أو الاغتصاب في انجازه في أي من انحاء المهجر • ويكفي أن نتصور مبلغ نجاحه في احباط أي رفض ، وفي تجنب أي اعتراض ، وفي تطويع أي متاعب ، على صعيد المهجر الذي استقبل وفود النزوح العربي على المدى الطويل قبل الاسلام • وعندما تجنب هذا التسلل الاستيطاني أي اعتراض اعترض طريقه الى الغاية أو الهدف ، حقق الحضور العربي الاستيطاني نتيجتين ايجابتين لحساب التعايش الذي أمن المعيشة والعيش •

وتمثلت هاتان النتيجتان الايجابيتان مع مرور الوقت الذي لعب دورا مهما لحساب التآلف والتعود عليه ، وفي ربوع الارض التي ألفت وجاوبت هذا التآلف ولم تتمرد عليه في :

١ ـ الانتصار الحقيقي الدائم لارادة الاستيطان العربي وحيازةالأرض، وتأمين الحق الشرعي في الانتفاع بهذه الحيازة • وكفل هذا الانتصار انسياق هذا الاستيطان في الممارسة الحياتية انسياقا دام وتمادى وثبت الاستيطان ، وشد أزره وفجر مواهبه وألهب قدراته المبدعة في الموطن الجديد •

٢ ـ الترسيخ الحقيقي المتين لرأس الجسر المناسب الذي عبرت عليه أو مرت به موجات الاستيطان العربي على المدى الطويل قبل الاسلام(١٥) • وكفل هذا الترسيخ تدافع وتوالي واستمرار وصول الموجة الاستيطانية وراء الموجة الاستيطانية السابقة ، وكأنه مد الهجرة العالي الذي هيأ وجهز وأعد للتعريب الكامل بعد الاسلام(١٦) •

راجع رأي Huntington, E : Civilization and Climate PP. 11 - 14

(١٥) استمرار هذا الخروج العربي في موجات ، امتد على أطول مدى اعتبارا من خروج أول موجة • وهناك فواصل زمنية كافية للفصل بين تدافع هذه الموجات • ومعنى انها كافية نعني به ان كان في وسع الاستيطان كل في مرحلته أن يثبت وجوده وأن يتداخل في صلب حركة الحياة في المهجر • وقال البعض عن هذا الفاصل الزمني انه قد يلغ في اعتقادهم حوالي الألف عام • راجع :

(أ) Mgres. J.L. : The Dawn of History

(ب) Hitti : The History of Arabs.

(١٦) لم يواجه الاقتحام الاسلامي مشقة أو صعوبة في التعريب لأن الاستيطان السابق للاسلام كان قد فرغ من تجهيز كل مبررات وميسرات التعريب •

ولقد تمادى هذا الاستيطان العربى الحصيف الذى ألبسه التسلل ثوب الحضور الشرعى وتحرز من لوعة الاغتراب فى الارتباط بالارض • كما تمادى أيضا من خلال معايشة الواقع البشرى وحسن التعايش مع الحضور السكانى المحلى فى الارتباط بالناس • ولقد أمن هذا النمط الرزين من المعايشة التى وثقت الارتباط بالارض وبالناس ، وخلت من الاغتصاب والعدوان وترفعت عن الاقتحام والتسلط والقهر ، طلب العيش ، واكتساب حق حيازة الأرض والتشبث بها ، والانتفاع بمواردها •

والتعايش الرزين الذى اكسب الاستيطان العربى الحقوق الشرعية والحضور المشروع ، هو الذى سجل أول وأهم خطوات التآلف الحقيقى المثمر والمقبول من الاطراف المعنية • ومع مرور الوقت فتح هذا التآلف أبواب الاختلاط والتداخل والانصهار • وتسلل بموجب هذا الانصهار الحضور العربى الوافد فى نسيج الحضور السكانى المحلى المقيم • بل قل تداخل وانصهر الاستيطان العربى فى البنية البشرية فى أنحاء كل مهجر انتهى اليه مصير كل وصول عربى حصيف(١٧) •

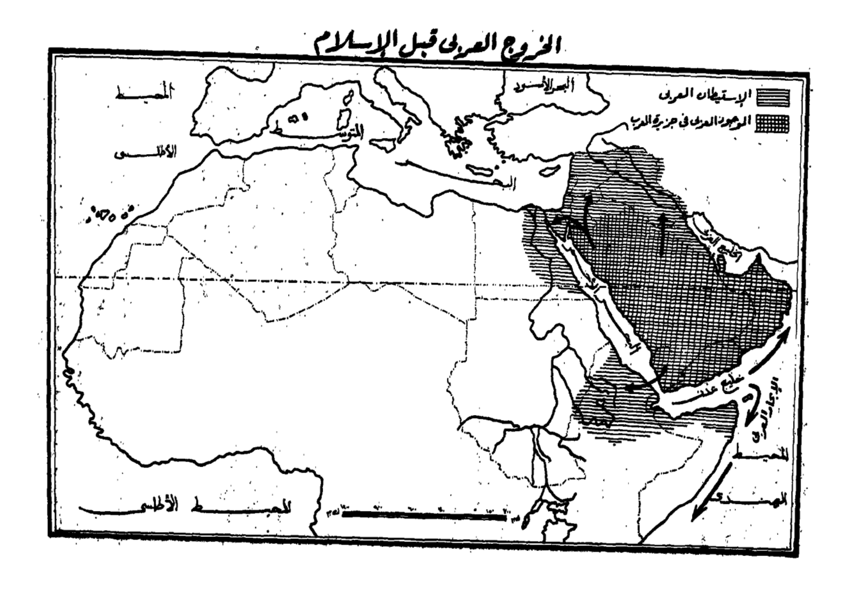
ومن غير أن نبحث فى شأن من الذى تداخل فى من ، ومن غير أن نتعقب أبعاد وجدوى هذا التداخل الحيوى ، ومن غير أن نتقصى الكيفية التى تم بموجبها هذا التداخل والاختلاط والانصهار ، يجب أن ندرك نتائجه الحسنة ، وأن نثنى عليه • وهذا التداخل لا يكاد يعنى فيما رمى اليه وانجزه بالفعل شيئا أهم واجدى من دعم وترسيخ الحضور العربى الاستيطانى • وهل هناك أهم وأعظم من الانصهار فى نسيج البناء البشرى انصهارا حضاريا واجتماعيا واقتصاديا ؟ وهل يدعم ويثبت الاستيطان العربى شىء غير هذا الانصهار ؟

جدوى الاستيطان ومردوداته :

ما من شك فى أن حصافة هذا التوجه الحميد أو ذلك السلوك الاجتماعى الاريب ، هو الذى رسخ قواعد الاستيطان العربى فى المهجر • ولقد رشد هذه الحصافة وانتصر لها على كل صعيد منطق وروح الانفتاح الذى تحلى به الخروج

---

(١٧) حارب الأموريون لحساب الحضور السكانى الذى تداخلوا فى بنيانه ضد العناصر الهندية الأوروبية فى ربوع آسيا الصغرى • ولقد أمن هذا الانتصار الاستقرار أكثر من ٢٠٠ سنة أصبحت فيها دمشق وهى من مدن الأسواق المزدهرة التى أمنت حركة عبور التجارة بين الخليج العربى والبحر المتوسط •



الخروج العربي قبل الإسلام

العربى المنازح(١٨) ، وهو مغادر الديار أو مهاجر من غير رجعة فى طلب الأرض والتعايش أو فى سبيل الاستيطان فى اطار الواقع الجغرافى البيئى الأفضل • ثم قل انه عين الانفتاح الذى كان قد تفتح عليه حضور العرب ونبض وجودهم وعاشوا بموجباته حياتهم وتضادهم الحضارى فى ربوع جزيرة العرب • ولقد مارسوا هذا الانفتاح فى اطار التعامل فى الأسواق أو فى مدن الأسواق • بل عاشت بموجب هذا الانفتاح المصالحة وسيطرت سبل ومناهج واتجاهات وروح المسالمة بين البداوة والاستقرار •

والانفتاح بين الأطراف المعنية الوافد والمقيم هو الذى اصطنع بالفعل هذا السلوك الحصيف • وهل هناك حصافة افضل أو أجدى من حصافة هذه التسلل الاستيطانى المسالم ؟ وحيازة الأرض واكتساب حق الوجود المشروع دون اعتراض أو دون رفض أو دون مقاومة سلبية أو ايجابية ، هو عين ما نعنيه بالسلوك الحصيف الذى أنجح الاستيطان العربى • بل وهل هناك انفتاح بين الأطراف المعنية أجدى من ذلك الانفتاح الذى أتاح التداخل والانصهار فى صلب البناء البشرى فى المهجر ؟ وما شك فى أن هذه المحصلة هى التى أبقت وحافظت على حقوق الاستيطان العربى المشروع فى حيازة الأرض وامثلاكها وفى الانتفاع بها •

ولقد اتجه هذا الاستيطان العربى الى الاستقرار ومعايشة الاستقرار والانصهار فيه • كما اتجه الاستيطان العربى الى البداوة ومعايشة البداوة والاندماج فيها • وهذا معناه أن هذا الاستيطان العربى حافظ على أبعاد الانشطار الحضارى الذى تمادى فيه الحضور العربى فى جزيرة العرب • بل ربما تعمدت الموجات البشرية النازحة الالتحاق بالنمط الحضارى الذى تعودت عليه قبل أن تغادر الديار وتخرج فى طلب الأرض والاستيطان • وأبقى هذا الالتحاق الذى الحق البدو بالبداوة والحق المستقرين بالاستقرار على جوهر التضاد الحضارى بينهما على صعيد المهجر •

---

(١٨) من نقش عربى وجد فى مصر ومدون بالخط العربى على تابوت تاجر من معين عرف باسم زيدايل فى القرن الثالث قبل الميلاد ، يظهر كيف تداخلت مصالح هذا الرجل مع المصريين • ويبدو أنه قد انخرط فى سلك الدين وأصبح كاهنا فى المعابد المصرية • وهذا معناه انه قد تداخل تداخلا كاملا فى البنية السكانية المصرية • وانفتاح الطرفين هو وحده الذى يفسر معنى وكيفية وموجبات هذا التداخل • راجع : لطفى عبد الوهاب يحيى : العرب فى العصور القديمة مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الاسلام — بيروت ١٩٧٩ ص ١٥٣ — ١٥٥ •

وإذا كان بعض الاستيطان العربى قد عايش الاستقرار(١٩) ، وسلك سلوكه فى انتاج الزراعة وصياغة المدنية الزراعية ، وكان بعض الاستيطان العربى قد عايش البداوة(٢٠) وسلك سلوكها فى انتاج الغذاء والاغارة والسلب وانتهاك حرمة الاستقرار ، فان بعض هذا الاستيطان قد عاش فى مدن الأسواق(٢١) وشارك فى حركة التعامل وتأمين التجارة • وهذا دليل آخر على أن الاستيطان العربى لم يتجمع فى جبهة واحدة ولم يسلك سلوكا فصل بينة وبين البناء البشرى الذى التحق به وتداخل فى نسيجه الحضارى والاقتصادى والاجتماعى •

هذا ، وينبغى أن ندرك كيف استمر النقصان فى المطر وكيف تمادى التصحر وكيف دام التحدى المناخى وانهال بكل ضغوطه على حركة الحياة فى جزيرة العرب • وينبغى أن ندرك أيضا كيف استمر النمو السكانى وكيف زاد الطلب على الغذاء وكيف تصاعد الضغط على الموارد المقترة • ومعنى ذلك معاودة الحالة التى واجهت بها حركة الحياة عدم التوازن وانحدار مستوى المعيشة الى ما دون حد الكفاف • ومن ثم نستطيع أن نتصور لماذا وكيف توالى أو تعاقب خروج الموجات المهاجرة(٢٢) • ويبدو انها كانت تتوقف لبعض الوقت لكى تبدأ من جديد ولكنها لم تتوقف أو لم تكف ابدا على طول المدى قبل الاسلام • كما تستطيع عندئذ أن تقوم مبلغ نجاح الاستيطان العربى ومردوداته وهو طالب التعايش والعيش الذى لم يكف منذ حوالى الالف الثالثة قبل الميلاد •

---

(١٩) من نماذج الاستيطان الذى عايش الاستقرار ذلك الاستيطان الذى تداخل فى مبنية الحضور السكانى فى أرض الرافدين • ولقد انصهر فى هذا الحضور وأصبح شريكا فى نمو وتطوير المدنية الزراعية فى بابل • وفى ظل المناخ الحضارى فى ربوع الأرض الطيبة ما انعزل أو تقوقع هذا الاستيطان العربى أبدا • وما حدث فى أرض الرافدين ، قد تكرر فى أرض مصر •

(٢٠) ومن نماذج الاستيطان الذى عايش البداوة ذلك الاستيطان الذى تداخل فى بنية الحضور السكانى فى بادية الشام • ولقد انصهر فى هذا الحضور البدوى وأصبح وهو جزء لا يتجزأ من هذه البداوة • وما تاتى فى بادية الشام قد تكرر فى شبه جزيرة سيناء •

(٢١) معايشة الاستقرار فى مدن الأسواق التى قامت عند تقاطعات الدروب قد أمنها التداخل والانصهار فى سكان هذه المدن • وعاش الاستيطان نفس التجربة التى عاشها الاستقرار فى مدن الأسواق على صعيد جزيرة العرب •

(٢٢) كان وظل الواقع الاقتصادى الذى برر هذا الخروج على المدى الذى دعا الى تعاقب هذه الموجات قبل الاسلام •

راجع : صلاح الدين الشامى : جغرافية العالم الاسلامى ط ٢ - الاسكندرية سنة ١٩٨٢ •

وبموجب هذا الاستمرار والخروج العربي المتوالي(٢٣) الذي لم يكف، ندرك ـ بكل تأكيد ـ مدى انتشار وهيمنة الاستيطان العربي في المرحلة الطويلة قبل الاسلام • وقد يقص التاريخ في سياق حركة الاحداث جدوى هذا الانتشار على صعيد المهجر • بل قد نتصور كيف أستباح هذا الانتشار الاستيطاني لنفسه حق قيام دول التخوم التي أشرنا اليها • واصبح تداخل حركة الحياة في هذه الدول في حركة الأحداث بين فارس واليونان والرومان شيئا حتميا •

وقد يسهل علينا من خلال رؤيتنا الجغرافية التاريخية حساب جدوى هذا الانتشار الاستيطاني في مراحله المستمرة • بمعنى أن يكون هذا الحساب بداية من التسلل الاستيطاني الى التداخل والانصهار الذي جدد ونشط الحيوية في البناء البشري المتجانس • ويكون هذا الحساب بعد ذلك من تحول البناء البشري المتجانس الى ما نشبهه بالسبيكة التي تزودت بكل أسباب الفاعلية والتأثير الفعال الى الاسهام الحقيقي الذي جسد حيوية هذا التأثير في صنع

---

(٢٣) في شأن توالي هذا الخروج في طلب الأرض هناك اتفاق على أن البداية كانت قبل الألف الثالثة قبل الميلاد ، وأن الاستمرار قد دام الى ظهور الاسلام الذي قاد أعظم خروج وسع بموجبه مساحة الوطن العربي وأنجز مهمة التعريب • ولكن هناك اختلاف في شأن تحديد هذه الموجات تحديدا زمنيا •

وفي رأي د• محمد السيد غلاب أن هناك ثلاثة موجات رئيسية هي : (١) موجة قديمة سابقة للألف الثالثة قبل الميلاد اتجهت أصلا الى العراق (٢) موجة في الألف الثالثة قبل الميلاد وحملت الكنعانيين الى الشام (٣) موجة ثالثة كبيرة في الألف الثانية قبل الميلاد •

أما الرأي الآخر فلقد حدد الموجات على قدر كبير من الدقة على النحو التالي: (١) موجة قديمة في سنة ٣٦٠٠ ق•م اتجهت شعبة منها الى العراق وشعبة الى مصر وتداخلت في الاستقرار (٢) موجة ثانية في عام ٢٥٠٠ ق•م وانتسب اليها الكنعانيون والفينقيون (٣) موجة ثالثة حملت الارامیون الى مواطن استيطانهم في حوالي من ١٦٠٠ الى ١٤٠٠ ق•م (٤) موجة رابعة حملت الاسماعليين من مكة بعد قحط شديد في ٦٠٠ ق•م (٥) موجة خامسة حديثة نسبيا ترجع الى قبل الاسلام بقرون قليلة وحملت الغساسنة الى ربوعهم في الشام •

راجع : أ ـ محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهري : الجغرافية التاريخية ـ القاهرة ص ٤٦٧ ـ ٤٦٩ •

ب ـ أحمد غسان : العرب والقبائل العربية في سورية قبل الاسلام ـ مجلة الاكليل ـ صنعاء ـ العدد الأول السنة الثانية سنة ١٩٨٢ ص ١٧٠ •

ـ وينبغي أن تضيف الموجات التي عبرت البحر الأحمر الى الهضبة الأفريقي الحبشي • وربما وصلت بعض هذه التحركات الى أطراف من حوض النيل في مصر والسودان • وكان ذلك في القرون القليلة السابقة لميلاد المسيح •

الأحداث وصياغة المنجزات . ولكن الأهم من ذلك كله هو أن نحسب جدوى هذا الاستيطان فى مراحل انتشاره وانصهاره وهيمنته ، فى شأن العلاقات مع حركة الحياة فى جزيرة العرب بصفة عامة ، وفى شأن الواقع الاقتصادى فى ربوعها . وقد ندرك التفاوت فى هذه الجدوى بين مراحل تأرجح فيها هذا الواقع الاقتصادى بين ثراء واغداق وسخاء أحيانا وفقر واقلال وتقتير أحيانا أخرى .

وعندئذ يجب أن نتوخى الحذر فى شأن حساب هذه الجدوى . ولا ينبغى أن نهمل بعض العوامل والمتغيرات التى غيرت فى هذه الجدوى . ومثلا ، لا يجب أن نتصور الاستمرار فى الخروج العربى على دفعات أو على مراحل زمنية منفصلة شكلا من أشكال الاستنزاف البشرى الذى افتقدت جزيرة العرب والاجتهاد الاقتصادى فى ربوعها بموجباته النوعية الأجود من قوة العمل ، فقط . كما لا ينبغى أن نتصوره أيضا شكلا من أشكال التفريغ البشرى الذى افتقدت جزيرة العرب والاجتهاد الاقتصادى فى ربوعها بموجباته الكم الأكبر من قوة العمل ، فقط .

وصحيح أن هذا الخروج العربى المتوالى قد انتقص من رصيد جزيرة العرب البشرى وافقدها بعض قوة العمل . وصحيح أيضا أن هذا الانتقاص وهذا الفاقد كان على الوجهين خصما من حساب الكم والنوع من قوة العمل . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الاستمرار الذى نعنيه هو توالى الخروج العربى فى موجات تعاقبت وتوالت فى فترات القحط وعدم التوازن الغذائى . وأقل ما يقال فى شأن التقويم الحقيقى ، هو أن فقدان بعض الرصيد البشرى وفقدان بعض قوة العمل فى الفترات أو فى المراحل الذى حدث فيها هذا الخروج كان مطلوبا بكل الالحاح لحساب التوازن الغذائى .

والتوازن الغذائى المنشود فى جزيرة العرب فى فترات القحط كان غاية أو هدفا اقتصاديا حقيقيا . وكان هذا الهدف الاقتصادى هو عين الواقع الذى جسد جدوى ذلك الرحيل المهاجر أو تلك المغادرة من غير رجعة . وفى بعض الفترات التى اختل فيها الوضع الاقتصادى عند أهل البادية أو فى ريف الزراعة ، وتخبط بين شح وقحط افتعله الجفاف والتصحر من جانب ونمو سكانى تضور جوعا وتضررت حياته من ضغوط هذا القحط من جانب آخر ، لم يتحقق التوازن الغذائى الا من خلال هذا الخروج العربى ورحيله . وعندئذ جنى بقية الحضور العربى الذى لم يغادر ثمرة هذا التوازن الغذائى الذى

اصطنعه واعاده الى وضعه الصحيح الانخفاض فى معدلات الطلب والاستهلاك وهو مقيم فى دياره ومواطنه فى جزيرة العرب ٠

وقد لا يملك البحث بالفعل الوسيلة أو الوثيقة التى يتحدد بموجبها توالى هذا الخروج على مراحل ، والفواصل الزمنية بين الرحلة والرحلة الأخرى ٠ وقد لا يملك البحث أيضا الوسيلة أو الوثيقة التى تجسد مدى ما كان عليه معدل التكرار فى شأن عدم التوازن الغذائى بين العرض والطلب أو بين الانتاج والاستهلاك ٠ ولكن ما لا يملك البحث التشكيك فيه هوان فترات القحط قد تعاقبت وأن عدم التوازن الغذائى قد تكرر من حين الى حين آخر ٠

وسواء كفل التعاقب والتكرار من حين الى حين آخر ، التمادى فى الجفاف والامعان فى التصحر ، أو المضى فى النمو السكانى وزيادة الطلب ، فان أى منهما وحده كان كفيلا باعادة حالة عدم التوازن الغذائى ٠ وكم أضرت حالات عدم التوازن الغذائى بالاوضاع الاقتصادية ومصالح الناس فيها ٠ وحالة عدم التوازن الغذائى والاضرار التى الحقها بالأوضاع الاقتصادية قد امتلكت فى كل مرة قوة الطرد التى دفعت وحركت موجات هذا الخروج العربى ٠

واذا كان هذا الخروج العربى من جزيرة العرب على هذا الدرب الاستيطانى ، قد حقق فى كل مرة شيئا له جدوى فى حسابات الاقتصاد العربى قبل الاسلام ، فان الذى تحقق بالفعل هو مردود سلبى بحت ٠ ومع ذلك اصطنع هذا المردود السلبى شكلا مناسبا من اشكال الانتصار ٠ والانتصار الذى نعنيه ونقدر جدواه بالضبط ، هو اضافة لحساب حركة الحياة فى جزيرة العرب ، وهو انجاز أوقف الضغط المؤثر على سلامة الاقتصاد العربى قبل الاسلام ٠ بل قل - بكل الثقة - أنه هو الذى حسم كل ضغط أدى اليه التمادى فى الجفاف أو الزيادة فى الطلب واعاد التوازن الغذائى الى الوضع الاقتصادى الأنسب ٠ وتكرار هذا الخروج العربى فى طلب الأرض ، هو مسيرة انتصار توالى حصاده وتعاقبت ثمراته على نفس الدرب ٠

واذا كان هذا الخروج العربى من جزيرة العرب على هذا الدرب الاستيطانى ، قد حقق فى كل مرة شيئا له جدوى فى حسابات حركة الحياة فى المهجر قبل الاسلام ، فان الذى تحقق بالفعل هو مردود ايجابى خالص ٠ ولقد اصطنع هذا المردود الايجابى شكلا رائعا ومثيرا من أشكال الانتصار ٠ والانتصار الذى نعنيه ونقدر جدواه بالضبط ، هو قمة الدعم وفاعلية التأمين الذى رسخ استيطان الحضور العربى وشد أزره على صعيد المهجر ٠ بل قل

- بكل اليقين - انه الانتصار الأعظم الذى رسخه ومكن له التكرار ، حتى جهز وأعد للاقتحام الاستيطانى العربى بعد ظهور الاسلام • وأتم الخروج العربى بعد ظهور الاسلام ، ابعاد هذا الانتصار الذى تفتحت اتجاهاته العالمية •

ويبقى بعد ذلك كله ، أن نوغل بكل الرفق فى تقصى أبعاد وحقائق وانجازات ، قد أسفرت عنها جدوى هذا الاستيطان العربى المنتشر فى أنحـاء المهجر قبل الاسلام • وعندئذ نتبين مردودات هذه الجدوى سلبا وايجابا ومدى تأثيرها الحقيقى على حركة الحياة فى جزيرة العرب على وجه العموم ، ومدى تأثيرها الواقعى على بنية الاقتصاد العربى قبل الاسلام على وجه الخصوص • وهذا معناه بالضرورة أن نتبين بوضوح :

١ - العلاقات وقنوات الاتصال المباشر أو غير المباشر بين مصالـــح الحضور العربى فى جزيرة العرب ، ومصالح الحضور العربى المغترب فى المهجر • وقد تعنينا بالدرجة الأولى من هذه المصالح الجوانب الاقتصادية •

٢ - مبلغ حسن أو سوء توظيف هذه العلاقات ومردوداتها السلبيـة والايجابية فى شأن الواقع الاقتصادى العربى ومصالح الحضور العربى قبل الاسلام فيـه •

وصحيح أن موجبات وحصافة الاستيطان العربى ، قد تلمست كل أسباب ومبررات التداخل والانصهار فى البناء البشرى ، على صعيد واسع فى أنحاء المهجر من أجل التعايش ، حتى بلغ الأمر مبلغ الذوبان فى سبيكة أو توليفـة هذا البناء • وصحيح أن هذا الذوبان والانخراط فى هذه السبيكة البشرية قد حال دون العودة - وهو أمر غير مطلوب بالفعل - أو ثبت الاستيطان العربى تثبيتا واقعيا • وصحيح أيضا أن هذا الوضع قد أدى الى شكل من الأشكال التى استدبر بموجبه الاستيطان العربى ، الأرض والناس فى جزيرة العرب • ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو :

١ - أن هذا الاستدبار هو أمر ظاهرى بحت ، وأن ثمة علاقات أو صلات قد نشأت ، وكان ينبغى أن تنشأ بين الاستيطان العربى فى المهجر والوجود العربى فى جزيرة العرب •

٢ - أن عدم العودة والتمادى فى تثبيت ركائز الاستيطان العـــربى قد أبقى وحافظ على هذه العلاقات ، التى وظفها الاقتصاد توظيفا مناسبـا لمصلحة الأطراف المعنية •

٣ ــ أن توظيف هذه العلاقات التوظيف المناسب لحساب الأطراف المعنية قد كفل شكلا من أشكال وحدة الهدف الاقتصادى على المدى الطويل قبل الاسلام ٠

وهذا المعنى الذى أجاز استشعار مبلغ انقطاع الأصل فى جزيرة العرب عن الفرع فى المهجر ، غير صحيح بالفعل ٠ وصحيح أن هذا الفرع قد تفرغ فى المهجر وانكب على اجتهاده الاقتصادى وعمل كل مافى وسعه لتأمين وجوده وحركة حياته ٠ ولكن المؤكد أن هذا الانقطاع لم يمتد فى كنهه وجوهره السليم الى حد التفريط فى علاقاته مع الاصل فى جزيرة العرب ٠ ولقد خدمت هذه العلاقات بشكل أو بآخر الهدف الاقتصادى المشترك ، وأمنته وأبقت عليه ، لحساب الأطراف المعنية بهذا الهدف ٠ وحتى لو لم نعثر على الدليل المادى الذى نكشف بموجبه عن حقيقة وأبعاد هذه العلاقات ، فان الاشتراك فى الهدف الاقتصادى هو الذى استوجب هذه العلاقات وأوحى بها ٠

ومن غير أن نعرض بهذا الخروج العربى الاستيطانى ، ومن غير أن نكترث ابدا بسلبيات هذا الرحيل ومغادرة الديار ، وهى التى تمثلت فى انقطاع الاصل عن الفرع بعد انصهار الاستيطان وذوبانه ، أو تمثلت فى افتقاد أصلب عناصر قوة العمل وحرمان الاجتهاد الاقتصادى فى جزيرةالعرب منها ، يجب أن نركز على جدوى هذا الرحيل وانتشاره الاستيطانى ٠ بل قل أن حسابات الجدوى قد أيدت استحقاق هذا الرحيل الاستيطانى الثناء والتقدير على المدى الطويل قبل الاسلام ٠ ولماذا لا يستحق هذا الثناء وهو الذى افاد بقصد أو من غير قصد الاقتصاد العربى فى جزيرة العرب ؟

وسواء كانت المصالح المشتركة بين الاستيطان العربى فى المهجر(٢٤)

---

(٢٤) الفينيقيون نموذج جيد من نماذج هذا الخروج العربى الذى عاش تجربة الاستيطان ٠ ويمثل هذا الخروج النازح فى طلب الأرض هجرة قديمة ٠ ويرى البعض انها نزحت من بابل الى مواطن استيطانها ٠ بمعنى انها تسللت أصلا من جزيرة العرب الى بابل ٠ واتجهت من بابل فى مرحلة تسلل تالية الى الموطن الذى احتواها على ساحل الشام ٠ ويرى البعض الآخر انها نزحت من جزيرة العرب مباشرة ٠ بمعنى انها هجرة انتقلت انتقالا مباشراً من موطنها فى جزيرة العرب بموجب عوامل الطرد الى مواطن استيطانها فى ظهير ساحل الشام على البحر المتوسط ٠ وأقدم آثار صورت قيام امارات الحضور الاستيطانى الفينيقى وهى ترجع الى حوالى الألف الثانية قبل الميلاد أو فى حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد على وجه التحديد ٠ وتظهر المراجع والبحوث كيفية الانصهار والتداخل السلالى من خلال المصاهرة والاختلاط مع عناصر محلية وعناصر

والوجود العربي في جزيرة العرب في الهدف الاقتصادى قد أوجدت العلاقة والصلة بينهما ، أو كانت العلاقة والصلة بينهما قد حققت وأبقت على المصالح المشتركة في الهدف الاقتصادى ، فان اتجاه هذين الطرفين الى تبنى المصالح لحساب العلاقة أو الى تبنى العلاقة لحساب الهدف ، هو التعبير الحقيقى عن كل ايجابيات وفعاليات هذه الجدوى في نهاية الأمر • ومن شأن هذه الايجابيات أن تجسد قيمة المردود الفعلى ، الذى أثر بشكل أو بآخر ، فى حركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام •

والمصالح المشتركة التى أبقت على هذه العلاقة ، أو التى أبقت عليها العلاقة ، علمت الأطراف المعنية ، كيف تصطنع وتصون وتطور قنوات الاتصال بين الاجتهاد الاقتصادى والحركة الاقتصادية • بل لقد وظفت هذه العلاقة والاتصال ، فى جنى ثمرات الاهتمام المشترك والهدف المشترك لحساب الطرفين المعنين فى جزيرة العرب وفى المهجر • وجعل هذا الاهتمام الاقتصادى المشترك الطرفان شريكين منتفعين فى شأن التعامل التجارى والوساطة التجارية ومرور التجارة ، بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط •

وافدة من جزر ومستوطنات فى البحر المتوسط الشرقى • بمعنى أن أولئك الذين عرفوا بالفينيقين هم خلاصة أو سبيكة هذا الانصهار المؤلف من الاستيطان العربى والعناصر المحلية والاستيطان الوافد من جزر البحر المتوسط • ومع ذلك لابد أن تكون الهجرات العربية النازحة قد جاءت فى وقت أقدم من تاريخ قيام امارات الحضور الفينيقى ، وأن تكون قرونا كثيرة قد مضت قبل أن يتداخل وينصهر المهاجرون فى نسيج هذة البنية البشرية الفينيقية فى ظهير الساحل الشامى • والواضح أنهم قد جسدوا معنى الاستيطان وحيازة الأرض ، وأنهم جسدوا أيضا معنى الانصهار فى البناء البشرى • بل يمكن أن يذهب الادراك الى أبعد من ذلك ، لنجد أنهم قد تبنوا بعد هذا الإنصهار والتعايش اتجاه الناس الذين انصهروا فيهم • ومن ثم تعاملوا فى التجارة مع عالم البحر المتوسط • ولقد جسد هذا التعامل معنى اشتراك الحضور الاستيطانى على صعيد هذا المهجر فى هدف واحد اقتصادى مع الوجود العربى فى جزيرة العرب • وهم من غير شك حلقة من حلقات الوساطة التجارية بين عالم البحر المتوسط وعالم المحيط الهندى •

راجع : أ -

Scott Kelti, J. & Howorth, OJ. R. : History of Geography, London 1913.

ب -

Galab, M.S. : Development of Settlement in the Syro-Lebanese Coast. Bull. de la Soc. Geog. d'Egypte. TXXXIII 1969 pp. 8 - 94.

جـ - فرجريف جيمس : الجغرافية والسيادة العالمية (ترجمة الانصارى) الألف كتاب رقم ٩٦ - القاهرة سنة ١٩٥٦ •

د - شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى ط ١ - القاهرة سنة ١٩٦٩ •

هـ - صلاح الدين الشامى : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ط ٢ - الاسكندرية سنة ١٩٨٠ •

وفى اطار هذه المشاركة بين الأطراف المعنية فى محصلة ومردود وجدوى الهدف الواحد ، يمكن أن ندرك الكيفية التى أنجزت هذا الهدف • ولقد تمثل هذا الاسهام فى :

١ — تولى الاستيطان العربى الذى رسخه التداخل والاتصهار فى صلب البناء البشرى فى الشام على وجه الخصوص ، مسئولية حسن توظيف وحسن استثمار قيمة المكان أو الموقع الجغرافى القيم عند تقاطعات الطرق والدروب بين الخليج العربى وجزيرة العرب من ناحية والبحر المتوسط من ناحية أخرى • وحسن استثمار الموقع الجغرافى معناه الحضور الحاكم أو المهيمن على حركة المرور ونقل التجارة • ومعناه أيضا انجاز مهام اشترك بموجبها فى عمليات الوساطة التجارية على صعيد أوسع مدى للتجارة الدولية بين الشرق والغرب • ولقد أسفر هذا الانجاز عن نمو وتنشيط مدن الأسواق فى الشام التى ناظرت مدن الأسواق فى جزيرة العرب • واستثمر الاستيطان العربى فى هذه المدن التحرك التجارى على الطرق البرية فى بادية الشام • كما وظف الاستيطان العربى البدوى فى حراسة حركة المرور ونقل السلع على هذه الطرق •

٢ — تولى الوجود العربى المقيم فى جزيرة العرب مسئولية توظيف وتمويل واستثمار الابحار العربى المغامر فى المحيط الهندى • كما تولى مسئولية توظيف واستثمار قيمة المكان والموقع الجغرافى لمدن الأسواق على جسر العبور التجارى البرى بين المحيط الهندى والبحر المتوسط • وحسن استثمار هذه الموقع الجغرافى معناه الآداء الحاكم والمتحكم فى حركة المرور ونقل التجارة على الطرق والدروب • ومعناه أيضا انجاز مهمة استكملت ابعاد الوساطة التجارية فى عالم المحيط الهندى • وأسفر هذا الانجاز النشيط عن نمو وتنشيط مدن الاسواق فى جزيرة العرب • وتمادى تحالف التجاريين فى مدن الأسواق فى توظيف كل الأطراف المعنية بالوساطة التجارية توظيفا أعلى شأنهم الاقتصادى الخاص وقوى القبضة التى هيمنوا بها على حركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام •

وهكذا اشترك الطرفان كل فى موقعه بقصد الإنتفاع الاقتصادى فى انجاز مهمة اقتصادية واحدة • وتولى كل شريك منهما كل فيما يخصه ،حراسة التحرك التجارى المستمر وتأمين مرور القوافل فى اطار الأرض وعلى الدروب والمسالك التى هيمن حضوره اليقظ المتفتح عليها • بل قل بكل الثقة أن كل طرف من هذين الطرفين المعنيين ، قد عرف جيدا دوره وحصته وعرف أيضا كيف

يوظف حضوره اليقظ ووساطته في الأرض التي اجاد استثمار موقعها الجغرافي وقيمته الحاكمة ٠

وصحيح أن هذا الانجاز الهادف الذى دعت اليه المصالح المشتركة فى المهمة الاقتصادية الواحدة ، قد اصطنع من هذين الطرفين الشريكين المعنين جبهة واحدة ، واقتسما معا المردود الاقتصادى والحضارى ٠ وصحيح أيضا أن شركاء هذه الجبهة الواحدة (جبهة التجاريين) قد أمسكوا بزمام حركة مرور القوافل وتجارة العبور المنتظم ، واشتركوا فى تنمية الوساطة والتعامل بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ٠ ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن المردود الاقتصادى والحضارى الذى أسفرت عنه هذه المشاركة قد حولت الأمر الى شكل من أشكال الهيمنة الحقيقية على حركة التجارة الدولية ٠ ولقد رسخت هذه الهيمنة مكانة كل شريك فى موقعه فى جزيرة العرب أو فى الشام ٠ بل قوت قبضة هيمنته وسيطرته على حركة الاقتصاد التى اختص بها وأمسك بكل خيوطها ٠

بهذا المنطق ، يمكن بيان وتمحيص جدوى هذه المشاركة التى فرضت نفسها بين الوجود العربى فى جزيرة العرب والاستيطان العربى المغترب فى المهجر ٠ كما يمكن ادراك وتقويم مردود هذه الجدوى على البناء الاقتصادى العربى فى جزيرة العرب ، وهى جسر العبور البرى للتجارة وتحركاتها الآمنة المستمرة بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ٠ ولقد تمثل هذا المردود بشكل أو بآخر فى :

١ ـ نمو الأسواق واتساع العمران فى المدن التى احتوت هذه الأسواق ٠ بل لقد خلعت عن بعضها صفة العمل التجارى على الصعيد المحلى المحدود ، وألبستها ثوب العمل التجارى الموسع على المستوى العالمى ، فى شكل من أشكال التجارة الدولية ٠ وباتت هذه المدن ذات شهرة عالمية ومكانة مرموقة ٠

٢ ـ دعم وترشيد وتصعيد مكانة وقدرات وخبرات ومهارات واستثمارات الاستقرار التجارى المقيم فى هذا النمط من مدن الأسواق ٠ بل لقد توجه فريق التجار الى أقصى عناية واهتمام بالتعامل التجارى الدولى ٠ واصطنعوا من اهتمامهم ومكانتهم التى تنعموا بها عزا وثروة وبذخا ، تحالفا قويا سيطر على حركة الاقتصاد ٠

ويمكن أن نذكر ـ بكل اليقين ـ أن قبضة وسيطرة هذا التحالف القوى

فى مواقع هذه المدن الأسواق على صعيد جزيرة العرب قد اشتدت وتشددت الى حد بعيد · بل لقد تعالت كلمة هذه النخبة المسموعة وازدادت هيمنتهم على حركة الحياة ، ليس فى مدن الأسواق وعلى مستوى التعامل التجـــارى والمصالح الاقتصادية فقط ، ولكن على كل قنوات ومصالح حركة الحياة فى أوسع صعيد عربى قبل الاسلام ، وبدلا من أن كانت التجارة وارباحها على المستوى المحلى المحدود قد حققت لهم التنعم وكفلت أسباب الترف ، أصبحت سيطرتهم على مرور التجارة والتعامل على المستوى الدولى منطلقا أكيـــدا لهيمنتهم فى جزيرة العرب قبل الاسلام ·

وهكذا بلغ أمر هذه السيطرة حدا كفل بالفعل هيمنة وتسلط النخبـة العربية المرموقة من التجار (تحالف التجارين) على حركة الحياة فى ربوع جزيرة العرب · ومن ثم كفلت الهيمنة لهذه النخبة الريادة والقيادة والتوجيه وهى بالضبط ما تعنيه بالكلمة المسموعة أو الكلمة العليا فى شأن :

١ ـ صياغة التوليفة التى ابتنى الاجتهاد العربى بموجبها التركيب الهيكلى للاقتصاد العربى قبل الاسلام ·

٢ ـ اصطناع وترسيخ القواعد والأسس والتقاليد والاعراف التى جسدت فى اطارها النظام الاقتصادى وضوابطه الحاكمة قبل الاسلام ·

•• •• ••

ومهما يكن من أمر هذا الخروج العربى النازح من جزيرة العرب ، الذى تمادى فى طلب الأرض والاستيطان فى المهجر ، وفرط فى الموطن والديار وهجرها وانغمس فى التداخل والانصهار فى ربوع الاستيطان ، فلا ينبغى أن ننكر عليه حقه فى ذلك كله وهو طالب التعايش قبل العيش · بل لا ينبغى أن نستنكر دوره الوظيفى البناء فى ربوع المهجر ولا أن ننكر كيف أثرت مردوداته الحيوية على أبعاد الواقع الاقتصادى ، الذى انكبت البداوة والاستقرار على تجسيده ، فى اطار جزيرة العرب قبل الاسلام ·

وصحيح أن الاستيطان العربى قد اصطنع هذا التأثير الهام أو الحيوى من غير قصد الزمه أو التزم به قبل الوجود العربى فى جزيرة العرب ، وهو بصدد استثمار قيمة المكان الجغرافى الذى نزح اليه وتداخل فى بنية كـل أولئك الذين عايشهم فى المهجر · ولكن الصحيح أيضا بل المؤكد أن حقه

فى جدوى أو فى قيمة أو فى فاعلية هذا التأثير ومردوداته الحيوية غير المتعمدة، لا ينبغى أن يقلل عدم التعمد من شأنها • بل قل - بكل الثقة - انه صاحب حق حقيقى لا يقل أبدا عن حق آخر اصطنعه الاستيطان العربى فى المهجر واستحق عليه الثناء • ونعنى بذلك التجهيز والاعداد غير المتعمد أيضـــا لاستقبال الاقتحام الاسلامى بعد وقت قصير من ظهور الاسلام •

واذا كان الخروج العربى النازح فى طلب الأرض والاستيطان قـــد اصطنع ما استحق عليه الثناء • فان الخروج العربى على الدرب الآخر فى طلب الرزق قد نال الثناء بكل الحق والجدارة ، لأنه تعمد دعم الوجود العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام • والفرق كبير بين خروج اصطنع ما اصطنعه وانتفع به الاقتصاد العربى فى جزيرة العرب قبـل الاسلام على غير قصد منه ودون تعمد وخروج آخر تعمد واصطنع بكل القصد الدعم الذى ترقبه وانتفع به الاقتصاد العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام •

•• •• ••

الخروج العربى فى طلب الرزق (الاتجار) :

هذا هو الخروج العربى على الدرب الآخر الذى غادر جزيرة العرب وترك الوطن والديار مغادرة المكره أو المضطر • ولقد تجلى مفهوم هذا الخروج العربى المضطر وهو الذى أفلت وتملص من ضغوط التحدى المناخى ، وأكرهته حالات عدم التوازن الغذائى والتخوف من الجوع وهبوط مستوى المعيشة الى حد دون الكفاف • وما من شك فى أن مغادرة هذا الخروج العربى المكره وترك الديار والرحيل عن الأهل والوطن ، قد استهدفت وطلبت وألحت وثابرت فى طلب الرزق أكثر من أى شىء آخر •

وصحيح أن الاضطرار كان أمرا مقضيا ، التزم به هذا الخروج التزام من طلب الرزق وسعى وثابر واجتهد من غير كلل • وصحيح أيضا أن الاكراه كان قدرا مكتوبا ، التزم به هذا الاغتراب وتحمل لوعته ومتاعبه الماديـــة والمعنوية • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الاكراه والاضطرار لم يلزم الخروج العربى فى طلب الرزق باتجاه معين •

وهذا معناه أن هذا الخروج هو خروج المضطر الذى امتلك فى نفس الوقت حق اختيار الطريق والاتجاه والسعى فى طلب الرزق • ويبدو أن هذا الاختيار لم يجد أمامه أفضل من اتجاه هذا الخروج اتجاها مغامرا الى

البحر . ولقد وظف هذا الابحار المغامر فى طلب وتحصيل هذا الرزق الذى تجشم عناء الخروج من أجله .

وهذا الاختيار الذى نشأ بموجبه هذا الابحار المغامر فى عرض البحر كان فى وقت مبكر . وصحيح أن البحر الاحمر كان من البحار الخطرة ،ولكن لابد أن هذا الابحار قد اكتسب الخبرة فى أحضان هذا الخطر . واكتساب هذه الخبرة سواء تمثلت فى صناعة السفينة وتجهيزها أو تمثلت فى التعامل مع البحر مسألة ملحة لأنها هى وحدها التى أسعفت الاقتحام المغامر فى عرض البحر أو المحيط .

وقد لا نملك الدليل المادى أو الأثر المكتوب أو النقش الأثرى الذى نلتزم به ونعتمد عليه فى شأن تحديد نقطة بداية . وقد لا نعرف كيف حدثت هذه البداية بالضبط عندما استوجب الأمر ودعت الحاجة الى توظيف هذه الممارسة الحضارية الفعالة فى عرض البحر . وما من شك فى أن قدرا كبيرا من التكتم قد أحاط الابحار المغامة بكل الغموض(٢٥) . بل لقد استغرق هذا التكتم فى كل أسباب التمويه والاخفاء . وهذا هو فى اعتقادى المبرر الأهم الذى أخفى عن البحث العلمى التحديد الزمنى الصحيح لهذه البداية .

ومع ذلك ، يجب أن نخترق حواجز الغموض التى افتعلها التكتم لكى نتصور بداية مبكرة لهذا الخروج المغامر فى عرض البحر . وما من شك فى أنها البداية التى بكرت كثيرا قبل قيام دول وحكومات جسدت النضج الحضارى السياسى فى الجنوب العربى . بل قل يجب أن نتصور أن هذه البداية وقد سبقت بوقت طويل الاقتحام غير العربى للبحار الجنوبية ، واقدام الابحار الرومانى على ارتياد المحيط الهندى(٢٦) .

---

(٢٥) اقرأ عن مغزى هذا التكتم وأساليبه فى :

صلاح الدين الشامى : الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية (الملحق الأول فى هذا الكتاب) .

صلاح الدين الشامى : الرحلة عين الجغرافية المبصرة فى الدراسة الميدانية — الاسكندرية ١٩٨٢

صلاح الدين الشامى : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة — الاسكندرية ١٩٨٠.

(٢٦) بدأ هذا الاقدام الرومانى فى وقت متأخر ، بعد أن نجح هيبالوس فى الوقوف على سر استخدام الرياح الموسمية للوصول الى الهند . وكان ذلك فى حوالى ٥٠ ميلادية . وهو الذى حدد خط السير البحرى الى الهند الذى عرف باسم ممر هيبالوس .

راجع : شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى جـ ١ ط ١ ، ١٩٦٩ ص ٤٤٣ .

Sharaf, A.T. : A Short Hictory of Geographical Discoveries, Cairo, 1963.

هذا ، ولا تثريب على البحث لو تصور هذه البداية المبكرة فى حوالى الألف الثانية قبل الميلاد(٢٧) ٠ ولقد اتفق أكثر من باحث على أن جاليات عربية كانت تعيش فى المنطقة الأفريقية الشرقية بين نهرى زمبيزى ولمبوبو منذ الألف الثانية قبل الميلاد (٢٨) ٠ وتمادى هذا الاتفاق بين زمرة الباحثين الى حد جسد استمرار العلاقة التى صورت هذه البداية المبكرة للاقتحام العربى المغامر الذى وظف الابحار للوصول الى الصعيد الأفريقى(٢٩) ٠

وينبغى أن نثق فى تطلعات هذا الخروج العربى المغامر ، وهو الذى تكتم اخبار السفر والرحيل فى البحر تكتما صارما ومتعمدا ، لكى يتجنب المنافسة ويحرمها تماما من وضوح الرؤية ٠ بل لقد تمادى هذا الابحار المغامر فى التكتم الى حد توظيف الأساطير والخيال الاسطورى فى اخفاء وطمس الحقائق عن المهجر ٠ وتعمد هذا التوظيف أحيانا اشاعة الفزع والارهاب والتخويف وصولا الى الغاية التى اصطنع بموجبها هذا التمويه والتضليل(٣٠) ٠

---

(٢٧) هذا التحديد فيه قدر كبير من الاعتماد على التخمين ٠ ومع ذلك هناك دلالات عن الصلات أو العلاقات العربية الافريقية قد أسعفت هذا التخمين ٠ ولقد تمثت هذه الدلالات فى التشابه الثقافى منذ العصر الحجرى القديم ٠

راجع : أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها — القاهرة ١٩٥٧ ٠

محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ط الرياض ١٩٧٧ ٠

Thompson, G.C.Y Gardiner, E.W. : Climate, Irrigation and Early man in Hadharmaut, G.I. 93 1939.

Huzayyin, S.A.S. : Nature Vol. XI, 1937.

(٢٨) أكد كارل بيترز هذا الأمر ومعنى تأكيده أن وصول هذه الجالية التى هى نواة من الاغتراب العربى هو أن الابحار العربى قد حمل هذه الجالية وأسكنها لكى تؤمن له رأس الجسر وتؤمن تحركه فى الذهاب وفى الاياب ٠

راجع : أ — فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة د٠ يعقوب بكر)٠

ب — Carl Peters : The Eldorodo of the Ancient

(٢٩) استمرار العلاقة أمر ينبغى أن نؤكده ، بمعنى أن العلاقة بدأت ثم استمرت استمرارا يصور كيف أسعف الابحار العربى المغامر هذا الاستمرار ٠ وهناك دلالات توحى بل تؤكد هذا الاستمرار ٠

راجع : صلاح الدين الشامى : الموانى السودانية ، الألف كتاب ، ١٩٦١

ب — Moscati Sl : Ancient Semitic Civilization London 1957.

جـ — محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة : مجلة كلية اللغة العربية — الرياض ١٩٧٦

(٣٠) فى شأن التضليل والتمويه ومبلغ لزومه لحساب التكتم ، نذكر أنه هو الذى أدى الى ترسيخ الشائعات الضالة التى صورت وتمادت فى انكار واستنكار العلاقة بين العرب

والابحار في عرض البحر والاقتحام العربي المغامر في المحيط الهندي ، قد تولى أمره بعض الحضور العربي من أهل الاستقرار في الجنوب العربي • ويبدو أن وجودهم في الظهير المباشر للمسطح المائي قد شد انتباههم الى البحر • وأتاح التعامل مع البحر شكلا من أشكال التعود على الخروج الى البحر والتعامل معه تعاملا اكسبهم المهارات في ركوب البحر • بل لقد رسخ هذا التعامل العلاقة مع البحر وكيفية توظيفه في طلب الرزق •

وهذا التعامل الذي جهز واعد للتمادي في الابحار ورسخ الألفة بينه وبين البحر ، هو الذي شجع وحفز الاتجاه الجريء لاقتحام عرض البحر والابتعاد عن الساحل • ومع مرور الوقت كان هذا الاسهام المغامر الجسور الذي اكتسب صفة الاثارة واستحق الثناء والاعجاب(٣١) • ومع ذلك يجب أن ندرك مبلغ حاجة هذا الابحار المغامر أو هذا الاسهام الجسور الى اسهام الاستثمار الذي مول وحفز هذا الابحار العربي المغامر ووظفه في طلب الرزق وكفل نجاحه في هذا الآداء الوظيفي •

وسواء تمثل هذا الاستثمار الذي تبنى هذا الخروج العربي المغامر في صناعة وتجهيز السفينة تجهيزا مناسبا للابحار في عرض البحر ، أو تمثل في توظيف هذه السفينة توظيفا ناجحا لانجاز الهدف الاقتصادي ، فانه قد انتخب المغامر وأغراه ووظفه وحفزه لكي يقبل بالمخاطرة ويقدم على هذا الآداء الوظيفي • وهذا معناه أن هذا الخروج العربي المغامر قد أسفر عنه شكل من أشكال الاختيار ، لكي ينجح الابحار • بل معناه أيضا أن الاستثمار

والبحر • ودون ما حاجة لتفنيد هذا الزعم ، يجب أن نستشعر مبلغ نجاح التمويه والتضليل والتكتم • ويبدو أن الأخذ بمنطق هذا التكتم قد أدت اليه مبررات الخوف من المنافسة • ولقد أطلت هذه المنافسة بعد استشعار جسارة الابحار غير العربي في البحر الأحمر اعتبارا من بداية الاجتهاد البحري المصري الذي تلمس الوصول الى بلاد تبت والحصول على سلع ومنتجات لحساب المدنية المصرية العريقة أرضت اتجاهات الاعتقاد الديني على وجه الخصوص •

راجع في شأن هذا الزعم وترويج الشائعات عن العرب واستدبار البحر :

حسن صالح شهاب : فن الملاحة عند العرب (منشورات مركز الدراسات اليمنية) ، بيروت ١٩٨١ •

(٣١) في وقت لاحق لبداية هذه الممارسة الحضارية البحرية وبعد عشرات القرون ، استحق هذا الابحار أن يزهو به العرب في شعرهم وهو سجل هام حدث عن بعض جوانب مثيرة في حركة حياتهم • ولقد سجل عمرو بن كلثوم جسارة هذا الابحار في قوله :

ملأنا البحر حتى ضاق عنا وموج البحر نملؤه سفينا

العربى قد أحسن استثمار الاضطرار والاكراه ، الذى ألزم الخروج العربى بطلب الرزق ، فى اختيار عناصر هذا الابحار المغامر وتوظيف خبراتهم وجسارتهم(٣٢) ٠

وصحيح أن استثمار هذا الاضطرار فى التمويل وفى الاختيار وفى التوظيف الذى أنجز هذا الاقتحام البحرى المغامر قد وجه هذا الخروج العربى الباحث عن الرزق ٠ وصحيح أن هذا الخروج العربى المغامر ، قد سجل جسارته ونشاطه وخفة تحركاته العاملة فى مسالك بحرية وعرة ومخيفة فى عرض المحيط الهندى ٠ ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن توظيف هذه الجسارة المغامرة وحسن آدائها الوظيفى فى عرض المحيط لم يفلح فى انجاز الهدف من غير معرفة جغرافية بالمحيط وخبرة باتجاهات الريح ومهارة فى توجيه الابحار والسيطرة على السفينة ٠

وهذه هى العوامل التى اجتمعت وأمسك الابحار العربى المغامر بزمامها، ووجهت التحرك البحرى العربى فى الاتجاه الصحيح ٠ ومن الجائز أن هذا الابحار قد وصل الى ذلك بعد أن غامر وضرب فى المجهول فى مرحلة سابقة ولكن المؤكد أنه وظف الخبرة والمهارة توظيفا انتصر بموجبه ومن غير أن يتخبط أو يضل فى غياهب المحيط المجهول ٠ والحقيقة التى اعلنت عن نفسها ولا ينبغى انكارها أو استنكارها هى حقيقة التوفيق والنجاح فى آداء المهمة وبلوغ الغاية ، وجنى ثمرات التوظيف الذى استثمر مهارات الخروج العربى فى طلب الرزق ٠

هذا ولقد أسفر هذا الخروج العربى وهو مغامر الى أقصى حد وموفق غاية التوفيق عن أمرين هامين ٠ ومن شأن هذان الامران القاء الأضواء على حتمية الخروج وجدية آدائه ٠ وهذان الامران هما :

١ ـ ابحار الخروج العربى المنتخب الذى غامر وخاطر وأبحر فى عرض المحيط الهندى بعد أن احاط علما بجغرافيته ، كان ابحارا هادفا ٠ ولأن الهدف كان اقتصاديا فلقد تكتم المعرفة الجغرافية عن المحيط واخفى اخبار الابحار ،

---

(٣٢) صلاح الدين الشامى : الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية (ملحق رقم ١ فى هذا الكتاب) ٠

صلاح الدين الشامى : الرحلة عين الجغرافية المبصرة ط ١ الاسكندرية ١٩٨٢ ٠

حتى تفرد وتجنب المنافسة واجتهادات المنافسين كليا على مدى فترة زمنيــة طويلة ، قبل الميلاد ٠

٢ — جدية هذا الابحار العربى المغامر فى عرض المحيط الهندى وجدواه التى جسدت معنى ومغزى الابحار الهادف ٠ ولأن الهدف كان اقتصاديا ، فلقد تمرس فى طلب الرزق وتفنن فى التعامل التجــــارى والاشتــغال لحساب الاستثمار العربى فى جزيرة العرب فى دور الوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط(٣٣) ٠

وما من شك فى أن جدية هذا الابحار المغامر وجدواه الاقتصادية ، قد اقتضت نشأة صناعة السفن وتخصص بعض الخبرات الماهرة فى تجــهيز واعداد هذه السفن ٠ بل ربما اتخذ هذا التصنيع شكلا مبكرا من أشكال الترسانات البحرية على شواطىء بعض المرافىء الطبيعية ، على الساحــــل العربى(٣٤) ٠ والمؤكد أن الاستثمارات العربية قد تبنت هذه الصناعة ومولت اعداد السفن الاعداد الأنسب لاقتحام المحيط اقتحاما جسورا ومطمئنا ،وتأمين سلامة الابحار العربى ، وهو سبيل الانجاز الفعلى وبلوغ الغاية من الرحـــلة البحرية التجارية التى فرغها وخصصها فى خدمة هذا النمط المبكر من التجارة الدولية ٠

وصحيح أن خروج الابحار العربى المغامر فى طلب الرزق وبلوغ الغاية الاقتصادية ، حتى لو ضمت السفينة زمرة من الرجال واستحقـــت الرحلة المغامرة تعاون الفريق الماهر ، كان خروجا فرديا ٠ ولا يعنى هذا الخروج الفردى شيئا أهم من خروج الفرد وحده وقد ترك الأهل والأرض والولد ٠ ومع ذلك فهو لا يعنى التفريط فى الأهل والأرض والولد ولا ينتهك العلاقة

---

(٣٣) يذكر د٠ سليمان حزين أن قوة دفع الجفاف فى الجنوب العربى قد حفز هذا الخروج وأن الطلب الحضارى على التوابل والبخور فى مدنيات البحر المتوسط ، قد حفز ونشط الاتجار فى هذه السلع وجلبها من عالم المحيط الهندى
Huzayyin, S.A.S. : Arabia and The Far East, Cairo, 1942

(٣٤) ضم شعر طرفة بن العبد وفى صلب معلقته بالذات أبياتا من الشعر الذى لا يضلل فى شأن الاعتزاز بصناعة السفن والافتخار بها أو فى شأن الاشادة بالخبرة والمهارة فى انتاج ترسانة صناعة السفن فى عدول Adulis وهى التى كانت فى موقع قريب من مصوع الحالية على ساحل أريتريا ٠

عدولية أو من سفين ابن يامن — يجور بهــا الملاح طورا ويهتدى

بين من خرج وهو مغامر ومن لم يخرج وجلس فى انتظار الغائب عن الوجـود العربى فى جزيرة العرب ٠

وصحيح أيضا أن هذا الخروج العربى المكافح الذى أكره عليه البعض، قد خضع الاكراه عليه لمنطق وموجبات عوامل الطرد من جانب ولمنطـق وموجبات الاختيار الأنسب للكفاح والاستجابة لعوامل الجذب من جانب آخر ٠ ولكن الصحيح أو قل المؤكد أن انجاز وتشغيل واستثمار هذا الخروج المغامر، قد استوجب اشتراك الأفراد المنتخبين فى العمل والآداء الوظيفى الجماعى ٠ بل قل أن نجاح هذا الآداء قد استوجب حسن تنسيق هذا العمل الجماعى ٠ ولقد تمثل هذا التنسيق فى الاطار الذى جمع بين :

١ – الاستثمار العربى وهو اسهام قدمه فريق التجار أو تحـالف التجاريين ، وتولى مسئولية تمويل الرحلة وتجهيز السفن والحمولة أو الشحنة التى نقلتها كل سفرة ٠

٢ – المهارة العربية ، وهى اسهام قدمه العمل والاحتراف المهنى العملى، وعكف على تصنيع السفن واعدادها أو تجهيزها التجهيز الأنسب للاقـلاع فى عرض البحر(٣٥) ٠

٣ – المغامرة العربية ، وهو اسهام أقدم عليه نخبة الرجال الأشـداء وتولى مهمة ركوب السفن والتعامل مع البحر ، وخاض التجربة وأنجز المهمة وبلغ الغاية الاقتصادية ٠

وفى الوقت الذى أعطى فيه الاستثمار العربى وهو مقدم من كبار التجار فى مدن الأسواق ، حق توظيف وتمويل وتوجيه هذا الخروج العربى وابحاره، خاطر الرجل الملاح المغامر واقتحم البحر منفردا أو غامر فى معية نفر قليل مغامر من الرجال ٠ وسواء نال هذا الملاح المغامر حقه أجرا معلوما ومقطوعا ومتفق عليه نظير ابحاره أو حصل الملاح المغامر على حقه حصة متفق عليهـا من ثمرات وسلع العملية التجارية ، فان هذا الخروج الجسور هو الخروج الذى غامر فى طلب الرزق ٠ بل قل انه الخروج العربى الواثق من جدوى الابحار المغامر فى طلب الرزق ٠

---

(٣٥) جواد على : المرجع السابق جـ ٢ ط ١ ، ١٩٧١ من ص ٢٥٦ – ٢٥٩ ٠

والاشتراك بين الأطراف المعنية فى اطار العمل الجماعى الذى وظف هذا الابحار العربى المغامر ، واجتماع النفر الطموح المغامر من الرجال الأشـداء وابحارهم فى عرض البحر على ظهر سفينة واحدة وآداء دورهم الوظيفى الذى تخصص فى الوساطة التجارية(٣٦) وكفل الرزق الحلال الطيب ، لا يخل أبدا بمعنى هذا الخروج العربى الفردى ٠ والخروج الفردى هو بعينه الخروج أو الرحيل الذى استخف الرجل وحمله على الابحار المغامر فى طلب الرزق ٠ والا فكيف يمكن أن نفسر - فى مثل هذه الحالة - معنى تخلف النساء والأطفال وكبار السن عن السفر ؟ بل وكيف نفسر أيضا معنى عدم اقدام كل من افتقد فى نفسه روح المغامرة وأقعده التردد أو التخوف عن الاشتراك فى هـذا الابحار الخارج الى عرض البحر فى طلب الرزق ؟

وخروج من امتثل لعوامل الطرد وحفزته الحاجة فخرج الى عرض البحر، وتخلف من اقعدة التردد والخوف أو اعتمد على ثمرات خروج غيره فتخلف عن هذا الانجاز الجسور ، واسهام من امتلك مهارة حرفية أو مالا وفيرا وظفـة واسهم به فى تحريك هذا الخروج المفيد الهادف ، لا نقول جمع أو ألف بينهم الهدف أو الغاية الاقتصادية فقط ، بل نقول أن الهدف قد أبقى وحافظ على علاقات خصوصية بينهم جميعا ٠ بمعنى أن وحدة الهدف الاقتصادى قد كفلت وحدة المصلحة والعلاقات التى ترتبت عليها ، أو التى استوجبتها وأبقت عليها لحساب كل الأطراف المعنية ، فى الاطار المحلى الخاص ، وفى الاطار الاقليمى العـام ٠

وفضلا عن كون هذه العلاقات وثيقة ، ولا نتصور سببا معقولا يـبرر التفريط فيها أو التملص منها ، فانها قد جسدت دائما جدوى مردودات الابحار العربى المغامر الاقتصادية والحضارية ٠ بل لقد تخول الابحار بموجب هذه العلاقات الى رافد أمد وعاون واسعف وشد أزر الاقتصاد العربى قبل الاسلام٠ بل قل أن هذه العلاقات التى نعنيها ، هى العلاقة التى لا تضل ولا تضلل فى شأن تصوير مبلغ اصرار ومثابرة هذا الخروج العربى على الاغتراب ، ومبلغ حرصه فى نفس الوقت على العودة والاياب الى الوطن على صعيد جـزيرة العرب ٠

---

(٣٦) راجع الفصلين ٩٩ ، ١٠٠ من المجلد السابع من كتاب جواد على عن تاريخ العرب قبل الاسلام ٠ وما من شك فى أن هذه الوساطة لا تعنى غير بداية حقيقية فى شكل مبكر من التجارة الدولية ، فى اطار المعروف من الأرض وبين المدنيات المتحضرة ٠

وخروج من خرج وغامر فى طلب الرزق واغترب ، وعودة من عاد من الاغتراب والتحق بأهله ، أضفى شكلا خاصا على طبيعة هذا الخروج العربى(۳۷) • ولقد ميزت هذه الطبيعة بينه وبين الخروج العربى الذى طلب الأرض ، ومنعه الاستيطان والارتباط بالأرض والانصهار فى الناس من العودة، أو حتى التفكير فى مبررات كافية تدعوه الى العودة الى جزيرة العرب • وقلما الهى الاغتراب فريقا من أولئك المغتربين الذين خرجوا وقد تركوا من ورائهم أسرهم وذكريات كثيرة ما فرطوا قط فى استشعار الحنين اليها • وكأن هذا الخروج العربى الذى خاض تجربة الابحار المغامر والاغتراب كان خروجا مؤقتا ، واغترابا حمل فى وجدانه كل مبررات العودة والرجوع • بل قل انه الخروج الذى أسفرت عنه ضغوط الحاجة والحاحها واستخفته ودعت اليه الضرورة الاقتصادية • وقل أن الاياب قد استقطبته المسئولية والارتباط الأصيل بالأهل والولد ، أو شوق النفس وحنين الروح الى الوطن والبلد •

والرجوع من بعد الفراغ أو الانتهاء من انجاز المهمة وبلوغ الغاية الاقتصادية ونيل حظه منها ، أو الرجوع من بعد الملل والاستجابة الى الشوق والحنين الى الأهل والوطن ، أو الرجوع من بعد تقدم العمر وبلوغ مرحلة الاشباع المادى ، معناه من غير تردد أو تمييز أن هذا الخروج العربى الذى استخفه طلب الرزق كان اغترابا مؤقتا أكثر منه استيطانا فى مكان ما فى ربوع المهجر(۳۸) • وقلما كبلت بعض المتغيرات ارادة بعض المغتربين ، وربما فرضت هذه المتغيرات على نفر قليل من أفراد هذا الخروج العربى المغترب واضطرته رغم ارادته الى عدم العودة ، والاستيطان وهو حزين ومكره(۳۹) •

---

(۳۷) عندما تخلف بعض الأفراد فى مواقع منتخبة أقام فى ربوعها الحضور العربى المغترب ، بقى معظم هذا الحضور لبعض الوقت فقط • وفى الوقت المناسب حانت ساعة العودة لكل من طلب الرجوع الى الأهل والوطن • ولقد أصبحت هذه المواقع التى شهدت هذا الاغتراب المؤقت وشهدت وصول أفراد بدأ اغترابهم ورحيل أفراد انتهى اغترابهم وكأنها رأس الجسر الذى أمن التحرك الملاحى العربى وخدم أغراضه الاقتصادية • واتخذت هذه المواقع من حيث الشكل شبيهة النمط الاستعمارى الاستراتيجى الذى اصطنعته أوروبا بعد حركة الكشوف الجغرافية الكبرى ، لحساب السيطرة على حركة التجارة الدولية وتأمينها •

(۳۸) تزوج معظم الرجال فى المهجر • واقترن الرجل منهم بزوجة من أهل هذا المهجر• ولقد أنجبت الزوجات أطفالا وعلمتهم فى غيبة الأب لغتها الافريقية أو الآسيوية وافتقدوا اللسان العربى • ومع ذلك فان ذلك كله لم يثن الفرد العربى عن الحنين والتشبث بارادة الرجوع والعودة •

(۳۹) عاد كثير من أفراد هذا الحضور العربى فى الوقت الذى وجده مناسبا للرجوع • ولقد خلف من ورائه ذرية ونسلا مع الأمهات الافريقيات والآسيويات • وماشفعت الدماء العربية لهذه

وفى حسابات من خرج مغامرا وأبحر فى عرض البحر ، وتعامل مع عالم المحيط الهندى ومدنياته ، وفى حسابات من اغترب واقام لبعض الوقت عند رأس جسر فى مواقع منتخبة فى عالم المحيط الهندى ، وفى حسابات من تخلف عن الخروج أصلا ، وافتقد القدرة أو الحوافز على الابحار المغامـــر فى المحيط الهندى ، فى حسابات هؤلاء جميعا اهتمام شديد بهذا الخـروج فى طلب الرزق • بل عاش جميعهم فى ترقب قلق أو فى تطلع مثابر الى ثمرات هذا الابحار العربى المغامر الذى وظف فى الحصول على الرزق • وقلما حرمت المتغيرات نفرا من هؤلاء جميعا من ثمرات هذا الاجتهاد الاقتصادى أو من التنعم بها • وهذا معناه أن هذه الثمرات الاقتصادية كانت تصل اليهم جميعا فى مواقع وجودهم فى المهجر أو فى البحر أو فى جزيرة العرب •

.. .. ..

الأبحار العربى ، تجارة وتفتح :

الخروج العربى الذى تحمس وانهمك فى الابحار واقتحم المحيط الهندى واغترب ، ثم هزه الوجد وعاوده وألح عليه الحنين فعاد من غربته ، هو بالقطـع العمل والاجتهاد والارادة والانجاز الذى تحمس للوجود العربى المقيم فى جزيرة العرب ، وحمل همه • بل هو - كما قلنا - الاجتهاد الاقتصادى المعطـــاء الذى أجرى رافدا مفعما بكل الخير والخيرات ، التى تنعمت بها حركة الحياة فى جزيرة العرب • وكان الخروج مثابرا ولم تطاوعه نفسه أو شهامته ابدا على التملص أو التهرب من مسئولياته التى التزم بها قبل بنى جلدته أو نحو انتمائه القومى •

وهو الخروج الذى أفرط فى المغامرة وخاطر لأنه طلب من خلال الابحار المغامر الرزق الحلال وجنى ثمرات الاغتراب المؤقت • وهو أيضا الخروج الذى استشعر المسئولية فلم يفرط أبدا فى الأرض والموطن والانتماء الوفى لحركة الحياة فى جزيرة العرب لأنه أصر على العودة وجاوب الحنين والتلهف عـــلى العودة • ومن ثم قل - بكل الثقة - أنه الخروج العربى الذى طاوع عوامـل

الذرية التى عاشت فى المهجر بعد أن افتقدت اللسان العربى لكى تحس بالانتماء العربى أو لكى تتذرع بأسباب من أجل العودة • ولكن ذلك كله لا يحمل أى شبه أو أى شبهة جعلت منه نمطا استعماريا استيطانيا على الاطلاق •

الطرد لكى يطوع المتغيرات والتحديات والضغوط التى اصطنعت عوامل الطرد وينتصر لحركة الحياة فى جزيرة العرب ويعزز صمودها الاقتصادى .

والخروج الذى طاوع لكى يطوع قد وظف اجتهاده ومغامراته ، ليس لكى يفر ويطلب النجاة فى المهجر ، ولكن لكى يكر ويحبط ويبطل مفعول القحط والشح والتقتير فى وطنه . وقل أيضا انه الخروج الذى استحق الثناء والاطراء ، لأنه اصطنع بمغامرته واغترابه واجتهاده الاقتصادى رافدا من روافد التعزيز الاقتصادى للاقتصاد العربى قبل الاسلام . بل انه هو الذى انتصر له وشد أزره ودفع عنه عدوان وضغوط القحط وعوامل التقتير الاقتصادى .

ولقد انكب هذا الخروج العربى الذى تولى أمر الاقتحام المغامر فى البحر على العمل التجارى ونقل التجارة . وتفرع المغتربون فى مواقع حضورهم واغترابهم لانجاز التعامل التجارى مع الأسواق ومراكز التسويق فى عالم المحيط الهندى(٤٠) . وتعاون الابحار ونقل التجارة مع الاغتراب وتسويق السلع فى آداء الدور الوظيفى لحساب الوساطة التجارية . وسطر هذا التعاون أول صفحة فى قصة التجارة الدولية ، وأمسك بزمامها متفردا من غير أى منافسة حقيقية انتهكت احتكاره الاقتصادى الى ميلاد المسيح .

وكانت سفن الابحار العربى تروح وتغدو متفردة تفردا رسخ روح ومنطق وارادة الاحتكار الاقتصادى(٤١) فى نقل السلع والبضائع . واجاد

---

(٤٠) أطل الابحار العربى مباشرة على الهند والمدنيات الهندية . وتقابل مع الابحار الصينى فى جنوب شرق آسيا . وتعامل الاغتراب العربى فى حقل التجارة . وتحقق أيضا ما كان من أمر الاحتكاك الحضارى . وكفل التعامل الأخذ والعطاء وصفة الوساطة وبداية حركة التجارة الدولية وكفل الاحتكاك الحضارى التفتح والتنور وهو عين ما سعى اليه وطلبه الانفتاح العربى .

(٤١) تعود الملاحون الذى شحذ حماسهم الصيحة اليونانية بعد الاسكندر التى دعت الى اقتحام البحار الجنوبية وهم من اليونان والرومان على الابحار فى البحر الأحمر . وتجمع الملاحون دائما فى المخاطر فى انتظار اياب وعودة الرحلة البحرية العربية والتعامل معها . وما تجرأ ملاح قط على تجاوز باب المندب الا بعد سنة ٥٠ ميلادية التى أسقط فيها هيبالوس حاجز الخوف وأنهى مرحلة التفرد العربى .

راجع : أ - Schoff, W : The Periplus of the Erythrean Sea, London, 1912

ب - حسن صالح شهاب : فن الملاحة عند العرب .

جـ - صلاح الدين الشامى : الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى .

المغتربون فن التعامل والوساطة والوكالة وفن تأمين الابحار العربى التجارى المثابر • وفى كل رحلة عرض وسوق النفر المشارك فيها من خلال الاغتراب المتعاون السلع التى اثقلت السفينة • وحصل هذا النفر فى المقابل على حمولة جديدة من خلال الاغتراب المتعاون اثقلت السفينة قبل الاقلاع فى رحلة جديدة •

ومن خلال العرض والطلب والتفرغ لعمليات التسويق والنقل رسخ هذا الاجتهاد الاقتصادى المشترك أهم الضوابط أو التقاليد والاعراف التى حكمت ونظمت حركة البيع والشراء أحيانا ، وضبطت وقننت عمليات المقايضة والتبادل أحيانا أخرى • ومن خلال هذا التعامل التجارى وتعاون فريق الابحار وفريق الاغتراب ، ومن خلال اتساع دائرة الرؤية التى اطل منها هذا التعاون والتعامل على المدنيات فى عالم المحيط الهندى ، عرف الاجتهاد الاقتصادى العربى المغترب كل الضوابط التى حكمت الانفتاح الاقتصادى وموجباته أحيانا وأباحت التفتح والتنور الحضارى أحيانا أخرى •

وعندئذ ، ينبغى أن ندرك - بكل اليقين - أن الطواف فى البحر والاغتراب فى المهجر لم يبدأ أبدا من فراغ أو متجردا من الغاية ولم ينتهى قط من غير ثمرة جسدت مغزى هذه الغاية • بل انه هو الطواف البحرى المثمر والاغتراب المؤقت المجدى الذى أسفر عن توظيف الاجتهاد الاقتصادى العربى المغترب قبل الاسلام فى جنى ثمرات التجارة والتعامل التجارى المتخصص فى هذا النمط المبكر من حركة التجارة الدولية • وفضلا عن ذلك أسفر عن احتكاك حضارى بناء ، وممارسات حضارية مجدية ، واسهام فعلى فى التلقيح الحضارى بين المدنيات القديمة العريقة •

ومن أكثر من مرفأ مناسب على امتداد جبهة الجنوب العربى من عمان ومضيق هرمز شرقا الى اليمن وباب المندب غربا ، انطلقت حركة الخروج والرحيل والابحار • ولقد عرفت كل سفينة طريقها الصحيح الى الغاية ، والكيفية التى أدت بموجبها دورها الوظيفى المناسب فى خدمة التعامل مع عالم المحيط الهندى ، وصحيح أن الحس الجغرافى الفطرى قد بصر هذا التحرك أو الابحار ، ولكن الخبرة والمهارات المكتسبة قد كفلت السلامة وفن التعامل الناجح مع البحر •

ومع ساحل القرن الأفريقى اقتربت السفينة وتقدمت بحذائه فى ملاحة ساحلية • وسار الابحار فى اطار عمق مناسب وتقدم وهو آمن لأن الأرض

الأفريقية كانت فى الغالب لا تغيب عن الأعين . بل تعود الابحار على اقتراب مباشر من بعض المرافىء لالتقاط الانفاس والتزود ببعض الأغراض لحساب مرحلة جديدة . وتعود الابحار العربى على أن يبلغ موقعا معنيا على ساحل شرق أفريقية . ولقد توقفت السفن عادة فى هذا المرفأ الأنسب الذى اختاره وهذا المرفأ المنتخب الذى انتهت عنده رحلة الابحار العربى الساحلى

الابحار العربى نهاية لهذه المرحلة الطويلة من الرحلة الساحلية .
هو واحد من مرافىء كثيرة أدت وخدمت نفس الغرض . وهو أيضا عين ما نقصد به رأس الجسر الذى أمن الابحار العربى من والى الجنوب العربى(٤٢) . ولقد احتوى ظهير كل مرفأ جيب العمران والاغتراب العربى . وفى هذا الظهير المباشر ، أقام الحضور العربى المغترب وحافظ على مصالح الابحار العربى وتولى أمر التعامل التجارى العربى(٤٣) . بل قل انه قد تبنى كل هموم وتطلعات الابحار العربى المغامر . وكفل الاستعداد والاعداد والتجهيز لاقلاع السفينة العربية التى عرف ربانها دائما ، كيف يكون اقتحام المحيط الهندى اقتحاما مباشرا وناجحا فى الوقت الأنسب(٤٤) ، وفى الاتجاه الصحيح .

وفى هذه المرحلة من الرحلة ، حقق هذا الاقتحام الجسور أهدافه وغاياته الاقتصادية . وانطلق الابحار العربى انطلاقا واثقا الى مواقع الوصول والاستقبال والاقتراب على ساحل شبه جزيرة الدكن الهندية . وحتى لو لم نهتم بالحجم الحقيقى للمغامرة ، أو لم نكترث بالكيفية التى أسقطت السفن العربية بموجبها حاجز المسافة البحرية فى عرض المحيط الهادر ، فلا يجب

---

(٤٢) تعددت المرافىء المنتخبة على امتداد ساحل شرق افريقية فيما بين القرن الافريقى شمالا ومرفأ سوفالا (سفالة) على ساحل موزمبيق فى موقع قرب ميناء بيرا الحالية .

(٤٣) جزيرة زنجبار واحدة من أهم المرافىء التى أقام الابحار العربى عندها رأس الجسر الأهم لحساب التعامل مع عالم المحيط الهندى . وتقع جزيرة زنجبار فى المكان الأنسب لايواء الحضور العربى المغترب ولاستقبال السفن العربية . ولقد أمن وضع الجزيرة هذا الحضور من أى هجوم باغته من الظهير الافريقى . كما أنجح هذا الوضع أيضا الاقلاع منها الى الهند والعودة من الهند اليها .

(٤٤) الوقت الأنسب للاقلاع الى الهند كان فى الصيف وهو موسم الرياح المواتية . وكان تحرك هذه الرياح الموسمية فى اتجاه الشمال الشرقى كفيلا بدفع السفن فى الاتجاه الصحيح. وكانت رحلة العودة من الهند تعتمد على حركة الرياح الموسمية الشتوية فى الاتجاه المعاكس .

راجع حسن صالح شهاب : المرجع السابق وفيه موضوع طريف عن الرياح ومواسم السفر (من صفحة ١٨٧ - ١٩٢) .

أن نهون بمتاعب الابحار ومخاطره ٠ بل يجب أن نثنى على هـــذا الاجتهـاد الصامد الذى ثابر وتجاوز المتاعب وانتصر للاقتصاد العربى قبل الاسلام بانتصار الرحلة ٠

والانتصار الذى نعنيه بالضبط لا يعنى مجرد سلامة السفينة ووصولها الى المرفأ المنتخب ، ولكنه يعنى بالضرورة :

١ ـ انجاز المهمة الاقتصادية التى خرجت أو أقلعت من أجلها الرحلة وتجشم الابحار المغامر مخاطرها ٠

٢ ـ الابقاء على آداء الرحلة الاقتصادى وهو حلقة من حلقات الوصل المتين ، بين الاجتهاد الاقتصادى البحرى المغترب من جانب والاجتهادالاقتصادى العربى فى جزيرة العرب من جانب آخر ٠

وصحيح أن انجاز الرحلة البحرية العربية ،ووصول أى سفينة أبحرت ، قد حقق نقط البداية الصحيحة فى اتجاه الغرض الاقتصادى الحقيقى ٠ ولكن الصحيح أيضا أن انتصار الرحلة كما تكفلت به رحلة الابحار العربى المغامر قد شد أزر الاقتصاد العربى قبل الاسلام ٠ ولقد تكفلت كل رحلة ابحار تجارى فى هذا المحيط وهى فى مسيرة بحث عن الرزق بآداء حصيف وذكى وظفته فى التعامل التجارى والاجتهاد الاقتصادى ٠ ومع ذلك يجب أن نميز بين مردودات هذا التوظيف ومبلغ دعمه للاقتصاد العربى قبل الاسلام فى مرحلتين من مراحل الابحار العربى المغامر فى المحيط الهندى هما ، مرحلة التفرد والاحتكار ، ومرحلة التنافس والصراع ٠

وفى **مرحلة التفرد** التى دامت الى سنة ٥٠ ميلادية ، كفل الاحتكاروحافظ على أسراره التكتم الجغرافى الشديد ٠ وما من شك فى أن الاحتكار قد أباح للوساطة العربية أن تفرض ارادتها وأن تحصل على أرباح خيالية ٠ ومن ثـم كان سيل المال الوفير والربح الذى حققه منطق الاحتكار فيضا عزيزا فى رافد التعزيز الاقتصادى العربى قبل الاسلام ٠ وكفل هذا التعزيز الاقتصـادى الوفير الاقتصاد العربى فى جزيرة العرب وشد أزره ودعمه دعما حقيقيا ٠ وعاش الناس والوجود العربى فى جزيرة العربعيشة اقتصادية طيبة وتنعم أصحاب الاستثمارات فى حقل التجارة الدولية بالأرباح وحياة التـــرف والبذخ ٠

أما فى **مرحلة التنافس** فلقد بدأ الصراع بين الابحار العربى والابحـار

غير العربى . وما من شك فى أن هذا الصراع قد انتهك الاحتكار وحرم الاستثمار العربى من حرية التفرد بالارباح وشاركهم المنافسون فيها . ولقد أسفر هذا الصراع أيضا عن تحول بعض مرور التجارة الى البحر الاحمر .وحرم هذا التحول مدن الاسواق وطرق القوافل من كثير من الجدوى الاقتصادية التى كانت قد حققت لهم الايرادات الهائلة وعوائد المرور البرى .

ومن غير أن نتمادى فى المقارنة بين جدوى التعزيز الاقتصادى الذىقدمه الابحار العربى المغامر ، فى هاتين المرحلتين قبل وبعد سنة ٥٠ ميلادية ، يجب أن نؤكد على سلامة موقف هذا الابحار . وصحيح أنه قد تضرر وتدنى تعزيزه الاقتصادى بشكل أثر على موقف الاقتصاد العربى قبل الاسلام اعتبارا من القرن الميلادى الأول . ولكن الصحيح أن هذا الابحار قد واصل آدائه ، وماكف أو امتنع أو اصابته المنافسة الحامية بالوهن والتخاذل . وهذا معناه أن عناصر الخروج العربى المغامر فى المحيط ، وعناصر الاغتراب التى تولت أمر الوساطة التجارية حافظت على انتصاراتها الاقتصادية من خلال الصمود فى حلبة المنافسة .

ومهما يكن من أمر فان أهم ما أضافته الرحلة البحريةالىانتصاراتها فى كل مرحلة من هاتين المرحلتين ، هو الانفتاح العربى . ولقد كفل هذا الانفتاح التعامل التجارى أحيانا ، والتعايش العربى المغترب فى جيوب الاغتراب فى ظهير كل مرفأ شهد هذا التعامل التجارى أحيانا أخرى . وما من شك فى أن هذا الانفتاح قد أبقى للاجتهاد الاقتصادى العربى المغترب على حصة من تجارة المحيط الهندى . بل قل انه كان من أهم المقومات التى أسعفت الابحار العربى المغامر فى صراعه الاقتصادى مع الابحار غير العربى الرومانى واليونانى ، وشحذت همته وقوت صموده الى حد ملحوظ .

وهكذا أظل الاجتهاد البحرى العربى الاقتصادى وهو جزء من الاجتهاد الاقتصادى العربى فى جزيرة العرب ورافد من أهم روافده من خلال هذا الانفتاح على حركة الحياة . وتعلم عندئذ الأخذ والعطاء على أوسع مدى ، ونهل من المعين الحضارى للمدنيات العريقة . بل ربما وظف هذا الانفتاح توظيفا سهلا فى اختلاط مشروع مع بعض أولئك الذين تعامل معهم أو اغترب فى أرضهم . واباح هذا التوظيف للاغتراب المعين الحضارى اباحة وثقت الأخذ والعطاء الحضارى . ولقد زودت هذه الاباحة الرصيد العربى من التجربة أو الممارسة الحضارية . كما هيأت الاسهام العربى الذى اشترك به الانفتاح العربى فى تطوير وتنمية الحضارة الانسانية .

التعامل التجارى البحرى جزء من الاقتصاد العربى :

لا يغيب عنا انه لا وجه ابدا للمقارنة الموضوعية بين الخروج العــربى النازح على درب الاستيطان وطلب الأرض ، والخروج العربى المغامر على درب التعامل التجارى وطلب الرزق • بل لا وجه أبدا لتقويم العلاقة الاقتصادية بين الاقتصاد العربى قبل الاسلام والاستيطان من جانب ، والاقتصاد العربى قبل الاسلام والاغتراب التجارى من جانب آخر • وهل يستوى فى التقدير ذلك الذى فرط فى الأرض وفى الانتماء والآخر الذى سواء طالت غيبته أو قصرت فى الاغتراب لم يفرط فى الأرض ؟

وما من شك فى أن الخروج المغامر الذى غاب فى عرض البحر ، قــد أبحر وغامر وانتصر فى طلب الرزق ، فشد أزر الحياة وكفل بنى جلدته فى جزيرة العرب • بمعنى أنه وظف الذهاب والاياب توظيفا اصطنع بموجبــه قنوات الاتصال حتى اصبح اجتهاده الاقتصادى جزءا من الاقتصاد العربى • أما الذى خرج فى طلب الأرض ، قد غاب ولم يعد وانغمس فى استيطانــه انغماس من ألهته أو صرفته حياته واجتهاده الاقتصادى عن مصير الحياة فى ربوع أهله فى جزيرة العرب • بمعنى أنه وظف الاستيطان توظيفا أمن اجتهاده الاقتصادى ثم أصبح هذا الاجتهاد اجتهادا مستقلا • وباتت العلاقة بين هــذا الاجتهاد الاقتصادى الاستيطانى المستقل والاقتصاد العربى فى جزيرة العــرب علاقة تعاون بالتوازى برزته وحدة المصلحة فى قضية مرور التجارة بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط •

وفى اعتقادى أن موجبات المقارنة غير موضوعية • ولا وجه ابدا للمقارنة بين اجتهاد اقتصادى انفصل عن الاجتهاد الاقتصادى العربى وما أبقى الا على التعاون فى انجاز مصلحة اقتصادية مشتركة من جانب واجتهاد اقتصادى ابقى على روابطه وعلاقاته وتبعيته للاجتهاد الاقتصادى العربى قبل الاسلام من جانب آخر • وحتى لو جاز للبحثأن يقارن أو أن يقومهذا الاجتهاد الاقتصادى فيما وراء جزيرة العرب ، وجب على الباحث أن يدرك مدى التباين الفعلى بين هدفين مختلفين ، تفرقت بهما السبل والوسائل • وعندئذ ينبغى أن نميزتماما بــين :

١ ــ الآداء الوظيفى الاقتصادى لخروج العربى الذى نزح وهاجر فهجر الأرض والناس وطلب ارضا بديله • وانصرف فى هذه الأرض الىدعم استيطانه والى اصطناع بنائه الاقتصادى الخاص المستقل •

٢ - الآداء الوظيفى الاقتصادى للخروج العربى الذى غامر وغادر الديار فطلب الرزق واقتسمه مع أهله وذويه وشركائه • وهو لم يهجر الأرض وابقى على مصلحته فيها فى علاقة قوية دعمت البناء الاقتصادى العربى فى جزيرة العرب •

وصحيح أن الخروج على هذين الدربين المتباين ، قد انتصر على ضرواة وضغوط التحدى المناخى وهى التى قترت على الوجود العربى وانتهكت التوازن الغذائى فى جزيرة العرب • ولكن الصحيح الى الحد الذى لا يقبل الجدل ، هو ذلك الفرق الكبير أو التباين الفعلى بين الانتصار الذى اصطنعه الفـرار استجابة لعوامل الطرد وهجر الأرض ومن عليها من ناحية ، والانتصار الآخر الذى اصطنعه الابحار فى طلب الرزق دونما امتثال لعوامل الطرد والتفريط فى الأرض ومن عليها من ناحية أخرى •

وما من سبيل لانكار كيف تخفف كاهل الخروج العربى النازح الذى طلب الارض وعاش تجربة الاستيطان من أعباء كل الضغوط التى طاردتـه وتعقبته حتى طردته طردا قطع أوصال أى أمل أو نية فى الرجوع أو العودة • وانقطاع أوصال الأمل فى الرجوع لا يعنى شيئا فى اعتقادى غير عدم الاكتراث بمصير الحياة أو بأوضاعها الاقتصادية بعد أن ألقى بها وراء ظهره وهى تواجه التحدى المناخى وعضها التصحر والقحط • وعدم الاكتراث هو الذى ألبس هذا الخروج الاستيطانى ثوب الاستدبار والهروب الحقيقى وانقطاع الصلة والتفريط فى مصير الحياة أو الاستخفاف بدعم اقتصادها ، أو بشـد أزر صمودها الاقتصادى فى جزيرة العرب •

ومن ثم نتبين معنى ومغزى السلبية التى تحلى بها هذا الخروج المهاجر الاستيطانى الذى هجر المصير العربى وتخلى عنه وفرط فيه وهو يكافح عـلى جبهة المواجهة مع عوامل وموجبات وضغوط القحط والشح والتقتير فى ربوع جزيرة العرب • بل قل بوضوح أن هذا الخروج الاستيطانى قد انتصر بالهجرة وهى انجاز سلبى لنفسه ومصيره ، وأنه ما انتصر وما هب وتحمس لنصرة ايجابية لبنى جلدته • بل ما اكترث هذا الخروج الاستيطانى كليا لانتمائه القومى • وحتى لو قيل أن النضج القومى لم يكن قد تحقق انذاك فان مجرد التخلى عن الصحبة فى المصير مسألة تعبر عن الانانية • وهذا هو فى تقديرى النمط الانانى من الانتصار •

أما الخروج العربى الذى غامر واغترب فى طلب الرزق ، وسعى بكل

الأمل الى العودة من بعد انهاء مغامرات طموحه فى عرض البحر فلقد برهن وهو غائب على مبلغ تشبثه بالأرض ومبلغ رفقه واشفاقه على مصير الحيـــاة فيها . ولقد ثبت بالفعل أنه أجرى فائض الرزق الذى حصل عليه فى الرافد الكبير الذى دعم صمود المصير العربى وشد أزر اقتصاده . بل انه لم يستقل باجتهاده الاقتصادى وهو غائب أو مغترب ، بل جعله جزءا من كل الاقتصاد العربى قبل الاسلام فى جزيرة العرب . وهذا ما قلنا فى شأنه أنه الاجتهـاد الاقتصادى الذى لم يظهر أى علامة تشكك فى تفريط متعمد أو عدم اكتراث بالمصير الاقتصادى العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام .

وما من شك فى أن هذا الخروج المغامر الذى أبقى على الولاء للمصير الاقتصادى العربى ، لم يتحفف أو لم يتهرب ابدا من موجبات الاسهام فى أعباء المواجهة وما اصطنعته الضغوط وعوامل الطرد أو ما انتهكت به حقوق ومصالح ووجود هذا المصير . بل لقد اشترك هذا الخروج وهو مغترب فى دعم هذا المصير ولم يترك حركة الحياة فى جزيرة العرب وحيدة فى مجالات صمودها الاقتصادى لاحباط أو لابطال مفعول الضغوط أو لتخفيف وطئتها. وهل يعنى ذلك شيئا غير الاكتراث الفعلى بالمصير الاقتصادى العربى ؟ بل وهل يمكن أن ننكر جدوى هذا الاكتراث فيمواجهة التحدى المناخى وضراوة التصحر فى ربوع جزيرة العرب ؟

ومن ثم نتبين معنى الايجابية التى تصرف بموجبها هذا الخروج العربى المغامر الذى انتصر لمصيره ولمصير الاقتصاد العربى فى وقت واحد . ونلمح معنى ذلك من خلال توظيف اجتهاده الاقتصادى ومحصلة الرزق فى دعـــم الصمود الاقتصادى العربى وهو على جبهة المواجهة مع عوامل القحط والشح والتقتير فى جزيرة العرب . والانتصار الذى أنتصر به لنفسه ولمصير الاقتصاد العربى هو بالقطع انتصار ايجابى وفعال لأنه برهن على أنه لم يخرج لكى ينجو بذاته . وهذا هو النمط غير الانانى من الانتصار الاقتصادى الذى أعطى ودعم وسجل الولاء لانتمائه القومى .

هذا ، ويجب أن نتمادى فى اطراء وتمجيد هذا الموقف الايجابى لأنـه موقف بناء ومجد ومؤثر فى دعم بنية الاقتصاد العربى قبل الاسلام . بل ينبغى أن ينال استحقاقه الفعلى من الثناء والاشادة به لأنه الاجتهاد الاقتصادى المتفتح الذى كرس انجازاته من غير تردد أو من غير أنانية لدعم صمود حركة الحياة العربية بصفة عامة . وهل يمكن أن يشك أى متشكك فى جـــدوى

ذهاب واياب كل رحلة ابحار مغامر وقد حملت معها من كل الثمرات فيعالم المحيط الهندى شيئا كثيرا ومتنوعا من السلع والمنتجات ؟ ويمكن أن نؤكد أن هذا الاجتهاد الاقتصادى المثمر هو وحده الذى شد أزر الحضور العــــربى الصامد فى مواقعه فى ربوع جزيرة العرب ٠

ومن ثم يمكن أن نتصور كيفية العلاقة بين الاقتصاد العربى البحرى التجارى وهو الجزء والاقتصاد العربى فى جزيرة العرب وهو الكل ٠ كما يمكن أن ندرك معنى ومغزى الدعم الاقتصادى للصمود العربى وهو العلامة التى لا تضل ولا تضلل فى شأن :

١ ــ اسقاط شبهة الفرار والهروب امتثالا لعوامل الطرد ، واستنكار تهمة التفريط فى الأرض أو فى الوجود العربى فى ربوعها عن هذا الخروج العربى المغامر فى طلب الرزق من البحر ٠ واسقاط الشبهة واستنكار التهمة، لا يعنى غير استشعار مدى تجرد هذا الخروج من الانانية والذاتية الضيقة ٠

٢ ــ تكذيب دعوى أو ادعاء عدم اكتراث هذا الخروج بالأهل أو تفريطه فى مصير الحياة فى جزيرة العرب ٠ وهذا التكذيب هو اعتراض صـــــدق موضوعى تأسس على تقدير فعلى للدعم الاقتصادى الذى قدمه بكل الاختيار الى الوجود الذى أضر به الجفاف والقحط والتمادى فى التصحر ٠

٣ ــ تقويم اقتصادى صادق ، يضع اجتهاد الخروج العربى الاقتصادى المغامر فى مكانه الصحيح فى اطار علاقة عضوية بالمصير الاقتصادى العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام ٠ كما يقدر قيمته وجدواه فى مكانته الاقتصادية الصحيحة التى دعمت البنية الاقتصادية العربية ورسخت النظام الاقتصادى الذى أولى هذه البنية عنايته وضبطه وتنظيمه ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

مردودات الابحار التجارى والاقتصادى العربى :

لأن هذا الابحار التجارى المغامر فى طلب الرزق ، قد خرج وهو حريص على المصير الاقتصادى العربى وعلى حركة الحياة فى ربوعجزيرة العرب ، فينبغى أن ندرك أن جدوى اجتهاده الاقتصادى البناء ، قد حققت نتائج مثيرة

ومثمرة فى خارج وداخل جزيرة العرب(٤٥) · ومفيد حقا أن نتعقب هـذه الجدوى على هذين الصعيدين فى الداخل والخارج ، وأن نتلمس أواصر العلاقة التى اصطنعتها هذه الجدوى بين الاجتهاد الاقتصادى المغترب والاجتهاد الاقتصادى العربى الى حد التداخل معا فى بنية الاقتصاد العربى قبل الاسلام ·

وأول مردودات هذه الجدوى بل وأهمها ، قد تمثلت فى توسيع دائرة الحضور العربى اقتصاديا وحضاريا واجتماعيا ، على صعيد أوسع من جزيرة العرب · وبموجب كل الاجتهاد الذى اصطنع هذا التوسيع فى دائرة الحضور العربى ، يمكن أن نميز بين ، الحضور العربى فى الداخل والخارج · كما ينبغى أن نستشعر العلاقة بينهما · أو قل انه يجب التمييز بين :

١ – وجود عربى أصيل ملأ الحيز فى ربوع جزيرة العرب · وسواء تمثل هذا الوجود فى البداوة أو تمثل فى الاستقرار فانه صمد فى أرضه وواجه كل متاعب الحياة التى اصطنعها التصحر ·

٢ – حضور عربى مغترب ملأ الحيز على ظهور السفن أو فى مواقع اغتراب مناسبة · وسواء تمثل هذا الاغتراب فى البحر أو فى البر (شرق أفريقية وجنوب شرق آسيا) ، فانه خاض غمار التجربة الاقتصادية ووجه مكاسبها فى الرافد الذى دعم وشد أوصال البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام ·

وصحيح أن كل حضور منهما قد عاش حياته وانكب على اجتهاد مناسب أحسن استثمار قدراته فى مجالات الانتفاع الاقتصادى بما هو متاح فى المكان والزمان الذى احتواه · وصحيح أيضا أن هذا الانتفاع الاقتصادى الذى انتفع

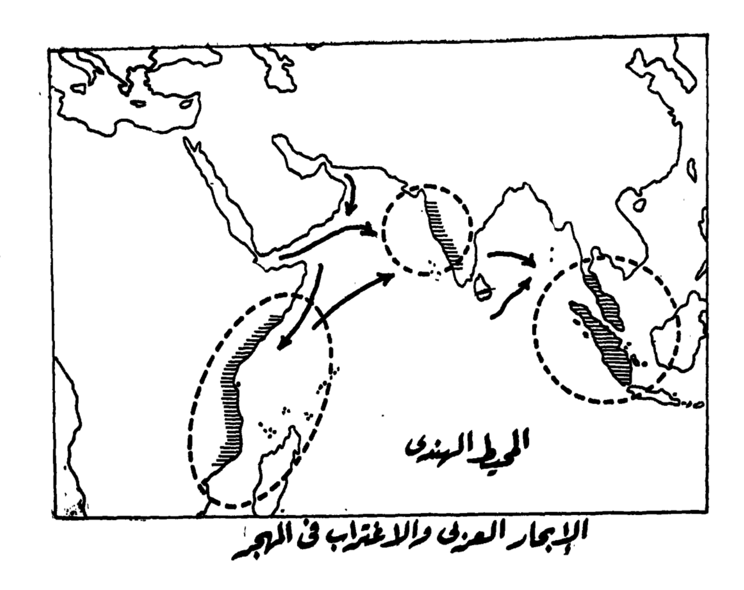
---

(٤٥) أحست حركة الحياة فى جزيرة العرب دائما بهذا الخروج المغمار فى طلب الرزق · بل لقد قدرت هذا الإبحار المغامر حق قدره وحفلت بجدوى اجتهاده الاقتصادى وما نالها من بره وعطائه · وهذا هو شدو طرفة بن العبد الشاعر الذى تغنى به فى معلقته المشهورة · قال:

عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدى

يشق عباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفائل باليد

فهل ضل الشعر فى تجسيد الرحلة البحرية ؟ وهل عبر الشعر عن مبلغ الاهتمام العربى بهذا الابحار ؟ وهل خلت الأبيات من دلالة التعبير عن معانى كثيرة بصرت الباحث فى شأن معنى ومغزى الرحلة البحرية ؟



الإبحار العربى والاغتراب فى المهجر

به كل منهما ، قد تأثر بكل المتغيرات المتباينة التى فرضتها خصائص المكان وحركة الزمان • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن العلاقة بين هذين الحضورين وهى علاقة بين تابع ومتبوع(٤٦) قد أحسنت وأمنت الانتفاع بمردودات كل جدوى اقتصادية وغير اقتصادية حققها الاجتهاد الاقتصادى العامل فى الخارج وفى الداخل على حد سواء •

وصحيح أن اجتهاد الابحار العربى التجارى المغامر فى طلب الرزق ، قد غرس نواة كل حضور عربى مغترب فى مكان كل موقع جغرافى منتخب على صعيد واسع فى عالم المحيط الهندى • وصحيح أن اقامة حضور عربى مغترب على ساحل شرق افريقية أو على ساحل الهند قد جسد الاستيطان واصطنع رأس جسر لدعم وتأمين الابحارالمغامر وطلب الرزق • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هذا الاغتراب لا يقوم دليلا على الاستغراق فى الاستيطان استغراقا غافلا عن ارادة العودة أو مجردا من حنين العودة أو هاربا من تحمل المسئولية الكاملة قبل الوجود العربى المقيم فى جزيرة العرب أو نحو المصير الاقتصادى المشترك بينه وبين هذا الوجود العربى فى جزيرة العرب •

ومن ثم قل — بكل اليقين أن هذا الحضور العربى المغترب هو الذى حمل فى غربته على كاهل صلب ، ارادة وشرف المسئولية عن :

١ — اقامة كل رأس جسر اعتنى وأمن وخدم الابحار العربى المغامر فى المحيط الهنى •

٢ — توظيف كل خبرة ومهارة فى خدمة التعامل التجارى والاجتهاد الاقتصادى المغترب •

٣ — الابقاء على قنوات الاتصال والعلاقة التى ادخلت الاجتهادالاقتصادى المغترب فى بنية الاقتصاد العربى فى جزيرة العرب •

وبين كل رأس جسر وآخر ، على ساحل شرق أفريقية ، وعلى ساحل ملبار فى الهند ، وعلى صعيد الجزر واشباه الجزر فى جنوب شرق آسيا ،

---

(٤٦) هذه هى علاقة التبعية وهى غير العلاقة التى تكون بين الأنداد • وقضت علاقة التبعية دائما ومن غير أن نبحث فى شأن من هو التابع ومن هو المتبوع ، الارتباط العضوى فى اطار البناء الاقتصادى أو فى اطار المصير الاقتصادى •

أدى هذا الخروج العربى دوره الوظيفى • وعرف الاجتهاد الاقتصادى المغترب، كيف تدق الأبواب وكيف يوظف التعامل فى طلب الرزق(٤٧) • وما سجل التاريخ ادانة لوثت شرف هذا التعامل ، أو القت على طلب الرزق شبة العدوان أو النهب أو الاغتصاب •

وسواء كان الاغتراب اقامة عند رأس اى جسر احتوى المغتربين وشهد اجتهادهم الاقتصادى ، أو كان الاغتراب ابحارا مغامرا على ظهر السفن فى عرض البحر ، فان الاجتهاد الاقتصادى لم يتجرد أبدا من شرف العلاقة مع الوجود العربى المقيم فى جزيرة العرب • بل انه لم يتجرد أبدا من شرف المسئولية الاقتصادية عن دعم هذا الوجود العربى وتقديم العطاء والحق والاضافات الاقتصادية التى تداخلت فى بنية الاقتصاد العربى قبل الاسلام •

ولقد حافظ هذا الاجتهاد الاقتصادى المغترب ، من خلال التكتم الجغرافى(٤٨) والتمويه(٤٩) والصمت(٥٠) • وابقى على قنوات الاتصال مفتوحة، بين محصلة وجدوى هذا الاجتهاد من جانب والوجود العربى الصامد فى ربوع وجزيرة العرب من جانب آخر • بل قل وظف العمل والاجتهاد الاقتصادى والاغتراب والابحار كل فى موضعه الصحيح ولكن فى صمت وتكتم جغرافى

---

(٤٧) صلاح الدين الشامى : الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى •

(٤٨) اخفاء المعلومات والبيانات الجغرافية عن عالم المحيط الهندى مسألة حيوية كفلت وأمنت التفرد العربى فى التعامل التجارى مع هذا العالم • ولقد اعتمد الاجتهاد الاقتصادى العربى المغترب على هذا التفرد فى الممارسة الاحتكارية •

(٤٩) أحسن الاغتراب العربى توظيف الأسطورة والخيال الذى ابتدع الخرافات والشخصيات الأسطورية ، فى تخويف المنافسة بل لقد أشاع القصص الأسطورى الفزع فى نفوس كل من تطلع الى المنافسة وردع تطلعات البحارة وحال لأطول فترة ممكنة دون اقتحام الروم واسهامهم ومنافسة الاجتهاد العربى فى عالم المحيط الهندى •

صلاح الدين الشامى : الرحلة عين الجغرافية المبصرة - الاسكندرية ١٩٨٢ من صفحة ١١٩ - ١٢٠ •

(٥٠) أحسن الوجود العربى فى جزيرة العرب توظيف الصمت والسكوت وعدم التسجيل فى الابقاء على ما تطلع اليه التكتم الجغرافى • وحتى لو قال قائل أن الصمت هو وليد الأمية • فان ذلك معناه أن توقع العثور على نقوش أثرية أو مدونات قديمة تلقى الأضواء على هذا الابحار واجتهاده الاقتصادى مسألة صعبة •

حقيقى · وصان هذا التكتم الجغرافى أحيانا ، والتمويه الاسطورى أحيانا ، والصمت أحيانا أخرى ، أسرار هذا الخروج ومعرفته بالمهجر ، وحال دون التدخل الغريب المنافس له ، واقتسام الرزق معه ·

وبعد ، فانغرس نواة كل حضور عربى مغترب ، والابقاء على قنوات الاتصال المباشر بينه وبين الوجود العربى فى جزيرة العرب لا يعنى ـ فى اعتقادى ـ شيئا أهم أو أجدى من التشبث بالولاء المتبادل أو بالانتماء المشترك · وهل يعنى الخروج العربى المغامر الذى حافظ وأبقى على هذه القنوات شيئا أهم وأجدى من تحمله المسئول وهو مغترب فى ابحار تجارى أو فى اقامة مؤقتة ، مسئولياته ، فى :

١ ـ دعم صمود الوجود العربى وتعزيز صراعه وكفاحه الاقتصادى المحلى فى اجواء التحدى المناخى والتصحر فى جزيرة العرب ·

٢ ـ شد أزر مصيره الاقتصادى الصامد على جبهة المواجهة مع عوامل الطرد على صعيد جزيرة العرب ·

وهكذا ، فتح هذا الخروج العربى المسئول ، الذى تمثل فى كل ابحار تجارى مغامر ، أو فى كل اغتراب مؤقت ، كل باب من أبواب الانفتاح العربى على مصاريعها · ولا تعارض أو تضاد بين انفتاح عكف على جنى ثمرات الاغتراب التجارى لحساب الوجود العربى فى الداخل والخارج من جانب ، وتكتم وانغلاق موه وستر وحجب وأمن هذا الاغتراب ورفع عنه اعباء المنافسات · وهل وضع ذلك الاجتهاد الاقتصادى الذى أحسن توظيف الانفتاح والانغلاق دون تعارض أو تخبط شيئا أهم من ترسيخ مبدأ الاحتكار أو اشاعة الممارسة الاحتكارية فى العمل التجارى ؟

ولقد نما الاغتراب وطور ورسخ وأحسن توظيف الانفتاح اليقظ على أوسع مدى ، وهو طواف فى ابحاره المغامر أو وهو متعامل مع مدنيات المحيط الهندى · وترسيخ الانفتاح وانتعاشه ويقظته وارساء قاعدة العمل التجارى المتفرد والممارسة الاحتكارية ، علم الوجود العربى فى جزيرة العرب الاحتكار ، معناه ومغزاه الاقتصادى · ومن ثم استشعر هذا الوجود جدواه وأخذ بروحه وارادته ، وتمادى فى توظيفه التوظيف الاقتصادى الأجدى · ومن خلال هذا الانفتاح الذى جسد كل الجدوى فى الأخذ والعطاء ، وحقق أفضل الجدوى من الاحتكار ، تفتحت أبواب الرزق بقدر ما تنورت العقلية العربية اقتصاديا وحضاريا ·

ولم يتمثل مردود هذا الانفتاح الذى ولد ورسخ ارادة الاحتكار ، فى العائد الاقتصادى المجز الذى أثرى روافد الاياب والعودة من رحلة الاغتراب، وأغدق على الوجود العربى فقط ، بل لقد تمثل هذا المردود أيضا فى :

١ - التفتح الحضارى المادى واتساع دائرة الرؤية الحضارية المتنورة التى استوعبت الممارسات الحضارية على كل صعيد تعامل معه أو تعايش معه الاغتراب العربى المتفتح • وأشاع هذا التفتح الحضارى المادى فىجزيرة العرب روح البذخ والاستعداد للترف المادى(٥١) •

٢ - التفتح الروحى المتخبط واتساع دائرة الرؤية الروحيــة التى شحذت الحس الدينى وأشبعته من كل معين أطل عليه الاغتراب العــربى المتفتح فى مدنيات المحيط الهندى • وأشاع هذا التفتح الروحى المتخبط روح الضلال والاستعداد لخطيئة تعدد الآلهة •

وعلى صعيد جزيرة العرب ، وفى ربوع الوجود العربى ، أمنت هــذه المردودات حقه منها ونال حصته اقتصاديا وحضاريا وروحيا • وغــــدت الأسواق ومدن الأسواق التى وفدت اليها أو انهالت عليها السلع من عالم المحيط الهندى ، أو التى مرت بها قوافل التجارة العابرة ، مواقع عمران متألقة ونابضة بالعز •

بل لقد أشرقت جزيرة العرب كلها وفى ربوع الاستقرار على وجـــه الخصوص بنور التفتح الحضارى ، وتنعمت بعز التفتح الاقتصادى ، وتخبطت فى خطيئة التفتح الروحى • بل قل أن حركة الحياة قد انتفعت بالتفتـــح المخلوط بالثراء الذى أغرق الحياة وهو يغدق عليها بصفة عامة وعلى مـــدن

---

(٥١) كان الابحار عند الشرقيين دائما ابحارا مغامرا من أجل سلع ومنتجات لبت حاجة التدين والاهتمام بالحياة الآخرة • وكان الابحار عند الغربيين (عالم البحر المتوسط) فى الماضى والحاضر ابحارا مغامرا من أجل سلع ومنتجات لبت حاجة الحياة الدنيا • ولقد برهن الابحـــار العربى المغامر على أنه لم يكترث بشىء غير التعامل فى السلع والمنتجات التى لبت حاجة الحياة الدنيا • وهذا معناه أنهم شذوا عن القاعدة التى عاشت فيها تجربة الابحار عنـــد الشرقيين والمدنيات فى الشرق الآدنى • ومعناه أيضا أنهم سايروا أولئك الذين عملوا من أجــل نقل منتجات عالم المحيط الهندى اليهم • ومع ذلك فلا يجب أن توظف هذه المسايرة ، أو هــذا الشــذوذ ، فى تجريد الاغتراب العربى من ظاهرة التدين حتى ولو كان تدينهم ضـــالا • وتستحق أن توظفها فقط فى تفسير الانغماس فى الترف المادى ونزوات المتعة فى الدنيا •

الأسواق بصفة خاصة ، في بحور البذخ والترف والمتعة والضلال . وهل أسفر التمادى فى هذا البذخ والضلال عن شيء غير انحدار الجاهلية قبل الاسلام انحدار الغواية الى حضيض الخطايا والفجور ؟ .

ومن غير كلل أو من غير وهن ، مضى هذا الخروج العربى الذى تفرد ابحاره المغامر وتعامله التجارى فى عالم المحيط الهندى الى مطلع التاريخ الميلادى ، مطمئنا ومتماديا فى أساليبه الاحتكارية . كما واصل الاهتمام والعطاء الذى دعم الحياة الاقتصادية فى جزيرة العرب .

ومن غير تردد أو من غير انتكاس ، داوم هذا الخروج العربى الذى تضرر أو أضرت به المنافسة الرومانية من القرن الأول للميلاد كفاحه واجتهاده الاقتصادى . وانهاء التفرد العربى التجارى فى عالم المحيط الهندى لم يوقف أو ينهى الأساليب الاحتكارية . كما لم يتسبب فى الاضرار بقنوات الدعم الاقتصادى أو بجدوى العلاقات التى تمادت فى دعم الحياة الاقتصادية فى جزيرة العرب .

وفى مرحلة **التفرد** التجارى البحرى التى عززت ارادة الاحتكار ووضعت وأرست قاعدة أو مبدأ من أخطر ضوابط حركة الاقتصاد ، وفى مرحلة **التنافس** التجارى البحرى التى قاومت الاحتكار وانتهكت أساليبه وأطلقت منطق وروح حرية الاقتصاد ، حافظ :

١ - الاغتراب العربى على معدلات وأساليب دعمه الاقتصادى للاقتصاد العربى قبل الاسلام .

٢ - الوجود العربى على الاحتكار وأساليبه فى النظام الذى اصطنع منه وبه اطارا للاقتصاد العربى قبل الاسلام .

.. .. ..

أشكال الدعم ، وجدواه :

على **المستوى المحلى** فى ربوع جزيرة العرب التى انهك الجفاف الحياة فيها ووضعها على حافة الهاوية ، تمثل هذا الدعم أصلا فى شكله الاقتصادى. وهذا الدعم الاقتصادى هو الذى انتصر لارادة الحياة واستجاب استجابة الوفاء والسمع والطاعة لنداء الحياة . وكان حصاد هذا الدعم الاقتصادى الحقيقى اضافة

فعالة ومجدية ، عززت الوجود العربى الذى صمد لضغوط القحط والتصحر ولم يبرح الأرض • بل قل انه الدعم الاقتصادى المستمر الذى انساب فى شرايين الحياة ونقل الوجود العربى من حالة الرضا بحد الكفاف المقتر من العيش الى حالة التنعم بالعيش عند حد الكفاية أحيانا ، وحد الترف والبذخ أحيانا أخرى •

ودعم صمود الحياة اقتصاديا من أجل التشبث بالأرض فى جزيرة العرب ، هو — بكل تأكيد — الانجاز الحقيقى المجد للاجتهاد والاقتصادى المكافح الذى وظف اغترابه ومغامراته ووظف قيمة الموقع الجغرافى توظيفا رشيدا • ولقد شد هذا التوظيف الاقتصادى الرشيد أزر الانتصار الاقتصادى العظيم على صعيد جزيرة العرب • ثم حول هذا التوظيف الاقتصادى الرشيد الموفق الانتصار الاقتصادى العربى من انتصار محدود كفل الحياة وانتشلها من القحط ، الى انتصار من غير حدود ، فجر تطلعات الحياة الى ما هو أفضل• وفضلا عن ذلك ينبغى أن نثق فى أنه الانجاز المثمر على المدى الطويل منذ الألف الثانية قبل الاسلام • ولقد رسخ هذا الانجاز وهو انتصار محدود أو وهو انتصار من غير حدود وأمن صلابة القاعدة التى ارتكز عليها التركيب الهيكلى للبنية الاقتصادية العربية قبل الاسلام •

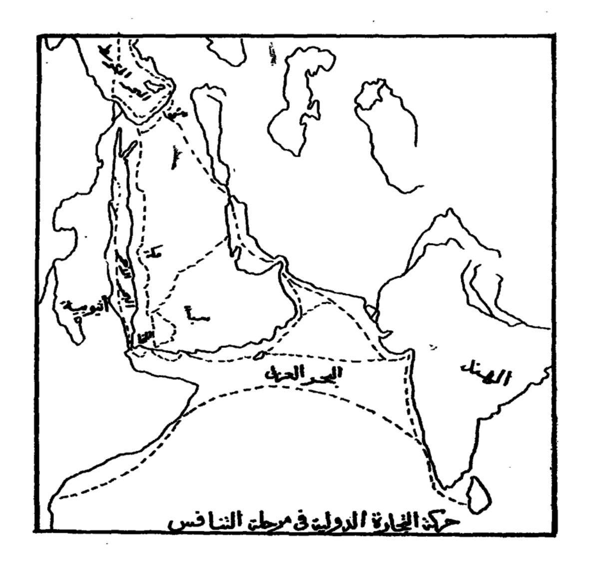
وانتشال الواقع الاقتصادى العربى من ورطته فى مواجهة ضغوط الجوع فى مرحلة ، وتحسين أوضاع الواقع الاقتصادى ، فى صلب بنيته فى مرحلة أخرى ، علامة لا تضل ولا تضلل فى شأن دوام واستمرار هذا الدعم الاقتصادى • ولقد انبأت هذه العلامة بالعلاقة العضوية بين الاجتهاد الاقتصادى المغترب والاجتهاد الاقتصادى العربى فى جزيرة العرب • كما بشرت هذه العلامة أيضا ، بجدوى الاسهام الذى قدم به الاجتهاد الاقتصادى المغترب ثمرات اغترابه ، واصطنع منها لنبات صلبة فى صلب البناء الاقتصادىالعربى فى الجاهلية قبل الاسلام •

والاسهام المستمر الذى نعنيه بالضبط ، ليس هو المال والربح والاغداق السخى فقط ، بل هو العطاء المتنوع والمستمر من غير حدود • ومن ثمرات هذا العطاء المتنوع المستمر والجارى فى كل القنوات ، نشأت أهم الأفكار والتقاليد التى تسللت الى بنية الاقتصاد العربى قبل الاسلام • ومن ثم اصطنعت هذه الافكار والتقاليد الاطار الواضح للنظام الاقتصادى ، والمسارات المحددة لحركة الاقتصاد العربى واتجاهاته الضالة أو الخاطئة قبل الاسلام •

وعلى **المستوى الاقليمى** الواسع فيما وراء جزيرة العرب ، الذى لم شمل الوجود الحضارى والمدنيات الزراعية المستقرة ، تمثل هذا الدعم أيضا فى شكلة الاقتصادى . وهذا الدعم الاقتصادى هو الذى نما وطور وأبقى على حسن توظيف أو استثمار خصائص المكان والموقع الجغرافى ، لحساب الاتجـاه الاحتكارى الذى لبى وجاوب نداء التكامل الاقتصادى بين هذه المدنيات فى الشرق والغرب . بل كان حصاد هذا الدعم الاقتصادى الحقيقى اضافة فعالة ومجدية ، عززت الوجود العربى فى جزيرة العرب الذى تصدى لآداء دوره الوظيفى الاقتصادى والحضارى ولم يرجع عنه أو يفرط فيه . بل قل انه الدعم الاقتصادى المستمر الذى انساب فى شرايين الوجود العربى ونقـل تطلعات حياته ، من حالة الرضا بوضع محدود اقتصاديا فى الاطار الضيق على صعيد جزيرة العرب ، الى حالة التنعم بوضع ومكانة قيادية احتكارية اقتصاديا فى الاطار الواسع الفضفاض فيما وراء جزيرة العرب .

ودعم انتقال الحياة فى جزيرة العرب اقتصاديا الى دورها أو مكانتهـا القيادية فى الاطار الواسع فيما وراء جزيرة العرب ، هو — بكل تأكيد — الانجاز الاقتصادى الأعظم الذى وظف اغترابه ومغامراته البحرية ووظف قيمة المكان الجغرافية توظيفا ناجحا ورشيدا أمن وكفل تمرير التجارة وحركة القوافل ، لحساب التعامل التجارى والتكامل الاقتصادى بين مدنيات المحيط الهندى ومدنيات البحر المتوسط . ثم مضى هذا التوظيف الناجح الرشيد وحول هذا التعامل التجارى من حالة تعامل محدود كفل وجاوب الحاجة الحضاريـة الاستهلاكية الى حالة تعامل محموم نشط التطلع والنهم وفجر النهم الاستهلاكى الحضارى من غير حدود . وفضلا عن ذلك ، ينبغى أن نثق فى انه الانجاز الاقتصادى المثمر على المدى الطويل منذ الالف الثانية قبل الميلاد . ولقـد رسخ هذا الانجاز الاقتصادى وهو متفرد احتكارى فى مرحلة أو هو غير متفرد وانتهازى فىمرحلة أخرى ،وأمن وقوى سواعد الوساطة التجارية بين الأقطار والاقوام المتحضرة قبل الاسلام .

وانتقال الواقع الاقتصادى العربى من الاهتمامات المحلية فى مرحلة ، الى الاهتمامات العالمية فى مرحلة أخرى ، أو تحول هذا الواقع من التفرد والاحتكار الى التنافس والانتهازية علامة لا تضل ولا تضلل فى شأن دوام وتطور ونمو وتصاعد هذا الدعم الاقتصادى.ولقد انبأت هذه العلامة بالدفع الاقتصادىالذى بوآ الاقتصاد العربى المكانة المرموقة الأعظم . كما بشرت هـــذه العلامـة أيضا ، بجدوى الاسهام الذى قدم به الاغتراب التجارى العربى ثمرات جده



حركة التجارة الدولية في مرحلة التنافس

واجتهاده · ولقد وضع هذا الاسهام المثابر زمام التجارة الدولية فى مراحل نشأتها المبكرة أمانة غالية فى عنق الاقتصاد العربى قبل الاسلام · وهـــذه الامانة الغالية هى التى احتكرها التفرد واعطت له بكل السخاء واستجابت لأساليب الاحتكار · وهذه الامانة الغالية هى نفسها التى تنافس فى شأن الانتفاع بها الاغتراب العربى والاجتهاد العربى الاقتصادى المغترب فى المحيط الهندى والاجتهاد الرومانى الاقتصادى الغريب[٥٢] عنه ·

والاسهام المستمر الذى نعنيه بالضبط ، ليس هو العطاء والاثـــراء ولاغداق السخى من غير حدود فقط بل هو الدفع القوى الى المكانة المرموقــة الأعظم · ومن هذه المكانة المرموقة التى تربعت عندها النخبة من التجــــار (تحالف التجاريين) هيمنت مدن الاسواق على حركة التجارة الدولية كلها فى مرحلة التفرد وبعضها فى مرحلة التنافس · وبموجب هذه الهيمنةالكلية حينا والجزئية حينا آخرا ، نشأت بعض أهم الافكار والتقاليد التى تسللت الى صلب قواعد وأسس النظام الاقتصادى العــربى قبل الاسلام · واصطنعت بالضرورة اطارا واضحا ومسارات محددة وحبكة منضبطة لحركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام ·

وكم تجلى الدعم فى هذين الشكلين على المستوى المحلى وعلى المستوى الاقليمى اللذين انساب بموجب كل منها العطاء والاسهام بأكبر قدر من الرتابة والانتظام فى نمو وازدهار حركة الأسواق العربية · ولقد خص هذا الدعم مدن الأسواق التى نبضت الحياة فيها نبضا متألقا بالشىء الكثير · بل لقد سجل نبض الحياة فى هذه المدن تألقا مثيرا بكل الثراء والرخاء والتحضر · بل تنعمت هذه الحياة فى مدن الاسواق بالأمن الذى كفلته وحافظت عليـــه قبضة التجاريين لأنها عرفت وقدرت جدوى ومغزى هذا الأمن اقتصاديا على وجه الخصوص ·

وارجع بفكرك وبحثك الى سيرة ومسيرة أهم مدن الأسواق التى عاشت هذا الماضى الاقتصادى العريق فى جزيرة العرب قبل الاسلام · وسواء عاش بعضها وكان طبيعيا أن تعيش مثل مكة وصنعاء أو تهالك واضمحل عز بعضها

---

(٥٢) الاجتهاد الرومانى الاقتصادى غريب من وجهــة نظر الاغتراب العربى لأنه جاء من بعيد · بمعنى أنه غريب على المحيط الهندى وقد تسلل اليه فى اطار توسعه العالمى عن طريق البحر الأحمر ·

وغربت شمسها مثل مأرب ، لمست بكل الوضوح كيف أسهم الاجتهاد الاقتصادى المغترب فى نموها وازدهارها وتنعمت به ، وكيف تضررت الأخرى لأن اسهام الاجتهاد الاقتصادى المغترب قد أفلت منها أو تخلى عنها .

وما من شك فى أن مدن الاسواق التى تنعمت باسهام هذا الاجتهاد الاقتصادى المغترب ونالت منه حصة ، قد عاشت تجربة اقتصادية رائعة . بل قل انها شهدت ثورة اقتصادية جديدة ، هى الثورة الثانية على صعيد جزيرة العرب . وكفلت هذه الثورة توسعات الاسواق وحركة التسويق على الصعيد المحلى من ناحية ، وحركة المرور وتأمين التجارة من عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط من ناحية أخرى . وهل جسد هذا التحول الاقتصادى شيئا أهم من ثورة الاقتصادية جددت وقوت بنيان الاقتصاد العربى قبل أن تنتهى مرحلة تفرد الاغتراب العربى فى عالم المحيط الهندى ؟ وهل اسفر انهاء مرحلة التفرد عن شىء أسوأ من تضرر بعض مدن الأسواق ؟

وكم تجلى الدعم فى هذين الشكلين اللذين جلبا وحققا وأسهما بأكبر قدر التفتح والتنور ، فى نمو وازدهار وتطور الممارسة الحضارية العربية . ولعلها قد خصت مدن الاسواق التى نبضت الحياة فيها نبضا حضاريا متنورا بالشىء الكثير . ولقد سجل نبض الحياة اليومية فى هذه المدن وخاصة فى مرحلة التفرد الاحتكارى عزا متألقا بالتفتح والتحضر والتنور . بل قل أن الحياة فى هذه المدن ـ مدن الأسواق ـ قد تنعمت بالتغير الحضارى المادى الى ما هو أفضل . وهذا التغير هو أهم ما أسفرت عنه فرص الاحتكاك الحضارى مع عالم متمدين من حول جزيرة العرب .

وارجع بفكرك أو ببحثك الى سيرة ومسيرة أهم مدن الاسواق التى عاشت قبل الاسلام فى تألق هذا الماضى الحضارى العريق . وسواء عاش بعضها واستمر وجودها قبل الاسلام مثل مكة وصنعاء أو تهالك واضمحل وزال بعضها مثل مأرب ، تعرف بكل الوضوح كيف أسهم التفتح الحضارى الذى حمل لواءه الاغتراب العربى فى نموها وفى ازدهار العز فى ربوعها . بل قد تلمس أيضا كيف تنعمت هذه المدن حضاريا بوجود السوق فى ربوعها .

وما من شك فى أن مدن الأسواق التى تنعمت باسهام هذا الاغتراب ونالت منه حصتها قد عاشت تجربة حضارية هائلة . بل قل انها شهدت فى مرحلة التفرد ثورة حضارية ما كان وسع الوجود العربى أن يتنعم بها من غير انفتاح الاغتراب على الصعيد الخارجى . وهل جسد هذا التحول الحضارى

العظيم وخاصة فى مرحلة التفرد الاحتكارى الذى عززه الانفتاح المغترب شيئا أهم من هذه الثورة الحضارية التى ساقت الحياة الى الخطايا والفجور ؟ بل قل أن هذا التمادى فى التنعم الحضارى فى مرحلة التنافس قد اغرق الحياة الحضارية والاقتصادية فى أخطر مدارك المعاصى والضلال قبل الاسلام ·

ولكن أخطر وأعظم وأهم توجهات هذا الدعم فى هذين الشكلين ، هو الذى انتفع به التجار فى مدن الاسواق · بل انه هو الدعم الذى أحسن استثماره أعضاء هذه النخبة من التجار وأصحاب الاستثمارات التى وظفت بعناية فى تشغيل الاغتراب التجارى البحرى وفى جنى ثمرات التجارة الدولية والوساطة التجارية · ومحصلة هذا الدعم هى التى أحلت هذه النخبة فى المكانة المرموقة · بل قل انها هى التى اصطنعت من جمعهم ما نطلق عليه **تحالف التجاريين** قبل الاسلام · وتحالف التجاريين هذا هو الذى قاد وتحكم فى مسيرة الاقتصاد العربى قبل الاسلام ·

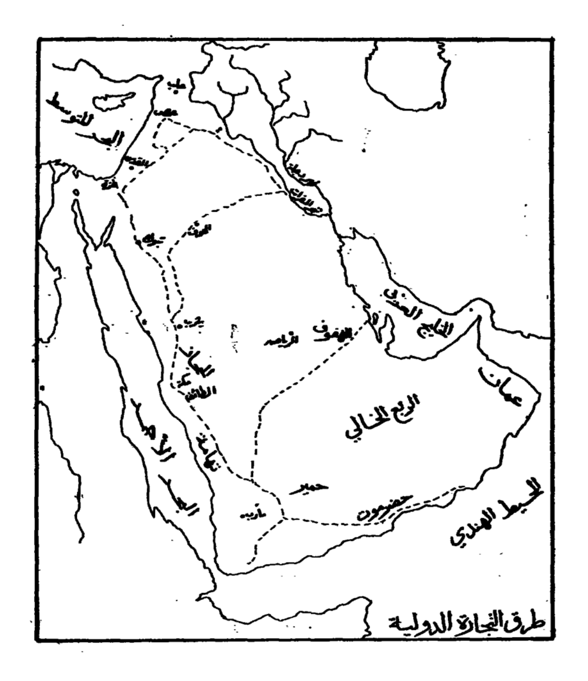
وصحيح أن استثمارات هذه النخبة ، قد حققت ارباحا وعوائد مجزية تنعمت بها حياتهم ، حتى تجاوزت حد البذخ والترف العفيف ، واوقعت بهم فى كل سوءات المعاصى والفجور والخطايا التى لوثت الواقع الحضارى وانحطت به الى الدرك الأسفل · ولكن الصحيح بعد ذلك كله هو أن محصلة هذا الثراء الذى احتوى الحق والباطل معا ، قد أعلى مكانة تحالف التجاريين وقوى ارادة السيطرة والتسلط فى قبضتهم الى أبعد الحدود · وأساء تحالف التجار استخدام هذه القبضة التى امسكت بزمام حركة الحياة اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا وفرضوا عليها السمع والطاعة ، وأوقعوا الوجود العربى الاجتماعى ، والواقع العربى الروحى ، والاجتهاد الاقتصادى العربى قبل الاسلام فى أحرم الحرام ·

•• •• ••

وهكذا ، ينبغى أن ندرك حقيقة وموضوعية وجدوى تحالف التجاريين وكيف قاد المسيرة العربية قبل الاسلام · كما يجبأن نتلمس مردودات العلاقة التى بررت قيام هذا التحالف من خلال :

١ ـ ابحار الخروج العربى المغترب وهو طالب الرزق ومغامر فى عرض البحر ومخلص فى عطائه الاقتصادى والحضارى ووفى للارض التى استثمر حسن توظيف موقعها الجغرافى فى حركة التجارة الدولية ·

٢ ـ اهتمام النخبة من رجال التجارة فى مدن الأسواق ، وهو آخذ


حلب
البحر المتوسط
تبوك
يثرب
مكة
الطائف
تهامة
الهفوف
الخليج العربي
عمان
الربع الخالي
حمير
مأرب
حضرموت
المحيط الهندي
طرق التجارة الدولية

بزمام التسويق وحركة الاقتصاد ، ومهيمن على التجارة ، وكل تحركاتها محليا وعالميا ، ومنكب بكل الهنم على جنى ثمرات الانفتاح والتفتح والتنعم به .

ومن خلال التقويم الواقعى لهذه العلاقة الوظيفية بين هذين الطرفين ، وما أسفرت عنه من سلبيات وايجابيات ، نعرف جيدا كيف نشأ تحالف التجاريين ومبررات هذه النشأة ومبلغ الحاجة الملحة اليها اقتصاديا على أقل تقدير . وهذا التحالف هو بالقطع تحالف وظيفى بررته اعباء الوظيفة الاقتصادية واشركت فيه أصحاب المصلحة والمنفعة المباشرة فيها . بل قل انه التحالف الذى جمع شمل اصحاب المصلحة المشتركة فى العمل التجارى والاقتصادى على صعيد جزيرة العرب وماورائها .

وبصرف النظر عن من الذى دعا الى هذا التحالف الوظيفى ، وبصرف النظر عن من الذى وظف من أو من الذى استثمر اجتهاد من ، ينبغى أن ندرك هذا التحالف وقد ألف قوة عمل اقتصادى حقيقية . بل كان من الطبيعى أن تصبح هذه القوة مركز الثقل الاقتصادى على الصعيد العربى كله قبل الاسلام . وعندئذ نعرف جيدا كيف تولى هذا التحالف الوظيفى وهو مركز الثقل الاقتصادى مسئولية الصياغة الفعلية لشكل وكنه وجوهر وضوابط الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام .

هذا ، ولقد طوع اركان هذا التحالف الوظيفى - التجار فى مدن الأسواق والمغتربون فيما وراء جزيرة العرب - كل فيما خصه ، وأحسن توظيف واستثمار قيمة المكان وموقعه الجغرافى (جزيرة العرب) ، فى توظيف مغامراته وابحار المغامر الذى أشبع تطلعه ونهمه الاقتصادى ، أو فى توظيف رأسماله التوظيف الأجدى الذى قلده المكانة والسيطرة والخبرة الاقتصادية . وفضلا عن ذلك أحسن كل طرف من هذه الاطراف المعنية توظيف الطرف الآخر توظيفا وثق العلاقة بينهما فلم تنتكس ابدا بل أصبحت علاقة مصير اقتصادى . ومن ثم عكف هذا التحالف الوظيفى بموجب ذلك كله على الهيمنة والتسلط فى شأن :

١ - بناء التركيب الهيكلى للاقتصاد العربى قبل الاسلام .

٢ - وضع قواعد النظام الذى ضبط وحكم الاقتصاد العربى قبل الاسلام .

الفصل الثالث

الاجتهاد الاقتصادي العربي قبل الإسلام

الفصـــل الثالث

الاجتهاد الاقتصادى العربى

قبل الاسلام

ماذا عن الاقتصاد العربى قبل الاسلام ؟

فى هذا المناخ الجغرافى الذى فزع حركة الحياة فى ربوع جزيرة العرب وطاردها الجفاف والتصحر بضغوط اقتصادية صعبة ، اعتبارا من نهايـــة العصر الحجرى الحديث ، وفى هذا المناخ الصحراوى المتدهور ، انبـــرى الانسان الى الانتشار والتشتت على الصعيد العربى أملا فى الانتصار لوجود وصمود الحياة فى جزيرة العرب ٠

وفى هذا المناخ البشرى الذى أمسك بزمام الثورة الاقتصادية الأولى وتعلم كيفية التحول من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء ، بدأ التضاد الحضارى المعروف بين البداوة وانتاج الغذاء الحيوانى والاستقرار وانتاج الغذاء الزراعى، وانبرى الانسان وهو طالب العيش والأمن الى آداء دوره وعمله الوظيفى فى اطار هذا الانشطار الحضارى ٠

ومن الوجود العربى فى جزيرة العرب من عاش البداوة بكل انطلاقاتها المتحررة حتى هدد وانتهك الأمن وأشاع الفزع ٠ومن الوجود العربى فى جزيرة العرب أيضا من عاش الاستقرار بكل ثباتها اليقظ حتى أمنت ثبـــات وجودها فى الأرض الذى فزعه عدوان البدو ٠ وتولى كل شطر من هذا الوجود أمر انتاج الغذاء ، وواكبت مسيرة حياته الاقتصادية واقعه الحضارى وتطلعاتـه فى ربوع انتشاره ٠

ولقد فرضت كل المتغيرات الحضارية والاقتصادية التى لعبت دورا بارزا فى حركة الحياة العربية منذ ذلك الوقت ،فريق التجار الذى استثمر التضاد الحضارى بين البدو والحضر ، وأحسن توظيف سلبيات هذا التضاد لحسابه٠ وما من شك فى أنه أقام الأسواق فى المكان المناسب جغرافيا لكى يجـــنى ثمرات هذا الاستثمار ٠ بل لقد عرف جيدا مكانه الصحيح فى اطار المصالحة بين البداوة والاستقرار ، اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا ٠

ولقد وظفت هذه الأسواق توظيفا بارعا وذكيا على صعيد هذا التضاد الحضارى • وابتدعت المصالحة واصطنعت هذه المسالمة المحدودة فى المكان والزمان ، وبررت ودبرت أمر التعامل بين البداوة والاستقرار • وأمسك فريق التجار ـ بكل المهارة ـ زمام هذه المصالحة بين البدو والحضر ، وجنى الربح الذى حققه التعامل فى اطار مظلة الأمن التى حققتها هذه المصالحة ، على صعيد التركيب الاجتماعى والحضارى والاقتصادى فى ربوع جزيرة العرب•

وتمادى التجار فى تشديد قبضتهم وفى تسديد خطواتهم البناءة اقتصاديا • ووظف التجار الاعتقاد الدينى توظيفا ذكيا ومؤثرا كفل ودعم وطور المصالحة وتشبث الأطراف المعنية بها • ومن ثم عرف جيدا كيفية اعلاء شأن التسويق حتى حول بعض مواقع الاسواق الى مدن للاسواق • ولقد حملتهم اجتهاداتهم التجارية الاقتصادية ومكانتهم المرموقة بالضرورة مسئولية كبيرة على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى العربى • بل حق عليهم بالفعل الاجتهاد فى شأن صياغة وبناء ودعم الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام •

وصياغة أو بناء الواقع الاقتصادى بكل أبعاده ، مسألة صعبة بالفعل ولا يستهان بها • بل انها قضية تداخلت فيها أمور كثيرة ومتغيرات متنوعة على المدى الطويل • وتأتى البناء بين مد لحساب أو لصالح الاجتهاد الذى انكب على انجاز البناء أحيانا وجزر تضرر به هذا الاجتهاد وتصدى لاحباط الضرر أحيانا أخرى • وهذا معناه أن هذا البناء الاقتصادى لم يفرغ فى يوم وليلة بل تفرغت لانجازه مسيرة طويلة وخطوات متأنية على طريق حركة الحياة فى جزيرة العرب قبل الاسلام •

ولقد اقتضت هذه المسيرة الطويلة أن تواجه المواقف التى لعبت فيها المتغيرات الحضارية والاقتصادية والسياسية دورا بارزا أثر فى قضية البناء الاقتصادى • وكم تعثرت هذه المسيرة على الطريق الطويل :

١ ـ عندما نشب الصراع الحضارى الذى فرضه التضاد الحضارى الحتمى بين البداوة والاستقرار •

٢ ـ عندما تصاعد الجفاف وزاد النمو السكانى وتأتى عدم التوازن الغذائى ، وفرج الخروج العربى على أى وجه كربة الحياة •

٣ ـ عندما نجح الاقتحام الرومانى فى انهاء التفرد الاحتكارى الاقتصادى العربى فى ميدان الابحار فى المحيط الهندى وفى التجارة الدولية •

ومع ذلك لعب التجار دورهم البارع اقتصاديا فى خضم هذه المتغيرات وما أسفرت عنه من نتائج اقتصادية · وتجلى انجاز هذا الدور البارع اقتصاديا فى حسن توظيف الايجابيات فى كل مرحلة وفى كل عصر لحساب التقدم فى حركة الاقتصاد · وكان أروع ما وصل اليه هذا الابداع هو حسن توظيف العلاقة بين الوجود العربى فى جزيرة العرب والخروج العربى الاستيطانى والابحار العربى المغامر فى طلب الرزق فى صياغة أو بناء الواقع الاقتصادى العربى فى الجزيرة العربية قبل الاسلام · ولقد أجاد التجار أو تحالف التجاريين وهم أصحاب الهيمنة الاقتصادية وأصحاب الزمام والاجتهاد الذكى فى بناء الواقع الاقتصادى فى اشراك وتوظيف محصلة العلاقة فى دعم وترسيخ وتنمية الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام ·

وعندئذ ، يجب أن ندرك الكيفية التى أدت بموجبها هذه العلاقة وفى اطار المتغيرات الى قيام هذا التحالف الوظيفى · بل يجب أن نتلمس الكيفية التى تأتى بها الاسهام بين شريك حاضر فى جزيرة العرب ، وشريك غائب عنها ، من أجل آداء ضرورى وجوهرى وانجاز فعال فى صياغة وتكوين وجمع أوصال الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام ·

وفى شأن الشريك الغائب عن جزيرة العرب ، يجب أن نميز بين شريك طالت غيبته وجدوى اسهامه وهو الذى لم يعد ، وشريك غاب وجدوى اسهامه وهو الذى ألف الذهاب والعودة · وما من شك فى أن الفرق كبير بين جدوى الاسهام فى هاتين الحالتين · بل الفرق أكبر بين حقيقة انتماء كل منهما الى صلب هذا التحالف · وفى اعتقادى أن الشريك الذى ذهب ولم يعد كان على هامش هذا التحالف ، تعاون معه ولم يستوجب تعاونه الانتماء الحقيقى · أما الشريك الذى ذهب وعاد فهو الذى انتمى الى صلب هذا التحالف وتداخل فى بنيته الوظيفية ·

ومع ذلك ، يجب أن نفهم كيف كان التجار الذين اعتلوا المكانة المرموقة فى مدن الأسواق هم صلب التحالف الحقيقى · وفى مقابل سيطرة التجار على التسويق المحلى وعلى حركة المرور التجارى ، كانت لهم القيادة وأصبح الزمام فى أيدى الخبرات التى اكتسبوها · بل قل أن هذه الخبرة الماهرة قد احسنت توظيف واستثمار العلاقة والصلة والمصالح المشتركة بينها وبين الشركاء سواء من كان منهم شريك انتماء فعلى الى صلب التحالف ، أو من كان منهم شريك تعاون مع التحالف · ومن ثم استحق التجار مكان الصدارة فى هذا التحالف · ومن

هذا المكان وبهذه المكانة تصدى التحالف لتوجيه مسيرة الاقتصاد العربى ، تولى الهيمنة على الواقع الاقتصادى فى جزيرة العرب قبل الاسلام .

ومن أجل أن نتلمس انجاز هذا التحالف الوظيفى ، الذى قاد ووجه وطور حركة الاقتصاد ، وقبل الوجود العربى من البداوة والاستقرار بموجبة ذلك الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام ، ينبغى أن نعرف جيدا كيف :

١ ـ انكب الناس من أهل البداوة وأهل الاستقرار كل فى حقل عمله من أجل انتاج الغذاء . بمعنى أن نقوم الآداء الوظيفى الذى تهيأ لاستخـــدام الموارد المتاحة ، وأن نحسب جدوى الاجتهاد الاقتصادى الزراعى ومبلغ اسهامه الفعلى فى البناء الاقتصادى العربى وجدوى الاجتهاد الاقتصادى الرعوى ومبلغ اسهامه الفعلى فى هذا البناء .

٢ ـ اتجه الابحار العربى التجارى اتجاها ملتزما الى حقل التعامـل التجارى من أجل تأمين حركة التجارة الدولية . بمعنى أن نقوم الآداء الوظيفى الذى تهيأ للوساطة التجارية ، وأن تحسب جدوى الاجتهاد الاقتصادى التجارى الغائب ومبلغ اسهامه الفعلى فى البناء الاقتصادى العربى .

وبناء على ذلك ، يمكن أن نعرف بالضبط مبلغ اسهام التجار فى التنسيق بين هذه الاجتهادات الاقتصادية الحاضر منها فى جزيرة العرب والغائب عنها ، وجدوى هذا التنسيق فى حسن توليفة البناء الاقتصادى . كما يمكن أن نعرف أيضا كيف وظفت هذه النخبة المرموقة المكانة والخبرة والتقاليـــد والاعراف التوظيف البناء فى شأن :

١ ـ ارساء القواعد والأسس والاحوال التى جسدت البناء الاقتصادى العربى .

٢ ـ وضع الاطار الحاكم الذى اصطنع نظاما اقتصاديا عربيا واضح المعالم قبل الاسلام .

وهذا معناه بالضرورة ، أن نتبين كيف كان التعامل فى اطار الواقـــع الاقتصادى قبل الاسلام ، وكيف وظفت العلاقة بين الحضور العربى الغائب وهذا التعامل ، لأنجاز المهمة الاقتصادية . ويستوى فى ذلك أن كان هـذا الانجاز انجازا بناء تمثل فى ارساء وترسيخ البناء الاقتصادى وتركيبـــه الهيكلى فى التوليفة المتجانسة ، أو تمثل فى صياغة النظام الحاكم الذى صان هذا البناء وشد أوصاله وحدد أهدافه وتطلعاته .

ومع ذلك ينبغي أن نطل على هذا الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام بكل التجرد والترفع فى وقت واحد ، ودون تحامل على خطاياالجاهلية أو تعريض بانحرافاتها أو تجريح سوءات النظام ومثالبه التى أردته فى أحرم الحرام . بل يجب أن نتبين النظام الذى ضبط حركة الحياة الاقتصادية ، من غير امعان أو تماد فى تطبيق رؤية ومنطق الاسلام واخلاقياته وطهره وعفافه على واقع اقتصادى عاش وكانت خطاياه متنوعة فى الماضى البعيد قبل الاسلام .

ومعلوم أن طبيعة وشكل ومقومات الواقع الاقتصادى والنظام الذى حكمه ، قد أسفرت عنه أو اصطنعته اجتهادات اقتضتها حاجات العصر وأثرت عليها المتغيرات الاجتماعية والحضارية الحاكمة انذاك لحركة الحياة وتطلعاتها السائدة فى جزيرة العرب فى ذلك الماضى البعيد . بمعنى أن هذه الصفحة من صفحات التراث العربى القديم ، وهى التى احتوت على بيان شامل فى شأن هذا الواقع الاقتصادى قبل الاسلام هى - بالضرورة - كشف وتعرية فعلية للخطيئة الاقتصادية ومبلغ انسياقها فى الضلال . ومع ذلك فهى غير الصفحة أو الصفحات التى سجلت الواقع الاقتصادى الطاهر المنزه عن الضلال فى عصر آخر طهره الاسلام(١) .

.. .. ..

الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام :

هذا ، وعلى صعيد جزيرة العرب قبل الاسلام ، وعلى المدى الطويل الذى شهد المتغيرات المناخية وضغوط عدم التوازن الغذائى ، وقد أسفرت عن التغير الحضارى والتغير الاجتماعى والتغير السكانى والتغير الاقتصادى ، تضافرت كل الاجتهادات التى اشتركت بشكل أو بآخر فى بناء وصياغة توليفة جسدت

---

(١) لا تعارض اطلاقا ، بين اختلاف منطق وطبيعة ونظام الاقتصاد من عصر الى عصر آخر من ناحية ، واستمرار مسيرة حركة الاقتصاد لحساب الحياة التى لا تتوقف من ناحية أخرى . والاختلاف من عصر الى عصر آخر هو بالقطع وليد الحاجة والمتغيرات فى كل عصر والاستجابة لمنطق التغير فى ظروف كل عصر . أما الاستمرار الذى يكفل التحول من واقع اقتصادى الى واقع اقتصادى آخر أو من نظام اقتصادى الى نظام اقتصادى آخر أو التحول الذى يسقط عن النظام الاقتصادى بعض عيوبه أو ينتشله من بعض انحرافاته وخطاياه أو يطهره من الحرام ، هو بعينه من طبيعة الاستمرار الذى تحرص عليه حركة الحياة .

الواقع الاقتصادى • بل قل ان هذه الصياغة قد حددت معالمه وملامحه التحديد الواضح•وقد لا نبرأ هذه الصياغة من بث أسباب التطلع فيه الى ما هوأفضل، زمن توطين عوامل ومبررات الانحراف والسقوط فى براثن الضلال والخطايا •

وحركة الحياة العربية التى توجهت على هذا المدى الطويل قبل الاسلام، فى مسيرة حفلت بالأحداث والمتغيرات قد جسدت أيضا مدى التطور فىالواقع الاقتصادى • وما من شك فى أن هذا التطور قد جاوب التطلعات من ناحية، وانصاع للمتغيرات من ناحية أخرى • وهل يمكن أن ننكر أو أن نستنكرالتغير المناخى والتغير الحضارى والتغير الاقتصادى وكيف افضى الى نتائج جمه ومواقف محددة ومثيرة ؟ وما من جدل فى أن هذه النتائج والمواقف المثيرة ، قد أفضت وكفلت واستدعت أو استوجبت التطور والتغير فى الواقع الاقتصادى من حين الى حين آخر ، على المدى الطويل •

وقد ندرك بناء على ذلك ، الكيفية التى أسهم بها التطور فى الواقع الاقتصادى فى توجيه مسيرة الحياة بكل أبعادها الحضارية والاقتصادية • ولكن من غير افراط أو من غير تفريط فى معنى ومغزى وجدوى هذا التطور الواقعى فى توجيه وتوجه وانصياع مسيرة الحياة العربية قبل الاسلام ، يجب أن ندرك بالضبط كيف :

١ ـ جاوب هذا التطور ارادة الثورة الاقتصادية الأولى ، التى حفزت ورسخت التحول الاقتصادى من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء • ولقو تولى هذا التحول الاقتصادى بموجب الانشطار الحضارى العربى الى بداوة واستقرار أمر ترسيخ الواقع الاقتصادى الذى اصطنعه الاجتهاد الاقتصادى الانتاجى الحيوانى والاجتهاد الاقتصادى الانتاجى الزراعى •

٢ ـ جاوب هذا التطور ارادة الخروج العربى التى حققت شكلا من تخفيف الضغوط على طلب الغذاء وأعطت قدرا مناسبا من النتائج لاستعادة التوازن الغذائى كلما انتابه الخلل من حين الى حين آخر على المدى الطويل ولقد انتفع هذا التطور الاقتصادى بالجدوى الاقتصادية التى أسفر عنها تعاون وانجاز الخروج العربى الاستيطانى من جانب ، واسهام الابحار التجارى المغامر المباشر من جانب آخر • واضاف هذا الانفتاح اجتهادا اقتصاديا عزز التطور الاقتصادى العربى قبل الاسلام •

وهذا معناه ، أن الجمع الكبير والمتنوع الخبرات والاجتهادات من

الشركاء قد ألف بينهم الهدف الاقتصادى • بـل وأشركهـم هـذا الهدف الاقتصادى ـ بكل الضرورة ـ فى المصير الاقتصادى • ولقد اشترك كل فيما خصه وبما اهتم به فى الممارسة الاقتصادية وفى الاجتهاد الاقتصادى اجتهادا مثابرا • وكانت المحصلة هى صياغة وترسيخ الواقع الاقتصادى وتطـويره امتثالا للمتغيرات فى الداخل والخارج التى تأتت من عصر الى عصر آخر •

ولقد ضم هذا الجمع الكبير المتنوع الاجتهادات ، أهل البداوة وأهـل الاستقرار ، جنبا الى جنب مع فئة التجار فى الاسواق وفى مدن الأسواق • وحققت المصالحة الفرص التى نسق بموجبها التجار ووجه هذه الاجتهادات • كما انضم الى هذا الجمع أو التحقق به أيضا اصحاب الاهتمام بالابحار العربى التجارى المغامر والعاملون فى الوساطة التجارية وحركة التجارة الدوليـة بين مدنيات الشرق فى المحيط الهندى ومدنيات الغرب فى البحر المتوسط • وأصبح هذا الجمع كله شريكا فى ترسيخ العمل الاقتصادى وتحديد معالم الواقع الاقتصادى المتطور والمتغير من عصر الى عصر آخر قبل الاسلام •

والترسيخ الذى نعنيه بالضبط ، وهو الذى اشترك فيه هذا الجمع كل باجتهاده الاقتصادى ، قد تمثل بالضرورة فى صياغة البناء الاقتصادى العربى بصفة عامة • كما تمثل بالضرورة أيضا فى وضع هذا البناء الاقتصادى فى اطار التركيب الاقتصادى أو التوليفة الاقتصادية التى استوعبت الاجتهاد الاقتصادى وجاوبت مصالح كل الشركاء المنتفعين به • ولا يمكن أن نقول أن الشركاء كانوا اندادا أو أن اجتهاداتهم كانت متماثلة • بل قل انها كانـت اجتهادات متفاوتة وأن عدم الندية لا ولم تضيـع حق الاشتراك أو جـدوى الاسهام •

وفضلا عن ذلك ، تمثل هذا هذا الترسيخ فى أمرين هامين هما :

١ ـ تحديد الأيدى أو القبضة التى ابتدعت القواعد والأصول والأسس التى حددت معالم النظام الذى احتوى وحكم وضبط حركة الاقتصاد التى نما وتطور بموجبها الواقع الاقتصادى العربى •

٢ ـ الزام الاجتهادات الاقتصادية التى اشتركت بشكل أو بآخر فى البناء الاقتصادى بقبول هذا النظام وعدم الاعتراض على موجبات العمل به والاقرار بقواعده وتقاليده •

ومهما يكن من أمر ، فانه ينبغى أن نتبين شكل وطبيعة ومعالم البناء

الاقتصادى العربى قبل الاسلام . كما ينبغى أن ندرك كيف ابتنته اجتهادات الوجود العربى فى جزيرة باشتراك ودعم من الاغتراب الغربى فى عالم المحيط الهندى ، وكيف كان الاشتراك ضرورة ألحت لحساب حركة الحياة وانتصارا لصمودها فى جزيرة العرب قبل الاسلام .

كما ينبغى أن نتبين معالم النظام الاقتصادى العربى وكيف ابتدعه تحالف التجاريين الذى تفتح حضاريا وتخبط روحيا وأثرى اقتصاديا . كما يجب أن ندرك كيف أساء التخبط الروحى الى الاعتقاد الدينى الذى ضل وأضل معه النظام الاقتصادى العربى قبل الاسلام .

ومن ثم نستطيع أن نحسب مبلغ انسياق الواقع الاقتصادى الذى امتثل أو انصاع لهذا النظام حتى انكب على وجهه فى ضلال مبين وتردى فى حضيض الحرام . كما نستطيع أن ندرك كيف تضررت سلامة البناء الاقتصادى بهذا الضلال أو الحرام ، وكيف اختل بموجبه الاتزان الاقتصادى العربى قبل الاسلام . ولقد استحق الواقع الاقتصادى الذى افتقد اتزانه وضاع فى دوامة الحرام ، أن يتولى أمره الاسلام وأن ينصاع لارادته . وما من شك فى أن الاسلام بكل الطهر والعفاف قد اعتنى بانتشال الواقع الاقتصادى العربى من مواطن الزلل والخطيئة والحرام . بل قل أنه هو الذى قومه وهداه ورشده وطهره وأعاده الى السبيل القويم(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان مطالعة الواقع الاقتصادى بكل ماله من ايجابيات استحقت الثناء وما عليه من سلبيات اساءت الى أهدافه قبل الاسلام وجرمته والقت به فى الضلال ، لا تتأتى - بكل الوضوح والموضوعية - من غير التعرف فى رفق على :

١ - البناء الاقتصادى وكيف شادته وضعت لبنائه وطورته اجتهادات عربية فعالة ومثابرة ومثمرة على المدى الطويل .

٢ - النظام الاقتصادى وكيف ضبط نمو البناء الاقتصادى وأضل توجهاته وأساليب الانتفاع السوى به .

---

(٢) شاءت ارادة الله أن التحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمل فى اطار التجارة . ولقد اقترب من تحالف التجاريين اقترابا كشف له سوءات وانحرافات كثيرة شوهت الواقع الاقتصادى . بل لقد أحاط علما بواقع هذه الفئة التى كانت بذاتها التحدى الكافر الذى عمل على محاربة الاسلام واحباط الدعوة الى الله . وما رفض معظم هؤلاء الاسلام لمجرد الرفض بل تخوفا على المكانة الاقتصادية التى كانت قد تحققت لهم من قبل الاسلام .

البناء الاقتصادي العربي :

صحيح أن البناء الاقتصادي فى دنيا جزيرة العرب قبل الاسلام كان بسيطا . وما انطوى تركيبه الهيكلي على تعقيدات كثيرة غرقت وتمادت فيها البناءات الاقتصادية فى مدنيات قديمة معاصرة . وصحيح أيضا أن مصادر المعرفة لا تبصر به كثيرا وخاصة فى المراحل المبكرة فى الالف الثانية قبل الميلاد . وما نبرىء ارادة التفرد من تعمد الابهام والغموض والصمت تخوفا من المنافسات المعاصرة . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أو وضع وارساء اللبنات التى تكون بموجبها هذا البناء الاقتصادى قد استغرق وقتا طويلا . وما فى وسعنا أن ننكر الاجتهادات الاقتصادية التى عملت وكدت فى اصطناع هذا البناء الاقتصادى ، منذ تفجرت فى ربوع جزيرة العرب الثورة الاقتصادية الأولى وتحول الاجتهاد العربى من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء .

وقد لا نعرف جيدا كيف نحدد بداية حقيقية موثوق فى صحتها لهذا التحول الثورى الاقتصادى ، والشروع فى وضع وارساء اساس البناء الاقتصادى ، فى غيبة التنقيب عن آثار وتراث ومخلفات وشواهد ذلك الماضى البعيد . بل ان القصة أو الرواية أو حتى الشعر وهو المعبر عن ضمير ووجدان ونبض حركة حياة الأمم والشعوب ، لم يضم التسجيل الواضح الذى نفترض فيه الابقاء على بعض هذا التراث العريق . وفضلا عن الغموض الحقيقى والابهام المعتمد قبل الاسلام(٣) ، لف هذا التراث العريق مزيد من الغموض والابهام ، حين رفض بعض المسلمين وانكروا واستنكروا أى بحث أو أى اجتهاد أو أى تفكير اهتم بالتراث العربى الجاهلى . وما أسفر هذا الرفض المتزمت فى غير الحق عن شىء أخطر من الجهل أو الابقاء على الجهالة والتجهيل بهذا التراث .

ومع ذلك ، لا ينبغى السكوت على هذا الجهل والتجهيل فى أمر يخص

---

(٣) كان الغموض والابهام قبل الاسلام وليد الرغبة فى التكتم والاخفاء تخوفا على المصالح التجارية من المنافسة الاقتصادية . وصحيح أن توظيف بعض الأساطير الذى فزع أى اقدام جرىء على هذه المنافسة كان مجديا فى بعض الأحيان . ولكن الصحيح أيضا أن توظيف الصمت والسكوت حيث لا كلام صريح أو تلميح مباح ترددء القصص أو تحكيه الرواية ، ولا كتابة واضحة تسجل الاجتهاد الاقتصادى ، هو الشىء المتوقع فى اطار هذا التشبث بالتكتم واشاعة الغموض . بل قل انه هو بعينه الامعان أو التمادى المتعمد فى التمويه والتعمية والاستغراق فى الغموض والابهام لحماية المصالح التجارية .

البحث العلمى الموضوعى وتقصى الحقائق ٠ بل والبحث فى هذه القضية مطلوب بالحاح لكى ندرك كيف انكب الواقع الاقتصادى قبل الاسلام فى الحرام ، وكيف تدارك الاسلام حق الحياة وانتشله من الحرام ٠ ومن ثم ينبغى أن يخترق البحث حواجز الابهام والغموض ، وأن يتجاوز نداء الرفض والاستنكار ، وأن يجتهد فى تقصى واستقرار بعض الشواهد ٠ ولا يعيب البحث أن يتصور أو أن يتخيل كيف اتبنى هذا البناء الاقتصادى على المدى الطويل ٠ كما لا يعيب البحث أيضا أن يتلمس اجتهادات الشركاء فى المصير الاقتصادى ومبلغ أسهامهم فى صياغة وترسيخ هذا البناء واكتمال تركيبه الهيكلى فى وقت سابق للاسلام ٠ ولا تثريب على التصور الذى لا يضل لأنه لا يبدأ من فراغ ولا يشرد فى شطحات الخيال ولا يبتغى غير الحقيقة الخالصة٠

وقل ولا تثريب والله على هذا التصور الحذر وهو مؤمن ، حتى لو امتدح هذه الاجتهادات الاقتصادية العربية التى عملت وتعاونت من أجل المصير الاقتصادى المشترك ٠ بل ولا لوم على المديح أو الثناء اذا كانت الانجازات الاقتصادية التى أسفرت عنها هذه الاجتهادات قد استحقت فى ذلك العصر الاطراء ٠ وفى اعتقادى أن المديح والثناء كله ، يجب أن يوجه ــ بكل تأكيد ــ للكفاح الاقتصادى الفعال الذى تصدى بكل الجدية والاجتهاد المثابر للظروف الصعبة والمتغيرات القاسية والضغوط الشديدة ، التى تحدت ارادة الحياة العربية وقترت عليها ٠ وما من شك فى استحقاق هذا الكفاح الاقتصادى الصامد التقدير ، وهو الذى أفلح فى الانتصار على كل الضغوط التى تلاعبت بالمصير الاقتصادى العربى وعرضت وجوده للهلاك مع كل خطوة من خطوات التمادى فى الجفاف والتصحر ٠

استنفار الكفاح الاقتصادى العربى :

تحديات كثيرة قد واجهت الوجود العربى وأصدرت عليه أحكاما جائرة٠ ولقد استنفرت هذه التحديات بكل ضغوطها الكفاح الحقيقى الذى جاوب نداء الحياة ٠ وهذا الكفاح الذى تصدى فى الماضى البعيد وعلى المدى الطويل ، لاحباط أو لابطال مفعول الضغوط وبطش التحديات لكى تنتصر الحياة فلا تستسلم ، هو كفاح لا أقول عنه بطولى من وجهة النظر الاقتصادية فقط بل أقول انه كفاح اقتصادى مشروع باركه الله ٠ وما حرم الله الكفار عن عمد أو عن غير عمد من واسع رحمته أو من رزق لبى نداء الحياة ٠ بل وهل يبرر رفض الوثنية والاعتراض على الشرك والتنديد بالكفر الذى أضل الاقتصاد

العربى قبل الاسلام ، من جانبنا ، انكار أو استنكار الاجتهاد والكفاح فى استخدام الموارد المتاحة أو فى طلب الرزق ؟

ويجب أن نثق فى أن التصدى والصمود والاستماع الى نداء الحياة فى مواجهة الضغوط ومصارعة التحديات الصعبة ، هو الذى استنفر الاجتهاد الاقتصادى وجعل منه كفاحا فعالا ومشروعا من وجهة النظر الاقتصادية • بل انه الكفاح المثابر الذى جسد الكيفية التى طوع بموجبها الاجتهاد الاقتصادى العربى هذه الضغوط والتحديات ولم يطاوعها • وما كان فى وسع الوجود العربى أن يجنى ثمرة هذا الكفاح الاقتصادى انتصارا لو أنه طاوعها وامتثل لارادتها وانصاع لعدوانها الذى انتهك وجود ومصير الحياة • وهل يرضى الله رب العالمين استسلام الحياة أو امتثال الاجتهاد الاقتصادى امتثالا يفقد الانسان حقه ووجوده وسيادته على الأرض ؟

ومهما يكن من أمر أى جدل فى حق ومشروعية الاجتهاد الاقتصادى امتثالا لنداء الحياة ، فان الكفاح الاقتصادى العربى كان كفاحا اقتصاديا مناضلا ومثابرا • بل لقد كان هذا الكفاح الاقتصادى مجتهدا • ومعيار الاجتهاد والتمادى فى الاجتهاد هو أنه انتصر وتمادى فى الانتصار الى الحد الذى أمن الحياة • بل قل – بكل الثقة – أنه الكفاح الاقتصادى الفعال الذى سجل الانتصار الباهر من مرحلة الى مرحلة أخرى فى ظروف المتغيرات الصعبة • بل قل أيضا أن هذا الانتصار المتكرر قد تمادى الى حد ابتناء القاعدة العريضة الاساسية التى ارتكز عليها البناء الاقتصادى قبل الاسلام •

ولقد واجه هذا الكفاح الاقتصادى العربى على المدى الطويل نوعين من الضغوط • وصحيح أنه قد تصدى فى مراحل متكررة لابطال مفعول هذه الضغوط • ولكن الصحيح أيضا أن هذين النوعين من الضغوط التى تكررت وتمادت ، ولم تكف ابدا على المدى الطويل قد أرهقت هذا الكفاح • بل قل انها كانت العدوان الخطير الذى أهدر أمن ومصير الحياة • وهذان النوعان من الضغوط هما ، الضغوط التى فرضها التحدى المناخى ، والضغوط التى انذر بها التضاد الحضارى •

والضغوط التى فرضها التحدى المناخى ، هى ضغوط اقتصادية هددت أمن الحياة العربية فى لقمة العيش • ولم تتمثل هذه الضغوط الاقتصادية فى زيادة معدلات التصحر والتمادى فى الجفاف الذى أسفر عن القحط والنقصان فى الانتاج الغذاء أو فى العرض من كم الغذاء فقط ، بل تمثلت

فى زيادة معدلات الطلب بعد أن تمادى النمو فى السكان • وما أخطر هـذا الخلل بين نقص فى العرض وزيادة فى الطلب • وهذا هو الضغط الاقتصادى الخطير الذى تسبب فيه التمادى فى عدم التوازن الاقتصادى الغذائى •

والضغـوط التى انذر بها التضاد الحضارى ، هى ضغوط عدوانيـة ، أهدرت روح السلام والتعايش السوى بين البداوة والاستقرار • ولم تتمثل هذه الضغوط العدوانية فى صراع أو فى ملاحم قتال هددت روح الاخاء فى البناء العربى فقط ، بل تمثلت فى ارهاق الوجود العربى وتربص الصراع بالمصير الاقتصادى العربى • وما أخطر هذا الارهاق والتربص الذى زلزل الكيان العربى • وهذا هو الضغط العدوانى الخطير الذى انذر التمادى فيه بانهيار وتصدع الوجود العربى •

وهذه الضغوط ، سواء كانت اقتصادية وقد تكررت من وقت لآخر(٤)، أو كانت حضارية وقد انذرت بانهيار يضيع بموجبه الوجود العـربى ، قـد هزت الأوضاع العربية هزا عنيفا قبل الاسلام • وأيقظت هذه الهزات الكفاح العربى ، بل قل انها استنفرت فيه كل الطاقات والقدرات والحوافز • ولقد أسعف هذا الاستنفار الكفاح الاقتصادى العربى وأمده بكل الانجـــازات الايجابية أو الانجازات السلبية التى أمنت الوجود العربى وجنبته مضرة واخطار هذه الهزات المتكررة ، أو المستمرة • وفى اعتقادى أن هذا الاستنفار الذى شد أزر الصمود العربى قد رسخ فيه الجلد والصمود ترسيخا تداخل فى وجدانه وتوارثته الأجيال وما فرطت فيه أبدا •

ولقد نجح هذا الكفاح الاقتصادى العربى نجاحا منقطع النظير بمقاييس الماضى الطويل قبل الاسلام ، عندما اصطنع بكل التأنى فى كل مرة التوازن

---

(٤) لكى ندرك معنى زيادة معدلات التصحر ، وهو بالضبط معنى تمادى الجفاف والقحط . قارن بين الصورة النباتية الطبيعية وهى نتيجة ومرآة تعكس حالة المطر (كمه وتوزيعه) فى العصر الذى اصطحب فيه أبرهة الأشرم الفيلة أو حتى الفيل الواحد ووجد الطعام الذى كفله النمو النباتى الطبيعى على الطريق من صنعاء الى مكة من جانب ، والصورة النباتية الطبيعيـة التى تدهورت تدهورا حقيقيا الى حد لا يمكن أن تشبع الفيل أو تلبى حاجته فى الوقت الحاضر• والتمادى فى الجفاف هى الحقيقة الطبيعية المناخية الثابتة التى بدأت منذ نهاية العصر الحجرى الحديث • وما من شك فى أن الاستمرار لا يعنى غـير التمادى فى الجفاف ولم ينتهك هـذا التمادى فى الجفاف والنقص فى الموارد أى زيادة فى كم المطر على طول هذا المدى •

الغذائى واعاده الى الوضع العادى الأنسب(٥) • بل حقق هذا الكفاح الاقتصادى العربى النجاح أيضا ، عندما أرسى بكل التأنى القاعدة التى ارتكز عليها البناء الاقتصادى العربى • بل قل أن مقومات هذه البنية الاقتصادية التى اصطنعت، على المدى الطويل ، كانت سليمة ومتماسكة الى الحد المعقول فى ذلك الوقت •

وفى شأن سلامة وصمود هذه البنية الاقتصادية العربية قبل الاسلام ، يكفى أن ندرك انها لم تفقد توازنها امام الضغوط الاقتصادية الى حد الانهيار• بل كانت من خلال الخروج العربى النازح أو من خلال الابحار المغامر ، تستعيد توازنها الغذائى اقتصاديا • كما ندرك أيضا انها لم تفقد توازنها أمام الصراع الحضارى بين البداوة والاستقرار بالشكل الذى عرض مسيرتها أو سلامة تماسكها للخطر أو الانهيار • وحتى فى بعض الحالات الشاذة التى هزت فيها الضغوط هذه البنية الاقتصادية وعرضت مصالح الناس فيها للخطر ، كان هذا الخطر خطرا مؤقتا • بل أن ذلك الاهتزاز الاستثنائى لم يزلزل قاعدتها الزلزلة التى أثرت على سلامتها وتماسكها الصلب •

وفى الوقت الذى كانت فيه الهجرة أو كان الاغتراب ، قد أبطل مفعول الضغوط المناخية وأضرار التمادى فى الجفاف والتصحر فلا يصل الأمر الى حد استمرار عدم التوازن الغذائى بين الانتاج والاستهلاك ، أو بين العرض والطلب والتردى فى حالة المجاعة ، كانت مكانة فئة التجار (تحالف التجاريين) وخبراتهم وقبضتهم القوية فى مدن الأسواق ، قد أحبطت روح التمرد الحضارى أو مد العصيان والخروج على روح المصالحة واختراق أو تجاوز حدها الأدنى، فلا يصل الامر الى حد التفسخ بين البداوة والاستقرار ، وافتقاد حالة الأمن وانهيار وحدة البناء البشرى العربى •

وهل أفضل من الكفاح الاقتصادى الذى تجنب استمرار عدم التوازن الغذائى شىء فى شأن الابقاء على صمود البناء الاقتصادى وصيانته ؟ ونستطيع

---

(٥) اعادة الوضع الاقتصادى الى حالة التوازن الغذائى مسألة لا يحققها الا أحد احتمالين هما :

أ — زيادة الانتاج وزيادة الارض من الغذاء زيادة تكافىء الزيادة فى طلب الغذاء وهذا أمر جائز فى غير حالة تمادى الجفاف •

ب — انقاص معدلات الطلب الى حد يتكافىء مع العرض الفعلى من الغذاء • وهو أمر حدث بالفعل من خلال الخروج العربى الاستيطانى •

أن ندرك جدوى هذا الكفاح الاقتصادى ليس فى اعادة التوازن الغذائى الى حالته العادية فقط ، بل لقد تعلم هذا الكفاح من كل تجربة صعبة شيئا أحسن توظيفه ٠ واتخذ من ذلك سبيلا من أهم سبل التطور الاقتصادى بمعنى أنه الكفاح الاقتصادى الذى انتشل الواقع الاقتصادى من كبوته واصطنع من موجبات هذه الكبوة انتصارا اقتصاديا بالفعل ٠

وهل أجدى من الكفاح الاقتصادى الذى تجنب التفسخ فى البناء البشرى العربى شىء فى شأن الابقاء على مصالح الشركاء المنتفعين بالبناء الاقتصادى ؟ ونستطيع أن ندرك جدوى هذا الكفاح الاقتصادى ليس فى الحفاظ على حالة الأمن فقط ، بل لقد تعلم هذا الكفاح من كل تجربة صعبة شيئا أحسن توظيفه ٠ واتخذ من ذلك أيضا سبيلا من أهم سبل التطور الاقتصادى بمعنى أنه الكفاح الاقتصادى المغامر الذى انتشل الواقع الاجتماعى من متاعبه ، واصطنع من موجبات هذه المتاعب انتصارا اجتماعيا بالفعل ٠

الاجتهاد المشترك فى البناء الاقتصادى العربى :

قدرة الكفاح الاقتصادى على التصدى للضغوط الى حد الابقاء على صمود البناء الاقتصادى وسلامة البناء البشرى ،معناها أنه كان كفاحا مرنا ٠ ومعناها أيضا أن ثمة قدرات وخبرات وتوجهات حصيفة ماهرة ، كانت يقظة وما أفلتت من أيديها أبدا الخيوط التى حافظت بها على سلامة النسيج البشرى والبناء الاقتصادى ٠ بل قل أن هذه الأيدى كانت ترعى وتصون وتبقى على الوضع السوى اقتصاديا واجتماعيا ، فى ربوع جزيرة العرب قبل الاسلام ٠

وقدرة الكفاح الاقتصادى التى جنبت الأوضاع العربية مزالق وهوات التعرض لأى خلل خطير ، وكان من الممكن أن تضر بمصالح الناس وحركةالحياة قبل الاسلام معناها أنه كان كفاحا فى الاتجاه الصحيح ٠ ومعناها أيضا أن الأيدى التى امسكت بزمام هذا الكفاح الاقتصادى كانت رشيدة وعرفت جيدا معالم الطريق الاقتصادى الصحيح ٠ وحتى التمادى فى الاقطاع التجارى (تحالف التجاريين) الذى كفل المكانة المرموقة لفئة التجار فى أهم مدن الأسواق ، لم يضل فى توجيه حركة الاقتصاد ولم ينتهك سلامة هذا البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام ٠

ومن غير أن تنتهك البداوة حق الاستقرار ومصالحه فى ريف الزراعة وانتاج الغذاء الزراعى ، ومن غير أن يضيق الاستقرار الخناق على حق البداوة

ومصالحها فى ربوع المراعى وانتاج الغذاء الحيوانى ، ومن غير أن يهدأ الخروج العربى والاغتراب فى طلب الرزق وضمان حق الاقتصاد العربى فى ارباحه ، مضى كل فريق فى ممارسة اجتهاده الاقتصادى على قدر الطاقة وفى مرونة كفلت التعامل مع المتغيرات المتنوعة • ومن غير أن تغفل عين التجار الساهرة فى مدن الأسواق عن حراسة الأمن وحسن توظيف المصالحة ، مضت الخبرة الاقتصادية في حسن التنسيق بين الاجتهادات الاقتصادية فى البناء الاقتصادى •

وتحت مظلة الأمن، وجه كل اجتهاد اقتصادى حركة حياة المنتفعين به وأصحاب المصلحة فيه التوجيه المنضبط • وكفل هذا الانضباط المصير الاقتصادى فى اطار الأرض التى احتوته واستوعبت الاجتهاد والتعامل مع الموارد المتاحة والمتغيرات المؤثرة فيها • وتحت مظلة التنسيق ، قاد تحالف التجاريين مسيرة الاقتصاد العربى • وصحيح انهم اختصوا أنفسهم بالنصيب الأفضل ولكن الصحيح أيضا انهم صانوا سلامة البناء الاقتصادى وحافظوا على مصالح المصير الاقتصادى المشترك فى ربوع جزيرة العرب •

وهذا معناه ـ بكل تأكيد ـ أن البداوة وهى تحيا فى ربوع مراعيها الفقيرة ، وتمتلك قطعانها ، قد كرست كل اجتهادها الاقتصادى الصابر على الجفاف والقحط تكريسا أسهم بشكل أو بآخر فى صياغة حصتها من البناء الاقتصادى العربى • ومعناه أيضا ـ بكل تأكيد ـ أن الاستقرار وهو يمارس الزراعة ويمتلك الأرض ، قد وظف اجتهاده الاقتصادى المثابر توظيفا أسهم بشكل أو بآخر فى صياغة حصته فى هذا البناء الاقتصادى العربى • أما الاغتراب الذى وظف غيابه واجتهاده الاقتصادى توظيفا ارفق انجازاته بكل الوفاء فى التركيب الهيكلى للبناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام •

وفضلا عن يقظة التجار فى مدن الأسواق ، وعين العناية التى لم تغفل فى شأن سريان مفعول المصالحة وضمان عدم تجاوز حدها الأدنى من قبل البداوة أو من قبل الاستقرار ، وروح السيطرةعلىحركة التسويق على الصعيد المحلى وعلى حركة مرور التجارة الدولية ، مضى اجتهادهم الاقتصادى القيادى فى قنوات الاسهام الفعلى فى صياغة التوليفة أو فى اصطناع التركيب الهيكلى للبناء الاقتصادى العربى • وكان في وسعهم دائما ضمان الحد الأنسب من التوازى والتوازن بين الاجتهاد الاقتصادى الرعوى والاجتهاد الاقتصادى الزراعى والاجتهاد الاقتصادى التجارى في هذا البناء الاقتصادى المتكامل شكلا وموضوعا •

بل قل - بكل الثقة - أن يقظة ومهارة التجار لم تقصر أو تهمل فى أى شأن من شئون ابتناء وترسيخ حبكة التكامل فى التركيب الهيكلى لهـــذا البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام • وفطنة التجار هى وحدها التى أمنت قنوات التكامل والعلاقات التى حققت موجبات هذا التكامل فى الاقتصاد • ثم هم وحدهم دون غيرهم من الشركاء فى هذا البناء الاقتصادى ، ودون غيرهم من الشركاء فى المصير الاقتصادى ، الذين وضعوا قواعد وضوابط النـــظام الاقتصادى ، الذى انضبط بموجبه هذا البناء الاقتصادى ، أو انضبطت بموجبه أيضا حركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام فى جزيرة العرب •

•• •• ••

الاجتهاد الاقتصادى الرعوى :

هذا هو الشريك الأول فى زمرة الشركاء فى المصير الاقتصادى فى جزيرة العرب ، الذين ابتنوا البناء الاقتصادى العربى ومع ذلك فهو ليس الشريك الأقوى فى أى مرحلة من المراحل • بل قل انه كان الشريك الأضعف اقتصاديا والأكثر عدوانية واستعدادا للتمرد وعدم الانصياع للضوابط الاقتصاديـــة والحضارية والاجتماعية •ولم يحتل أبدا المكانة الأولى بين الشركاء • ولقــد اشقاه التصحر والتمادى فى الجفاف وتضرر به أكثر من أى اجتهاد اقتصادى آخر ، على طول المدى قبل الاسلام •

واذا كانت ثمة صفة قد ميزت هذا الشريك ، فهو انه اجتهاد انطـوى دائما على نوايا عدوانية • ولقد أرهبت هذه النوايا العدوانية وخاصة عندما تشتد الحالة الاقتصادية سوءا أو عندما يتصاعد عدم التوازن الغذائى وقرعت أمن ومصالح وسلامة حق واجتهاد الشركاء الآخرين • وكان من الطبيعى أن يكون مسلك شركاء الخوف والفزع من أهل الاستقرار فى ريف الزراعة ، أو أهل التجارة فى الأسواق وفى مدن الأسواق مسلكا حصيفا احتال بموجبه على تطويع وكبح جماح البدو ، أو على تفريغ البداوة من شحنات الشرور والعدوان •

وفى الاجتهاد الاقتصادى الرعوى ، لا شىء مهم يلفت النظر ، غير اقتناء القطعان واستخدام المراعى فى انتاج الغذاء • وقد نستشعر فى البداوة شيئا كثيرا من البساطة وعدم التعقيد فى نمط الحياة بصفة عامة • كما نستشعر فيها معنى الجمود والبطء الشديد فى القبول بالتغيير • وما من شك فى أن حركة الحياة قد مضت رتيبة الى حد كبير ، وأن الاجتهاد الاقتصادى الرعوى لم يتحل بغير ايقاعات الوتيرة البطيئة والمتكررة •

وقد لا نشك فى أى ملل اصطنعه هذا التكرار أو أوحت به ايقاعات البطء والجمود • كما لا نشك فى تمرد حضارى انتهك الجمود وتطلع الى التغيير الى ماهو أفضل • ولكن الذى لا يجب أن نشك فيه أو أن نتشكك فى صدقه ، هو صعوبة الحياة والتعامل بكفاءة كاملة مع الموارد المتاحة فى ربوع البوادى الفسيحة من أجـــل المحافظة على القطيع والمضى الرتيب فى انتاج الغذاء • وليس أمضى من الجلد وقوة التحمل والرضا بالقليل غير المتنوع من ضرورات الحيـــــاة فى مواجهة اعباء الحياة وحتى لو كان هـــو النقص فى الطعام(٦) •

وصحيح أن فقر المراعى شبه الصحراوية على صعيد الأرض التىواجهت التصحر ، قد أدى الى رعى جائر Over Grazing أضر بالنمو النبـــاتى الطبيعى ؟ وصحيح أن الجفاف وتيبس النمو والاضرار به ونقصموارد الماء ، قد أدى الى حركات فصلية مضنية Transhumance ، طافت بالبدو فى صحبة القطعان فى أنحاء المراعى الفسيحة على أوسع مدى من غير كلل • ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هذا الارتحال قد بث فيهم روح العـــدوان المباغت ويسر لهم أمر الغزو والسلب والنهب ، وجعل منهم خطرا شديدا على أمن وسلامة الاستقرار •

ولقد اقتنى الرعاة الابل وبعض الماعز والأغنام فى اطار القطعان ، وهى من الحيوانات الأنسب للواقع الجغرافى البيئى فى المراعى الفقيرة • وكان عدد صغار الحيوان من الماعز والاغنام فى القطيع هو الذى حكم أبعاد الحركة الفصلية دائما • وكلما قل ما اقتناه البدو من خيول وابقار أمعنت حياتهم فى البداوة وطالت غيبتهم فى الرحلة الفصلية فى ربوع الرعى المقترة(٧)• ومع ذلك فلقد ظلت الابل هى الحيوانات الأفضل والأجدى عند البدو(٨) •

ولقد أحسن الاجتهاد الاقتصادى الرعوى توظيف الحيوان فى انتاج الغذاء وجنى ثمراته اقتصاديا • وما من شك فى أن هناك اهتمام آكيد بهـــذا

---

(٦) راجع الفصل ٩٣ من كتاب جواد على حـ ٧ ط ٢ من ص ٩٧ — ١١٠ •

(٧) لأن الخيول والأبقار لا تقدر على العطش كثيرا ، فلا يبتعد الرعاة بهم فىالحركة الفصلية كثيرا عن مورد الماء •

(٨) راجع : د• أحمد سوسة : المرجع السابق ص ٢٣٠ — ٢٣٣ •

الانتاج الذى أمن حاجات البدو ، ولكنه كان فى الغالب انتاجا لحساب الاستهلاك الذاتى • بمعنى انه الانتاج الذى ما اكترث بفائض انتاج الغذاء للتسويق • وبمعنى أن الاكتفاء الذاتى قد ضيق الخناق كثيرا على المطالب الضرورية للاستهلاك • وحتى لو تحقق هذا الفائض من الانتاج البدوى فان عوامل كثيرة ، قد أعاقت مسألة التسويق وعرض هذا الفائض عرضا منتظما فى الأسواق والتبادل عليه أو بيعه •

وينبغى أن ندرك عندئذ كيف كانت المعاناة وكيف احتملت البداوة محصلة هذا الاجتهاد الاقتصادى التى واجه ضغوط وأعباء المتغيرات المناخية وتذبذب المطر من سنة الى سنة أخرى • وكم تأرجح الانتاج الحيوانى بين زيادة اشبعت الحاجة فى سنوات الوفرة ، وزيادة المطر عن المعدل ، ونقصان رهيب فى سنوات القحط وانخفاض المطر عن المعدل • وكم تضرر الاستهلاك فى مجتمع البداوة بموجب هذا التأرجح أو التفاوت وعدم الانضباط فى كم الانتاج السنوى • ولقد أمسكت ذبذبات المطر السنوية بزمام هذا التفاوت ، واخفق الرعاة فى ضبطها أو احباط وابطال مفعولها •

وأدى هذا الاخفاق الحقيقى الى ضغوط تفاوتت فاعليتها وجدواها من سنة الى سنة أخرى • وصحيح أن مجتمع البداوة قد احتمل فى جلد وصبر عجيب وطأة هذه الضغوط وتعايش مع الواقع الجغرافى البيئى تعايش الرضا عند الحد الأدنى من الكفاف • وصحيح أيضا أنه لجأ فى بعض سنوات القحط الى الاغارة والغزو ومارس السلب والنهب للافلات من خطر المجاعة فى أشد السنوات قحطا وتقتيرا • ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن هذا المجتمع قد انتشر وتبعثرت أوصاله على أوسع مدى فى أنحاء المراعى الفسيحة • بل قل انه اتخذ من الحركة والطواف بحثا عن الكلأ والماء وسيلة للتملص من وطأة هذه الضغوط •

ولقد استخدم الرعاة المراعى الفقيرة استخداما تقليديا بحتا • وجسد هذا الاستخدام التقليدى فى ذلك الزمان اقصى ما واجه به الانسان حاجته وتحوله بموجب التغير الحضارى الى انتاج الطعام • والاستخدام التقليدى فيه قدر كبير من الامتثال للواقع البيئى الجغرافى واقل قدرة على تطويع وكبح جماح المتغيرات والضغوط التى تضرر بها الاستخدام • بل قل انه الاستخدام الذى حددت جدواه الاقتصادية خصائص الواقع البيئى الجغرافى أكثر من أى شىء آخر •

ويجب أن ندرك أن هذا الاستخدام التقليدى ما تطلع قط الى شىء أهم من التوازن بين معدلات الانتاج ومعدلات الاستهلاك • وسيطر مجتمع البداوة على هذا التوازن من خلال ضبط وتخصيص معدلات الاستهلاك أو التحكم فيها ، لأنه لم يعرف أبدا الكيفية التى يسيطر أو يضبط أو يتحكم بموجبها فى معدلات الانتاج • وهذا معناه أن الضبط والتوازن الاقتصادى قد انجزه أو حققه التصرف السلبى البحت • والتصرف السلبى البحت معناه الرضا بالقليل أحيانا ، ومعناه الجوع أحيانا أخرى •

وهكذا كان حد الكفاف حدا منخفضا لمعيشة البداوة • وما عرف هذا الكفاف البذخ والترف أو التمادى فى الاستهلاك من غير ضوابط صارمة • وهذا هو عين ما أسعف وحقق التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، الذى واجه بموجبه ضغوط التحدى المناخى ومتغيراته واحتمال القحط فى المراعى فى السنوات العجاف • وحتى السلب والنهب فى سنوات القحط الذى عم المراعى وأضر بالبداوة على صعيدها العام كان لا ينتشل ولا يسعف ولا يوقف خطر الجوع والمجاعة •

وعاشت البداوة عيشة الكفاف لا تبتغى غير ضرورات الحياة القليلة • واعتادت على المتغيرات التى طالما انتهكت هذا الكفاف انتهاكا خطيرا ، وهى تطوف فى حركتها الفصلية فى صبر واناة فى ربوع المراعى الجافة وشبه الجافة ، أو وهى تتجمع فى ديار وفر الماء الباطنى فيها استقرارا مؤقتا فى فصل الجفاف الشديد •

ومضى مجتمع البداوة فى تعايش مع الواقع الجغرافى البيئى ، واستسلمت الحياة الاقتصادية والاجتهاد الاقتصادى الرعى استسلاما حقيقيا لكل المتغيرات التى أثرت على كم الانتاج ونوعه • والاستسلام الذى نعنيه بالضبط لا يعبر عن شىء أهم من أن مسألة الانتاج قد طاوع فيها أهل البداوة المتغيرات فى البيئة • وهذا الامتثال للمتغيرات لا يعنى غير الحد الأدنى من التعامل مع الموارد المتاحة • بل قد يعنى انخفاض الجدوى الاقتصادية فى انتاج الغذاء الى حد هو دون الحد الأدنى لحياة الكفاف •

هذا ، وينبغى أن ندرك كيف وماذا تعنى المطاوعة ومبغ ما تدعو اليه من نتائج اقتصادية • بل قل لقد استعصى على الاجتهاد الاقتصادى الرعوى قبل الاسلام السيطرة على عوامل الانتاج سيطرة حقيقية ، وهو يعمل من أجل انتاج الغذاء • ومن ثم نعرف معنى الانتاج لحساب الكفاية الذاتية ، وكيف

خفض ذلك النمط مقدار وجدوى اسهام البداوة في البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام ٠

وفى اطار هذا الاجتهاد والعمل الذى كرسته البداوة لتأمين حق الحياة والاستهلاك الذاتى من انتاج الغذاء عرف مجتمع البداوة الملكية ومعنى ومغزى وجدوى الامتلاك والحيازة ٠ بل لقد أدرك البدو جيدا جدوى الامتلاك والحيازة فى شأن تأمين حق الحياة ٠ وأصبح هذا الحق من الحقوق الراسخة التى خضعت لضوابط واحكام فرضتها لتقاليد آلبدوية والأعراف فى البادية ٠

ومع ذلك فلقد أحسنت البداوة التمييز بين نوعين من الملكية ٠ وتمثل النوع الأول فى الملكية العامة فى المرعى ومورد الماء ٠ وهذا حق مكفول للقبيلة التى لمت شمل الحضور الاجتماعى والاقتصادى فى البوادى ٠ وتمثل النوع الثانى فى الملكية الخاصة فى القطيع وبعض الأغراض الخاصة ٠ وهذا حق مكفول للفرد أو للاسرة أو العشيرة فى اطـــار التركيب الهيكلى لمجتمـــــع البـــداوة ٠

ويبدو أن هذا التمييز بين الملك الخاص والملك العام كان واقعيا ٠ ولقد اقتضت التقاليد والأعراف التى نظمت وكفلت وميزت بين هذين النوعين من الامتلاك ٠ ولم يستشعر مجتمع البداوة بموجب هذا التباين بين النوعين أى معنى من معانى التناقض الصريح أو الضمنى من وجهة النظر الاقتصادية ٠ بل لم يرفض مجتمع البداوة هذا التمييز أو يتمرد عليه ٠

وما احتاج أو تطلع هذا المجتمع القبلى البدوى الى سلطة ما تكفل هذه الحقوق ، وتنسق بين حق الملك العام على المشاع(٩) وحق الملك الخاص فى الحيازة أهم أو أعظم أو أجدى من سلطة شيوخ القبائل وزعماء العشائر ٠ ولقد مارست هذه السلطات النابعة من صميم الحضور البدوى دورهـــــا الوظيفى الحاكم ممارسة أبوية فضفاضة ٠ وتبنت هذه السلطة الرشيدة(١٠) القبيلة ورعت مصالحها وتزعمت رأيها وجمعها وصانت سيادة الحقوق فيها وسيادة الحقوق بها وسيادة الحقوق لها ٠

---

(٩) لا وجه لأي علاقة بين المالك على المشاع فى مجتمع البداوة من جانب ، والاعتراض المذهبى الشيوعى على الملكية من جانب آخر ٠

(١٠) راجع الفصل ٥٢ من كتاب جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٥ ط ٢ ص ١٧٨ - ٢٥٢ ٠

ومع ذلك ، كان مجتمع البداوة العربى وهو متفرغ لانتاج الغذاء قبل الاسلام ، فى أشد الحاجة الى الأيدى القوية التى قبضت بكل الرشد على زمام المصالحة وسريان مفعولها لحساب المسالمة بين البدو فى بواديهم أو لحساب المسالمة بين البداوة والاستقرار • ولقد شهدت مدن الأسواق — كما قلنا — أصحاب هذه القبضة القوية التى وضعت الضوابط ورسخت التقاليد والاعراف الحاكمة لأبعاد هذه المصالحة ، وسبل تطبيقها وسريان مفعولها لحساب أمن كل الشركاء — بما فيهم البداوة — فى البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام •

وما من شك فى أن وضع هذه المصالحة والعمل بموجب التقاليد التى فرضتها وسريان مفعولها والالتزام بضوابطها قد أمن حق البداوة فى الاجتهاد الاقتصادى الرعوى • بل قل انها كفلت حركة اقتصادية مطمئنة لا يفزعها العدوان أو الصراع فى فترة زمنية محددة من كل عام • كما اشاعت أكبر قدر من التعايش بين القبائل البدوية وحقوقها المكتسبة فى ربوع المراعى الواسعة الفقيرة •

وصحيح أن ضغوط التغير المناخى والتمادى فى الجفاف والتصحر وتذبذب المطر السنوى قد أدت فى بعض السنوات الى القحط الشديد •وفجر القحط روح العداون تفجيرا انتهك مسيرة حركة الاقتصاد المطمئنة واوقع القبائل فى حروب طاحنة • ولكن الصحيح أن روح ومنطق وضوابط المصالحة، قد أفلحت فى كبح جماح الحرب والغزو والعدوان فى الاشهر الحرم[١١] •

وأتاح هذا التوقف فى الأشهر الحرم وكأنه هدنة حتمية على مدى زمنى متفق عليه فى المصالحة ، فترة أمن أمنت وهدأت من روع حركة الاجتهاد الاقتصادى الرعوى • بل قل بكل الثقة أن فترة الأمن وسريانها الحتمى قد هيأت للاجتهاد الاقتصادى الرعوى الذى تروعه الحرب وتجمده ، أن يستأنف نشاطه وأن يعاود اهتمامه بالقطعان • بمعنى أن التوقف فى الأشهر الحرم حرر الاجتهاد الاقتصادى الرعوى من الخوف • ولقد عكف فى فترة كل توقف عن القتال وهو آمن على العمل والانجاز وتأمين حاجات الحياة •

---

(١١) ارجع الى الفصل ٥٤ من جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٥ ط ٢ ص ٣٣٣ — ٣٩٨ •

تقسيم العمل فى الاجتهاد الاقتصادى الرعوى :

توجه الاجتهاد الاقتصادى الرعوى الذى انهمك بموجبه البدو فى بناء وترسيخ حصتهم من الاقتصاد العربى قبل الاسلام توجها صابرا ومثابرا . وهل كان فى وسعه أن يفقد صبره أو أن تنفد مثابرته وهو منكب فى شأن انتاج الغذاء ؟ وكان أهم ما جسد هذا التوجه الصابر والمثابر هو تقسيم العمل ، والمضى فى تحمل أعباء هذا العمل الذى رسخته التقاليد والأعراف فى مجتمع البداوة .

وصحيح أن قوة العمل ضمت الرجال والنساء والكبار والصغار من أهل البداوة . كما ضمت الرقيق وبعض العناصر المخلوعة التى دخلت فى جوار القبائل . وصحيح أن آداء العمل قد استوجب تقسيم العمل تقسيما مناسبا لنوع وطبيعة وقدرات قوة العمل . ولكن الصحيح بعد ذلك كله هو أن هذا التقسيم قد بادر دائما الى حسن توظيف العلاقة بين طبيعة العمل ومستواه من ناحية ، وقدرات العناصر التى تحملت هذا العمل وأنجزته من ناحية أخرى .

وآداء العمل الذى استوجبته مطالب الحياة وانتاج الطعام ، والقدرة على هذا الآداء فى الظروف الصعبة ، هى التى بررت بالقطع الاتجاه الى تقسيم العمل . وهذا التقسيم هو علامة على الاختصاص وليس علامة على التخصص . بمعنى أن العمل فى ذلك الزمان البعيد لم يكن قد بلغ الحد الذى استدعى التخصص والمهارات المتخصصة .

وهكذا قل أن هذا الاختصاص قد برر اسناد العمل الى ثلاثة فئات محددة . بل لقد تمثلت هذه الفئات العاملة فى الاجتهاد الاقتصادى الرعوى فيما يلى :

الفئة الأولى (الرعاة) :

ضمت هذه الفئة جمعا تألف من الذكور والاناث دون اهتمام بفئات العمر . وتكفلت قوة العمل من هذه الفئة بشئون القطيع والعناية به فى ربوع المراعى الفسيحة . وهى الخبرة التى ساقت القطيع[١٢] دائما فى رحلته

---

(١٢) الجمل هو الحيوان الرئيسى فى القطيع . بل هو الانسب لأنه له جلد على العطش . ولقد تعلم الحضور العربى منذ الانشطار الحضارى استئناس الجمل . وهناك نقوش قديمة صورت

الفصلية ، ولبث حاجته الى الكلأ والماء . بل كانت دائما طليعة انتقال القبيلة وتحركها من مكان الى مكان آخر ونزولها فى منازلها الموسمية . وهى أيضا العين الساهرة التى لم تغفل فى شأن توطيد الأمن . ولقد حرست القطيع دائما وأمنته ودرأت عنه الخطر أو العدوان . وهى المهارة التى جنت ثمرات القطيع وانتاجه من الطعام لحساب القبيلة . وما فترت هذه الفئة وما تخاذلت أبدا فى آداء هذا العمل .

ولقد أضافت هذه الفئة من قوة العمل الى أعباء عملـــها وآداء دورها الوظيفى وهى تتعامل مع مورد الثروة الرئيسى أو مع معين العطاء الحقيقى للغذاء مسئوليات أخرى . وتمثلت هذه المسئوليات فى أعباء ثانوية واضافة لحساب الغذاء . وكم عكف بعض أفراد هذه الفئة ـ النساء ـ على زراعة بعض المحاصيل فى مساحات صغيرة ومنتخبة فى بطون بعض الأودية على صعيد المراعى .

وكان أعضاء هذه الفئة التى تولت أمر الرعى والمراعى من أبناء القبيلة بالفعل . ولقد عهدت البداوة لهذه الفئة ودربتها منذ الصغر على آداء هذه المهمة . وتمرس الواحد منهم منذ أن كان صبيا أو صبية على استخدام الموارد المتاحة طلبا لانتاج الحاجة من الغذاء . وكان الهدف الذى عكف على تحقيقه أفراد هذه الفئة فى اطار العمل الجماعى المشترك أولا وأخيرا هو كفاية ذاتية من الغذاء[١٣] .

الجمل وقد امتطى ظهره راكب منذ الألف الثالثة قبل الميلاد . وهناك ما اثبت أن الجمل قد استأنس قبل ذلك حيث كان وسيلة للنقل والركوب منذ حوالى أكثر من ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وما لبث أن أصبح الجمل فى بيئة الجفاف وشبه الجفاف على صعيد جزيرة العرب متاع العرب جميعا . وله قيمة خاصة فاقت دائما قيمة الحيوانات الأخرى التى ضمت الى القطيع .

راجع : آ ـ سوسة أحمد : العرب واليهود فى التاريخ ط ٤ دمشق ١٩٧٥ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣ .

ب ـ الشامى صلاح الدين : النقل دراسة جغرافية ط ٢ الاسكندرية ١٩٧٦ ص ٤٠ ـ ٤٢ .

جـ ـ Forbes, R.J. : The Comming of the Camel. Stydies in Ancient Technology Vol. II, Leiden, 1955, 187.202

(١٣) ربما كان الغذاء أحيانا من لحوم الابل الصغيرة وفى مناسبات خاصة ومع ذلك فان لبنى الابل كان دائما هو الغذاء الأهم . ولقد ضم القطيع بعض الأغنام والماعز لسد الحاجة من اللحوم وهذا هو المألوف بالفعل .

والتحاق الصبى أو الصبية بهذه الفئة والعمل فى رعى القطيع شرف وواجب . ولا يشترك فى هذه الفئة الا من انتسب الى صلب القبيلة . وحتى لو أصطحب البعض منهم الرقيق ، فهو تابع لخدمته وليس من أجل القطيع . والزمرة فى هذه الفئة هم الجوابون فى البيداء الذين عاشوا فى المراعى من أجل القطعان وما غادروها أبدا الى الحضر . وهم الاعراب حقا وصدقا(١٤) .

الفئة الثانية (عيون الطرق) :

ضمت هذه الفئة جمعا أو نخبة ممتازة من الرجال الشجعان الاشداء . وشرط الشجاعة والقوة والجسارة شرط ضرورى لكى يصلح الرجل للعمل وآداء دوره الوظيفى . ولقد أوكلت لهذه النخبة مهمة العمل الشاق فى خدمة حركة التجارة وتأمين مرور القوافل . بل انهم اعتادوا الغياب عن مضاربهم وبنى جلدتهم وقتا طويلا وهم العيون الساهرة على المسالك والدروب .

وآداء هذا العمل هو الشرف لأنه اكسب الرجل الهيبة والسمعة ، وهو الواجب لأنه حقق الدخل وكفل الحصول على المال نقدا أو على حصة متفق عليها من حمولة القافلة . وهذا الدخل شىء أهم القبيلة وأهم الرجال الذين استحقوه أجرا على تأمين مرور القوافل(١٥) . وأضاف هذا المال السائل اضافة حقيقية الى موارد البداوة واطلق أيديها فى الشهوات التى حصلوا عليها من الأسواق.

وآداء هذا العمل هو المشقة لأنه أبعد الرجل عن المضارب والقى به فى وجه الخطر على الطريق أو الدرب . واستوى فى ذلك أن كانت المهمة المنوطة به هى تأمين القوافل التى عملت على المستوى المحلى فى خدمة التعامل والاتصال

---

(١٤) راجع : جواد على : الفصل ٩٣ من المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٧ ط٢ من صفحة ٩٧ — ١١٠ .

(١٥) الحاجة لاجتياز الصحراء والمرور على دروب ومسالك وعرة دعت الى استخدام نظام القوافل وتوظيف الحراس لحمايتها من قطاع الطرق الذين احترفوا السلب والنهب وتفننوا بشجاعة من أقدم على هذا العمل . ولقد جرت العادة على دفع الأجر فى شكل هدية أو اتاوة أو أجر للقبائل فى البادية فى نظير الأمن .

راجع : جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسـلام جـ ٧ ط ٢ من صفحة ٢١٧ — ٢٣٠ .

والنقل بين مضارب البداوة والاسواق أو مدن الاسواق منها واليها(١٦) ، أو كانت المهمة المنوطة به هى تأمين القوافل التى عملت على المستوى الاقليمى فى خدمة تجارة المرور والعبور والوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط(١٧) .

وكان الجمع من هذه الفئة المنتخبة من ابناء القبيلة وهم أعز الرجال فى ربوعها . وكان الرجل منهم العين التى لا تغفل واليد التى لا ترحم والشجاعة التى لا تتنزه عن سفك الدماء دفاعا عن أمن الطريق . والامن فى مقابل الثمن قد اكسب هذه الفئة وزنا اقتصاديا مهما واكسب القبيلة سمعة حسنة(١٨) . وما من شك فى أن مكان ومكانة القبيلة قد وظفت توظيفا جيدا فى اشاعة وترسيخ الأمن المدفوع الأجر .

الفئة الثالثة (صناع الخدمات) :

وضمت هذه الفئة زمرة من الذين التحقوا بالبناء البشرى وكانوا فى خدمتهم وهم لا ينتسبون اليهم من قريب أو من بعيد . وبعضهم من الرقيق العبيد الذين هم فى حيازة السادة . وبعضهم الآخر من الذين اجارتهم القبيلة والتحقوا بها لسبب أو لآخر وهو اتباع(١٩) . وتضع تقاليد البداوة قبل الاسلام هذه الفئة الملتحقة بالقبيلة فى مكانة الاتباع ولقد فرضت عليهم السمع والطاعة ، والامتثال للامر والنهى .

واحتلال هذه الفئة من الرجال أو النساء المنزلة الادنى ومكانة التبعية

---

(١٦) سلك بعض الرجال من هذه الفئة أحيانا سبل الصعلكة وتحول الرجل الى قاطع طريق . وهذا نمط ساد وكأنه شكل من أشكال القرصنة فى البيداء . ولم يتخذ الرجل هذا السبيل وسيلة للارتزاق الا فى حالات تبرأ الأهل منه أو فى حالة اهدار الدم ، أو فى حالة الفرار من العار .

(١٧) اذا كان الابحار العربى المغامر فى المحيط الهندى قد أنجز مرحلة من مراحل الوساطة التجارية ، فان مرور القوافل وتأمين مسيرتها على المسالك والدروب فى جزيرة العرب قد أنجز المرحلة الثانية من هذه الوساطة مع عالم البحر المتوسط .

(١٨) ابتدع تجار مكة عهود ومواثيق الايلاف التى عقدت مع بعض القبائل التى كفلت بموجبها الأمن والأمان على الطرق من والى مكة .

(١٩) محال أن نتصور العلاقة بين هذه الفئة فى غير مستوى الاتباع والتبعية . وصحيح بعد أن تبرأت منهم قبائلهم اصطنع الحاجز بينهم وبين القبيلة التى أجارتهم فاصلا وصاروا أتباعا. أن أولئك هم الذين دخلوا فى جوار القبيلة ومنحتهم الأمان ولكن الصحيح انهم بصفتهم مخلوعين

المتهنة اختصهم وحدهم بكل الاعمال المهنية • ومن غير تمرد على ما كان دائما من أمر الامتهان والمذلة والهوان ، عهدت البداوة الى هذه الفئة بالعمل المهنى الذى احتقره البدو أنفسهم وتأفف وأعرض الواحد المنتسب الى القبيلة عنه اعراضا تاما •

وهذا هو الحاجز الذى فصل بين من انتسب الى القبيلة ومن لم ينتسب اليها • وهذا الاستعلاء(٢٩) بالنسب الذى ميز فى العمل بين عمل شريف مشرف التحق به أبناء القبيلة ، وعمل ممتهن ومهين كلف به البدو هذه الفئة من قوة العمل(٢١) • بل قل هذا هو الشكل الجاهلى من التمييز العنصرى الذى مارسته البداوة وبرروا به الاختصاص فى العمل المهين وتخصيصه لهذه الفئة ، وهى مغلوبة على أمرها •

توظيف هذه الفئة وهى من غير أبناء القبيلة فى القطاع المتهن من العمل معناه ترفع ابناء القبيلة عن هذه الأعمال المهينه المهنية • ولقد تمثلت هـذه الأعمال فى النجارة والحدادة ، وفى حرف الاعاشة وفى الحجامة والحياكـة وغيرها من الخدمات التى لبت ضرورات الحياة فى مجتمع البداوة • واكتساب المهارات فى هذه الحرف المهنية اصطنع قوة استقطاب شدت أو جذبت هذه الفئة جذبا شديدا الى القبيلة(٢٢) •

وبصرف النظر عن كل ما كان من أمر العمل وهو من صميم الاجتهاد فى الاقتصاد الرعوى ، وبصرف النظر أيضا عن معنى ومغزى تصنيف قوة العمل

---

(٢٠) الاستعلاماء العربى معروف وردده الشعر العربى الذى سجل الفخر بالنسب والجاه ، وقد تمادى هذا الاستعلاء الى حد تحول فيه الى ظاهرة مرضية حيث وظف فى امتهان هذه الفئة • ولا تعارض بين المهانة التى أدت اليها هذه الظاهرة المرضية من جانب وتوظيف هذه الفئة فى الأعمال المتهنة من جانب آخر •

(٢١) أداء هذا العمل يكون فى الغالب تكليفا مباشرا فى نظير الأجر المالى أو الأجر العينى اذا كلف به الأتباع المخلوعين • أما توظيف أو تكليف الرقيق به فكان من غير أجر •

(٢٢) امتد الامتهان وهو وليد الاستعلاء فى شكله المرضى الى انتقاص فعلى فى الحقوق والواجبات التى تمتع بها الأفراد فى هذه الفئة من قوة العمل • ولقد بلغ الامتهان الى حد انها سادت فى بعض الحالات مع الحيوان الذى يملكه الفرد • بل كانت سلعة تباع وتشترى •

ارجع الى الفصل رقم ١٠٩ من كتاب المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٧ ط ٢ من صفحه ٤٥٣ ـ ٤٧١ •

التى أوكل اليها انجاز هذا العمل ، ينبغى أن نمحص أو أن نقدر جيدا فى أمرين ٠ وهذان الامران هما :

١ — تكليف الفئة الممتهنة من العبيد والرقيق وابعاد هذا التكليف وجدواه الاقتصادية ٠

٢ — استخدام أو توظيف المرأة فى زمرة قوة العمل وجدواه الاقتصادية ٠

فى شأن تكليف العبيد واستخدامهم ، نذكر أن هذه الفئة قد أسهمت فى البناء الاقتصادى ، وانجزت عملا مهما انتفعت به حركة الحياة وجنت البداوة ثمراته الاقتصادية فى ربوعها ٠ ولكن الصحيح أيضا أن البداوة التى صنفت فئات العمل قد جسد تصنيفها ، التقاليد التى اصطنعت :

(أ) الحاجز الفاصل بين عمل شريف هو من صميم اختصاص ابناء القبيلة وعمل ممتهن هو مسئولية العبيد ٠

(ب) مكانة العبيد التى جعلت منهم أدواتا للانتاج لا أكثر ولا أقل ٠

بل قل بموجب هذه التقاليد التى اصطنعت هذا الوضع ، كان الفرد من العبيد يسخر فى العمل وقد افتقد كامل ارادته ٠ وفضلا عن استشعار المهانة والامتثال للهوان والمذلة ، كان سلعة ٠ ودخلت هذه السلعة فى اطار العرض والطلب ٠ وهذا معناه أن العبد كان لا يمتلك ارادة وهو عامل وكان لا يمتلك ارادة وهو يباع ويشترى فى الأسواق ٠ ثم هو بعد ذلك كله وفى الحساب الختامى جزء حقيقى من الثروة الاقتصادية وعنصر فعال فى الاجتهاد الاقتصادى الرعوى ٠

وفى شأن توظيف النساء واستخدامهم ٠ نذكر أن اشراك المرأة فى العمل أو فى آداء مهام العمل اليومى فى المراعى قد تأتى من غير تمييز واضح بين استخدام الرجال واستخدام النساء فى آداء وظيفى مشترك ٠ ويبدو أن تقاليد البداوة لم تستنكر هذا الاستخدام المشترك ٠ بل ربما لم تجد فيه البداوة شيئا استهجنوه أو تصوره جارحا لعزة المرأة أو لمكانتها أو لأنوثتها ٠

وفى زمرة الأيدى العاملة التى ضمت الرجال والنساء والتحق بهم صغار السن من الصبية والصبايا ، تعاون الجمع المشترك والمختلط كل على

قدر طاقته فى انجاز بعض ما ناسبه من العمل اليومى • وسواء كان الانجاز فى المرعى أو كان الآداء فى مضارب الخيام ، فان توظيف النساء فى العمل غير المنزلى الخاص ، قد اخترق حواجز الانوثة إحيانا وطعن كبريائهم وعزتهـا أحيانا أخرى ، وهو ما لم يقصده أبدا التقليد الذى افسح لها مكانا فى قوة العمل • ومن ناحية أخرى أعطى هذا التقليد الذى أباح عمل المرأة مكانة لها فى حركة الاقتصاد وهو مالم يقصده ويرمى اليه ابدا •

ومهما يكن من أمر فان هذا التوجه الى العمل هو علامة على كنه التحول من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء • ولكن التوجه الى تقسيم العمل وتكليف كل فئة بأعمال معينة ومعنية هو علامة على مضى هذا التحول الاقتصادى فى الاتجاه الصحيح من وجهة النظر الاقتصادية • بل هو علامة أيضا على مبلغ الحاجة الى الضوابط التى تضبط حركة المضى الاقتصادى فى اطار مجتمـع البداوة •

والتكليف بالعمل قد تطلع — على كل حال — الى الانجاز الذى خـدم المصالح المشتركة فى البادية من غير ادنى اهتمام بالتخصص • وما عرفت البداوة التخصص ولكنها كما قلنا اهتمت بالاختصاص والتخصيص • وتمثل هذا الأختصاص فى حالتين فقط ، استوجب فيهـا العمل والآداء مواصفـات خاصة •

وفى **الحالة الأولى** ، كانت موجبات الاختصاص هى الشجاعة والفتوة والمنعه والقدرة على القتال والمنازلة • وهذه الصفات هى التى ميزت وقـدرت قيمة الرجال وخصصت الاكفاء منهم فى العمل الذى خدم النقل وامن مسيرة تجارة المرور على الدروب ومسالك الصحراء الوعرة فى انحاء جزيرة العرب •

وفى **الحالة الثانية** ، كانت موجبات الاختصاص هى العبودية والانصياع والامتثال للسادة • وهذه الصفات هى التى أضفت على الرقيق المهانة والمذلة، وكتبت عليهم الهوان والاحتقار • وخصصت الأنسب منهم فى العمل الممتهن الذى أعرض عنه السادة وقللوا من شأنه الحرفى •

وصحيح أن روح المشاركة فى العمل التى لم تميز بين آداء الصغار أو الكبار أو لم تفرق بين آداء الرجال والنساء ، كفلت انجاز هذا العمل ويسرت أمر اكتساب الخبرة من غير أن تغرس بذور التخصص • ولكن الصحيح أن موجبات الاختصاص واختيار الاكفاء أو الأنسب لآداء العمل فى اطار هـذا الاختصاص ، كفلت انجاز العمل ويسرت أمر اكتساب الخبرة وغرست بذور

التخصص . وهذا معناه أنه مع مرور الوقت أسفر الاختصاص عن التخصص في إطار العمل الذى استوجبه الاقتصاد الرعوى والعمل فى البادية .

وصحيح أن غرس بذور التخصص والاتجاه الحقيقى الى الآداء المتخصص قد اقتضى الخبرة والمهارة والتفرغ من أجل الانجاز الذى أملاه الاقتصاد الرعوى . وصحيح أن ذلك كله قد تأتى مع مرور الوقت وبموجب توجه اجتماعى وتقاليد واعراف سادت فى ربوع البوادى أكثر من أى شىء آخر . ولكن الصحيح أن مهارات أو خبرات التخصص فى الآداء التى أسفر عنها الاختصاص فى مرحلة سابقة ، لم يكسب المتخصص حقا اقتصاديا تفرد به أبدا وجنى ثمراته وحده دون سائر الجمع الحاشد فى القبيلة . بمعنى أن محصلة التخصص ظلت فى نهاية المطاف حقا اقتصاديا عاما لحساب الجماعة فى اطار البداوة .

تقويم الاجتهاد الاقتصادى الرعوى :

ليس المهم أبدا فى مجال تقويم الاجتهاد الاقتصادى الرعوى أن نرقب العمل فى كل قطاعات الآداء والانجاز على صعيد البداوة وحضورها فى البادية . وليس المهم فقط أن نحسب جدوى هذا العمل وكيف اشبع حاجة البداوة لأنه توجه الى انتاج الغذاء فى ربوع المراعى . ولكن المهم أن يكون التقويم على اعتبار أن محصلة هذا الاجتهاد الاقتصادى الرعى قد أسهمت بشكل أو بآخر فى البنية الاقتصادية العربية التى جسدها الواقع الاقتصادى فى جزيرة العرب قبل الاسلام .

وتداخل محصلة الاجتهاد الاقتصادى الرعوى ، هو الذى وضع حركة الحياة فى البادية فى حالة الاستعداد للقبول بمنطق وأهداف وتطلعات الأخذ والعطاء أو التعامل . ولقد أدى هذا التعامل والقبول بمنطق وأهداف وتطلعات الأخذ والعطاء الى تغير اقتصادى حقيقى .

وبموجب هذا التغير الاقتصادى الحقيقى اخترق الاجتهاد الاقتصادى الرعوى حواجز الجمود . بل قل انه تمرد على ايقاعات الحياة الاقتصادية الرتيبة . وزود هذا التمرد الذى اخترق حواجز الجمود الاقتصادى والحضارى العمل الاقتصادى بطاقات وقوة دفع توثبت نحو الانفتاح والتفتح توثبا واضحا .

وسواء تأتى هذا الانفتاح الذى اتجهت اليه البداوة وأخرجها من الجمود

والعزلة من خلال التعامل فى الأسواق ، والتعايش مع الجموع الوافدة الى مدن الأسواق ، أو من خلال التصدى للعمل فى خدمة النقل وتأمين تجارة العبور على صعيد جزيرة العرب ، أو من خلال الالتزام بمنطق وروح المصالحة وسريان مفعولها والانتفاع بأجواء المسالمة ، فان هذا الانفتاح كان نقطة من أهم نقط التحول فى الاجتهاد الاقتصادى الرعوى ٠

وصحيح أن هذا الانفتاح لم يسفر فى ظاهرة عن شىء أهم وأفضل من تفتح أعين وأسماع البداوة على التحولات الحضارية فى جزيرة العرب ٠ بل قل أيضا أن امتدادات هذا التفتح غير المباشرة قد امتدت الى المعين الحضارى المتنوع والفضفاض فيما وراء جزيرة العرب فى عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ٠ ولكن الصحيح أيضا أن هذا التفتح لم يقف عند حد الاحتكاك الحضارى وجنى ثمرات التغير الحضارى فقط ٠ بل انه التغير الذى فتح الباب على مصراعيه فى شأن التحول فى ابعاد وتطلعات الاجتهاد الاقتصادى الرعوى ٠

وكان من شأن هذا التفتح الذى أطل على الحضارة وتذوق بعض ثمراتها ، أن رشد ونما وطور الممارسة الحضارية على صعيد مجتمع البداوة٠ وتمادت الممارسة الحضارية المتطورة فى تنويع وتوسيع ما احتوته دائرة الضرورات الحيوية التى اقبلت البداوة على استخدامها وألحت على التنعم بها فى اطار حركة الحياة واتجاهات الاستهلاك اليومى ٠ ومن ثم صعد هذا التمادى وهذا الالحاح معدلات التعامل البدوى فى الأسواق ٠ بل قل انه طور التعامل الذى رسخ علاقات البداوة بمدن الأسواق فى اطار الاهتمام الاقتصادى بالمنافع المتبادلة ٠

ولقد اتاحت الأسواق والمعروض فيها من سلع ومنتجات للبداوة أن تزود الأسواق ببعض السلع والمنتجات للاستقرار ٠ ونما هذا الاتجاه الحميد انتفاع البداوة بالأخذ والعطاء والتعامل ٠ بل قل انه نشط العلاقة وقنوات الاتصال المباشر وغير المباشر بين الحركة الاقتصادية فى البوادى والحركة الاقتصادية فى الأسواق وفى مدن الأسواق ٠ وما من شك فى أن تنشيط هذه العلاقة قد يسرت العلاقة بين الحركة الاقتصادية فى البوادى والحركة الاقتصادية فى أرياف الزراعة ٠ وهذا هو عين ما ذكرناه فى شأن توظيف السوق فى مجالات المصالحة وتوفير اجواء المسالمة بين البداوة والاستقرار ٠

ولأن التعامل مع مدن الاسواق قد وضع الضرورات المعروضة فى متناول التعود الاستهلاكى (الادمان) فلقد رسخت البداوة والاجتهاد الاقتصادى الرعوى العلاقات وأمنت قنوات الاتصال بمدن الاسواق ٠ وعندئذ أكدت البداوة حرصها واحترامها وتشبثها بالمصالحة بينها وبين الاستقرار ٠ بل قل ان التفتح الحضارى قد زج بالاجتهاد الاقتصادى الرعوى فى خضم الحركة الاقتصادية على صعيد جزيرة العرب زجا قبلت بموجبه وتطلعت الى حسن استثمار سبل التعامل والأخذ والعطاء فى اطار واسع جمع البداوة والاستقرار فى مصير واحد اقتصاديا ٠ بل قبلت بموجبه أيضا الأسهام عن طيب خاطر فى مصير مشترك كفله البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام ٠

ومع مضى القرون والاستمرار أو التمادى فى التفتح الحضارى ، اتسعت دائرة الأخذ والعطاء اتساعا استوعب التغيير الاقتصادى وشد أزره ٠ وانكب الاجتهاد الاقتصادى الرعوى وفئات العمل فيه على العمل ٠ وأسفر هذا العمل المجتهد عن تحقيق بعض الفائض من سلع ومنتجات لحساب العرض والتسويق فى الأسواق ٠ وأصبح الاتجاه الى الأسواق اتجاها له صفة الالتزام ٠

ولقد ازداد يقين البداوة فى جدوى القدوم الى الأسواق وفى جدوى العرض أو العطاء لأنه هو السبيل الذى كفل لهم الأخذ فى مقابله ٠ وهذا الأخذ فى مقابل العطاء معناه حصول البداوة على احتياجات الضرورة أحيانا أو احتياجات الترف الاستهلاكى فى البوادى أحيانا أخرى ٠ وما من شك فى أن ذلك اليقين قد رسخ علاقات الاجتهاد الرعوى بالاسواق ومدن لاسواق ٠ بل هو الذى عودهم على التعامل مع رواد الاسواق من أهل الاستقرار والزراعة ٠

وترسيخ العلاقات الوثيقة التى كفلت الانتفاع بثمرات التعامل بين البداوة والاجتهاد الاقتصادى الرعوى من ناحية ، وحركة التعامل الاقتصادى فى الأسواق أو فى مدن الأسواق من ناحية أخرى ، معناه الاقتناع بجدوى المسالمة ٠ وتولى هذا الاقتناع مهمة تخفيف حدة نزوات العدوان لحساب المصالحة وتأمين المنافع المتبادلة فى اطار حركة التسويق ٠ بل ومعناه أيضا انفتاح الاتصال وقنوات الاتصال الحقيقى من خلال الاسواق والتسويق بين البناء الاقتصادى الرعوى فى البوادى والبناء الاقتصادى الزراعى فى الريف ٠

واستوجب ذلك الاتصال تشكيل هيكل البناء الاقتصادى فى البادية تشكيلا مناسبا للالتحام أو للالتئام مع هيكل البناء الاقتصادى الزراعى فى

ربوع الريف ٠ وكم شهدت مدن الاسواق وعلى رأسها مكة ام القرى ــ وهذا هو المكان ــ فى الأشهر الحرم ــ وهذا هو الزمان ــ جدوى المصالحة فى شأن هذا الاتصال وتوثيقه ٠ ولابد أن نتصور كيف انتفع الاجتهاد الاقتصادى الرعوى واصحابه البدو بهذا التوثيق ٠ بل ينبغى أن نتصور أيضا كيف نعمت به البداوة والاستقرار على حد سواء ٠ وهل جسد هذه الجدوى شىء أهم واجدى من الانهماك فى عرض فائض الانتاج والحصول على البديل المطلوب لحساب المعيشة الأفضل ؟

وتولى البداوة فى اطار اجتهاد اقتصادى لا يهدأ مهمة الحراسة وتأمين حركة التجارة ومرور القوافل فى الغدو والرواح ، قد جسد بالقطع احساس هذا الشطر من الحضور العربى بالمسئولية قبل الأسواق ومدن الاسواق ٠ وتصاعد هذا الاحساس بالمسئولية تصاعدا فعليا قبل عملية التسويق فى حد ذاتها ٠ واهتمام البداوة بالأسواق والتسويق والانهماك فى التعامل وهم طرف من الأطراف المنتفعة بالعرض والطلب والمستفيدة من الأخذ والعطاء ، قد ربط مصيرهم الاقتصادى ربطا مسئولا عن الأسواق ومدن الأسواق ٠ ومن ثم اصنعت المسئولية الالتزام الذى قبلت به البداوة وتوجب عليها اقتصاديا عن طيب خاطر ٠

وقل بكل الثقة أن هذا الالتزام هو الذى قبلت بموجبه البداوة وحدد ابعاد وجدوى العلاقة مع الأسواق ومدن الأسواق ٠ وهذا الالتزام البدوى هو الذى هيأ أهل البادية وهم شطر من الحضور العربى فى جزيرة العرب ، للانصياع الملتزم ، ليس للمصالحة على أرض السوق فقط وللاسهام فى استثمار مناخ المسالمة مع الشطر الآخر ، بل للانصياع أيضا بكل الرضا للضوابط التى فرضها التجار وهيمنوا من خلالها هيمنة فعلية على اوصال وحركة وتطلعات الاقتصاد العربى قبل الاسلام ٠

وهكذا أصبحت العلاقة بين الاقتصاد الرعوى وأصحاب المصلحة فيه ، وعملية التجارة والتسويق سواء وهى قوافل عابرة من والى الأسواق ومدن الاسواق ، أو وهى حركة فى الأسواق ، علاقة وظيفية تشبث والتزم بها أهل البادية ٠ ولقد وظفتهم هذه العلاقة أحيانا فى خدمة عملية التجارة وتأمين مصالحها وانتفعوا بهذا التوظيف ٠ ووظفت البداوة هذه العلاقة أحيانا أخرى فى خدمة مصالحهم الاقتصادية وفى تأكيد حقهم فى الانخراط والمشاركة فى عملية التجارة وانتفعوا مرة أخرى بهذا التوظيف ٠

البداوة والتبعية الاقتصادية :

حسن توظيف العلاقة الملتزمة بين البداوة والاجتهاد الاقتصادى الرعوى من جانب والتسويق والانتفاع الاقتصادى به من جانب آخر هو الذى اصطنع التبعية الاقتصادية • بل تجسدت بموجب هذه التبعيةأهم مظهر من مظاهرها الحقيقية • وبموجب هذه التبعية الاقتصادية وكأنها وحدة فى المصلحة والمصير الاقتصادى امتثلت البداوة وامتثل اجتهادها الاقتصادى لمن كان من حقه فى الأسواق وفى مدن الاسواق أن يعطى أو أن يصدر القرار •

والتبعية الاقتصادية التى نعنيها بالضبط لا تعبر عن شىء أهم من التزام البداوة بالقرار ، وبطاعة من يملك اصدار القرار فى السوق • ولم يحدث أبدا أن كانت العلاقة على غير هذا المستوى • بل لم يكن فى وسع البداوة والاجتهاد الاقتصادى الرعوى تغيير التوظيف الذى وضع العلاقة الملتزمةموضع التبعية الاقتصادية •

ويمكن التأكيد على أن البداوة واجتهادها الاقتصادىوهى صاحبها مصلحة لم تملك فى وقت من الاوقات أن تتمرد على هذه التبعية الاقتصادية • بل لعلها لم تملك فى وقت من الاوقات قوة الضغط أو التأثير التى عبرت عن ارادة تغيير هذه العلاقة من علاقة تبعية سجلت الانصياع الى علاقة الندية التى لا تحتم الالتزام • وهل هناك أهم من التزام البداوة واجتهادها الاقتصادى بهذه التبعية الاقتصادية ؟

والتبعية الاقتصادية قد تعنى الكثير فى عالم الاقتصاد • ولكن هل الالتزام كما توجب على البداوة والاجتهاد الاقتصادى الرعوى شيئا أهم وأجدى من ؟

١ ــ قبول واحترام وسريان مفعول والعمل بمقتضى منطق وروح المصالحة بينهم وبين الاستقرار وسيادة الأمن الذى أمن وأظل حركة الاقتصاد العربى ومصالح الحضور العربى قبل الاسلام فيها •

٢ ــ ترابط وتداخل وانفتاح قنوات الاتصال وتوثيق العلاقة بين حركة الاقتصاد الرعوى والبناء الاقتصادى العربى المتكامل فى جزيرة العرب قبل الاسلام •

٣ ــ الاقرار والامتثال والنزول عند أمر من أمسك بزمام الاقتصاد العربى ووضع الضوابط الحاكمة لحركته واتجاهاته ومصيره •

ومن ثم يمكن أن نتصور كيف كانت الضغوط الطبيعية من وراء الانتشار والتشرذم العربى وهو قدر محتوم ومن وراء الانشطار الحضارى وهو مصير مكتوب · بل يجب أن نستشعر مدى الاستجابة لهذا القدر ومبلغ الانسجام مع هذا المصير · وعندئذ يجب أن ندرك من جانب آخر كيف كانت الأسواق وعمليات التسويق وفئة التجار فى مدن الأسواق وهى التى أمسكت بزمام حركة الاقتصاد واصنعت التبعية الاقتصادية العامل الحاسم المسئول عن :

١ ـ المصالحة بين شطرى الحضور العربى ـ البداوة والاستقرار ـ مصالحة نسقت بين الاقتصاد الرعوى والاقتصادى الزراعى واوقفت التمادى فى متاعب واخطار التضاد الحضارى الذى فرضه المصير المكتوب ·

٢ ـ اختراق حواجز الانتشار التى اصنعت الانشطار والتشرذم ، اختراقا وظف موجبات التبعية الاقتصادية فى مصلحة مشتركة اوقف التمادى فى متاعب وسوءات الانشطار والتشرذم الذى فرضه القدر المكتوب ·

وفى اعتقادى أن هذه التبعية الاقتصادية قد استحدثت اوضاعا وظفت عوامل الاقتضاد وحركة الاقتصاد توظيفا معاكسا ومضادا لعوامل الحضارة وحركة الحضارة على صعيد جزيرة العرب · وسجلت هذه الاوضاع نجاح عوامل الاقتصاد وحركة الاقتصاد نجاحا حقيقيا فى وقف سريان التضاد الحضارى وتمادى الانشطار الحضارى الى التفسخ فى جسد الحضور العربى القومى فى جزيرة العرب ·

واصطناع صيغة أبقت على الاطار الفضفاض الذى لم أوصال الحضور العربى فى جزيرة العرب فى الجاهلية قبل الاسلام ، كان مطلبا حيويا وجوهريا ، ليس لحساب حركة الاقتصاد ومصالح ومنافع متبادلة بين البداوة والاستقرار فقط · بل هو فى اعتقادى تجهيز مفيد واعداد مثمر ، هيأ هذا الحضور العربى وأعده لوضع جديد · ولقد اقتضى الوضع المرتقب وحدة مصالح ووحدة لسان(٢٣) ووحدة مصير ارادها اللـه العلى القدير واصطنع

---

(٢٣) اختلفت لهجات العربية التى تكلمت بها واستخدمتها القبائل التى انتشرت فى براديها أو فى مواقع استقرارها · ولو استمر الحال مع مضى الوقت الطويل لأكثر من ثلاثة آلاف سنه قبل الاسلام ، لتوقعنا لغات متباينة مستقة من العربية وليست لغة عربية واحدة · وفى اعتقادى أن الأسواق والاجتماع فى الأسواق قد استوجب لغة تفاهم تخدم المصالحة والمصالح · وهذا معناه أن الإتجاه الى الأسواق والمضى الى حد الانغماس فى التبعية الاقتصادية قد حال دون

بموجبها التغيير الذى دعا اليه الاسلام لحساب الحياة فى اطار دعوته العالمية ومصلحة الانسان على الصعيد العالمى ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

الاجتهاد الاقتصادى الزراعى :

هذا الاجتهاد الاقتصادى هو وسيلة الاستقرار التى جاوب بها شطر من الحضور العربى ارادة التحول الحضارى ٠ وفى هذا الاجتهاد الاقتصـــادى لا شىء يلفت النظر ويستحق العناية أهم من العمل الزراعى واستخدام الأرض فى الزراعة ٠ بمعنى أن الاجتهاد الاقتصادى الزراعى هو وليد شرعى للاستقرار الذى تعلم كيف يتعامل مع الارض ومقومات العمل الزراعى تعاملا مثمرا من أجل انتاج الغذاء وزراعة المحاصيل الغذائية ٠

وهذا ــ بكل تأكيد ــ الوجه الآخر الذى اسفرت عنه الثورة الاقتصادية الأولى فى حياة الانسان ٠ولقد حولته اقتصاديا من مرحلة استخف به وأشقاه وأجهده جمع الطعام الى مرحلة جديدة أمنه فيها واراحه انتاج الطعام ٠ وموجبات هذا التحول الحضارية هى التى شطرت الحضور العربى وميزت بين الاستقرار والبداوة ٠ وتأسيسا على ذلك التحول كانت كل التحولات الأخرى التى منحت الاستقرار الحياة الأفضل اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا ٠

وصحيح أن توجه شطر من الحضور العربى فى جزيرة العرب منذ نهاية العصر الحجرى الحديث الى الزراعة ، كان نتيجة أملتها الضغوط المناخية وهى التى أسفرت عن الانشطار الحضارى الى بداوة واستقرار ٠ وصحيح أن هذا التوجه الحضارى الىحيازة الأرض وامتلاكها والتعامل معها واستخدامها فى انتاج الغذاء ، قد كفل الاستقرار فى مواقع الواحات على صعيد جزيرة العرب وفى مواقع الجنوب العربى الاغزر مطرا ٠ وأمن انتاج الغذاء فى هذه المواقع الاستقرار وجنبة التحرك والانتقال وخفف عنه أعباء البحث عن الغذاء ٠

التمزق اللغوى ٠ بل ان مكانة مكة التى جمعت فى صعيد واحد بين التفوق التجارى بين مدن الاسواق والتفوق الدينى لأنها احتوت البيت العتيق هى التى جعلت لغة قريش أو لهجة قريش العربية لغة التفاهم المشترك التى تعلمها ونعامل بها العرب جميعا ٠ وفى الجاهلية أبقت هذه اللهجة وهى لغة التفاهم المشترك على صعيد جزيرة العرب على خيط رفيع صان العرب من التمزق اللغوى ٠ ولما جاء القرآن بالعربية كما نطقت بها قريش ، كانت معرفة اللغة على المستوى العام فى جزيرة العرب سبيلا لفهمه وقراءته وتقبل معانيه ودعوته الله ٠

بل قل أنه حفز التشبث بالأرض وامتلاكها وحال دون التفريط فيها تفريطا سهلا أو هينا ٠

وصحيح أن الاستقرار والتشبث بالأرض فى مواقع الواحات قد أسفر عن نتائج حضارية مادية مثيرة اثارت كل التحولات التى اصطنعتها الثـــورة الاقتصادية الأولى ٠ ولكن الذى ينبغى أن نذكره جيدا هو معنى وقوع هـــذه المواقع فى الصعيد الذى طوقته البداوة وكيف تضررت كثيرا بعدوانها ٠ بل قل أن البداوة قد أهدرت دم هذا الاستقرار وانجازه وربما سفكت دمه وانتكهت كل حق له فى الأمن والبقاء ٠ أما الاستقرار الذى عاش فى مواقع على صعيد الجنوب العربى فان عدوان البداوة لم يفتك به وأن أضر احيانا بمصالحه ٠

ونجاة الاستقرار الذى نشأ واعتصم بالأرض فى الجنوبى العربى من بطش البداوة ، قد اطلقت العنان لاجتهاده الاقتصادى الذى اعتمد على الزراعة٠ وما من شك فى أن حظ الجنوب العربى من المطر السنوى وتوزيعه على مدى عدد معقول من الشهور هو الذى وطن الاستقرار ٠ بل لقد هيأ له الفرص وشد أزره فى استخدام الأرض فى الزراعة وانتاج الغذاء ٠ ولقد استحق هـــذا القطاع المحظوظ من جزيرة العرب الذى احتوى الاستقرار منذ وقت طويل قبل الاسلام أن يعرف على صعيد العالم وعند المدنيـــات القديمة ، بالعربية السعيدة .Arabia Felix

ومع ذلك ينبغى أن ندرك كيف واجه هذا الحضور العربى الذى آثر الاستقرار فى العربية السعيدة التحديات والمتاعب ٠ بمعنى أن حركة الحياة لا تجسد نزهة أو متعة تنعمت بها فى احضان العربية السعيدة ٠ بل قل انها قصة كفاح حقيقى واجهت التحديات واجتهد الاستقرار ووظف مهاراته لكى يطوع الواقع الجغرافى الطبيعى ٠ ومن غير ابطال مفعول التحديات وتطويع الواقع الجغرافى الطبيعى ما كان فى مقدور الاستقرار فى العربية السعيـــدة - الجنوب العربى - أن يوظف الأرض توظيفا مناسبا فى انتاج الغذاء ٠

بل ينبغى أن ندرك بكل اليقين - كيف استنفرت هذه التحديات فى الحضور العربى المستقر كل الملكات وشخذت القدرات لكى ينتزع من براثنها مقومات الحياة ٠ وما استحق الجنوب العربى أن يمثل فى نظر الرومان وهم أهل مدنية ، العربية السعيدة من غير هذا الاجتهاد العربى المثابر ، الذى توسل بالقدرات الايجابية والآداء الأنسب الذى طوع الواقـــع الجغرافى الطبيعى البيئى وأبطل مفعول تحدياته ٠

والتحدى الذى واجه الحضور العربى المستقر على صعيد الجنوب العربى ، هو أحيانا محصلة التضرس الشديد فى الأرض الجبلية الوعرة ، وما يسفر عنه من انحدارات شديدة ووديان عميقة تمزق أوصالها . ولقد تسبب الانحدار الشديد وتمزق السطح فى انهيار التربة وزحفها زحفا عرى السطح أحيانا ، أو فى انسياب المطر وجريانه جريانا سريعا حال دون توظيفه فى الرى المطرى للارض المنزرعة احيانا أخرى . وهل يعنى هذا التشكيل التضاريسى شيئا غير أن يتعذر استخدام الأرض أو تجهيزها لانتاج الغذاء ؟ وهل تعذر استخدام الأرض فى الزراعة ، يعنى شيئا غير أن تتضرر البنية الاقتصادية ومصالح الناس فيها ؟

ولقد صمد الحضور العربى المستقر فى مواجهة هذا التحدى الطبيعى. وما من شك فى أن التحدى الذى انتهك حق الحياة فى انتاج الغذاء قد استنفر القدرة وشحذ الاجتهاد . وعندئذ اتجه هذا الصمود الوجهة الايجابية ولم يركن للفرار أو الانسحاب من المصارعة . بل قل انه اصطنع كل ما فى وسعه لاحباط هذا التحدى وابطال مفعول التضرس ومضاعفاته وضغوطه المعلنة ضد مصلحة الحياة . والصمود الصلب - فى حد ذاته - علامة بشرت بارادة فعالة وقدرة مبدعة ، طوعت التضرس وانتصرت عليه انتصارا حقيقيا لحساب حركة الحياة وحضورها اليقظ فى انتاج الغذاء من الأرض .

والارادة الفعالة والقدرة المبدعة ، التى ابتنت المدرجات على المنحدرات، من اقدام الجبال الى صدورها العليا ، هى التى طوعت التحدى فطاوعهاالواقع الجغرافى الطبيعى واعلنت الانتصار . وهل انشاء المدرجاتواصطناع المصاطب وصيانتها لا يمثل آية الابداع الذى طوع الأرض فاطاعته وكفلت مساحات معقولة لانتاج الغذاء ؟ وهل تطويع الأرض وابطال مفعول التحدى التضاريسى لا يكفى لبيان معنى ومغزى هذا الانجاز ؟ وهو - من غير شك - الانجاز الذى أمن حاجة الحياة التى أمسكت بزمام الانتاج من الزراعة ومحاصيلها المتنوعة .

والتحدى هو أحيانا أخرى محصلة النقص فى كم المطر السنوى الذى تلاعب بحاجة الأرض المنزرعة من الماء الأنسب . وكان هذا التلاعب نتيجة اصطنعها ما يطرأ من ذبذبات ، عندما يزيد المطر عن المعدل السنوى ويكون فيضا غزيرا فى بعض السنوات ، أو عندما يقل وينقص عن المعدل السنوى ويكون المطر شحيحا فى بعض السنوات الأخرى . وهل أسفر هذا التذبذب

عن شيء أخطر من التباين في مساحة الأرض وفي كم انتاج الغذاء من سنة الى سنة أخرى ؟

ولقد تمادى هذا التذبذب كلما انحرف هذا المطر المتذبذب عن مواعيد سقوطه المرتقب • وفي بعض السنوات تأتي المطر مبكرا ومفاجئا على غير ميعاد أحيانا ، أو تأتي المطر في بعض السنوات الأخرى متأخرا على غير العادة • وهذا هو بالضبط عين ما يجسد معنى الانحراف عن مواعيد سقوط المطر الفصلي • والانحراف عن المواعيد معناه امتثال الانتاج امتثالا أخل بمعدلاته ومبلغ انضباطها • بل ومعناه القلق الشديد الذى أضنى الاستقرار وترك مصيره تتهدده ظروف المطر وانحرافاته المتذبذبة •

وأحوال المطر المتغير سواء تعرض كمه السنوى للذبذبة زيادة أو نقصانا عن المعدل ، أو تعرض موسم المطر للانحراف بالتبكير أو التأخير عن الموعد ، لا تعنى أقل من تذبذب انتاج الغذاء • وتذبذب انتاج الغذاء هو عين الخطر الذى انتهك أمن الحياة وأرق الاستقرار • وما من شك فى أن هذا الانتهاك قد فزع الاستقرار واستطاع أن يؤثر على البنية الاقتصادية ومصالح الناس فيهـا •

ولقد صمد الحضور العربى المستقر مرة أخرى فى مواجهة هذا التحدى الطبيعى المناخى • وبشر هذا الصمود باجتهاد ايجابى فعال ومثابر استنفرت قدراته حالة الفزع التى انتابت الاستقرار • وعرف هذا الاجتهاد الايجابى جيدا كيف يصارع من أجل ابطال مفعول ذبذبة المطر وانحرافاته أو احباط ضراوة هذا التحدى • وهذا الصمود هو بكل المقاييس صمود ارادة وقدرة أبت أو رفضت الامتثال أو أن تترك زمام مصيرها فى قبضة هذا التحدى الذى تلاعب بانتاج الغذاء •

والارادة الفعالة والقدرة المبدعة ، التى ابتنت سد مأرب(٢٤) ، وروضت الجريان السطحى وكبحت جماحه ، هى التى طوعت التحدى المناخى ولم تمتثل لضغوطه • وهل بناء سد مأرب وتوظيفه فى الرى لا يمثل آية الابداع الرائع والعمل الهندسى المتفوق فى ذلك العصر ؟ وهل تخفى جدوى هذا السد الذى طوع الايراد المائى وحرر مصالح الانسان فى انتاج الغذاء من ضغوط التحدى

---

(٢٤) سوسة ، أحمد : العرب واليهود فى التاريخ من صفحة ٢١٤ - ٢١٦ •

المناخى ؟ وهل تطويع الايراد المائى وحسن توظيفه فى تأمين مساحات الأرض المنتجة للغذاء ، لا يكفى لبيان معنى ومغزى هذا الانجاز ؟ وهو - من غير شك - الانجاز الذى أمن حاجة انتاج الغذاء من الماء بالكم المناسب وفى الوقت المناسب فى الأرض المنزرعة ٠

وهكذا أكد الاجتهاد الزراعى جدواه فى احباط اعتى التحديات الصعبة وطوعها حتى اطاعته ٠ بل لقد انتصر هذا الاجتهاد المثابر لحساب الاقتصاد الزراعى العربى قبل الاسلام ٠ وكفل وشد أزر وأمن الحضور العربى المستقر فى الجنوب العربى الذى جنى ثمرة الانتصار ٠ بل قل هذا هو الاجتهاد الاقتصادى المنتج الذى جسد مدى استحاق الجنوب العربى لأن يعرف بالعربية السعيدة ٠

والانجاز الحضارى العظيم الذى انتصر وأمن الاستقرار قد اصطنع حضورا حضاريا مثيرا ٠ وهذا الحضور الحضارى المثير معناه أحيانا اضافات وانجازات مادية مجددة ومبدعة تألقت بها مكانة مملكة سبأ(٥٢) ٠ والحضور الحضارى المثير معناه أحيانا أخرى اتساع والحاح وتنوع فى الضرورات التى تطلبها الحياة ٠ وهل لا تكفل الزيادة فى الانتاج أو الاضافة اليه ، هذا الحق المشروع فى زيادة وتنويع حاجات الاستهلاك ؟

وهل من شأن هذا الحضور الحضارى العربى الذى احسن توظيف العمل الزراعى فى دعم اقتصاده ، والذى أضاف وجدد وأبدع حتى أمن انتاج

---

(٢٥) عرفت ملكية الأرض كيف تضع الحدود التى عرفت فى عصر متأخر بالجوامد ٠ وكانت الأرض البور ملكا للحكومة أو ملكا للمعابد أو ملكا للأفراد ولقد وضع نظاما لتأجير الأرض المملوكة لمن يقدر على فلحها ٠ كما نظم التعامل فى الأرض وظهر نظام اقطاع مساحات منها على شكل هبات ٠ بل أصبح الاقطاع اقطاع تمليك واقطاع استغلال ٠ والاقطاع لم يعتمد دائما على استخدام العبيد بل ربما اعتمد على قوة العمل من أولئك الذين يملكون الأرض ٠ وعلى عهد دولة سبأ ظهر حق الدولة فى الأرض غير المملوكة ونظم الحكم سبل اقطاعها أو سبل استخدامها وتكليف قوة العمل باستخدامها ٠ كما ظهر فى الجنوب العربى هيمنة رجال الدين على الأرض المملوكة للمعبد على اعتبار أن هذه الأرض ملك الآلهة وان حق استخدامها يكون من خلالهم ٠ ومع مرور الوقت كانت ملكية الأرض من الأمور التى صادفت الاهتمام والعناية فى شأن سبل حيازتها والتمسك بهذه الحيازة ٠

راجع الفصل رقم ٩٥ من جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٧ ط ٢ من صفحة ١٣٠ - ١٥٦ ٠

الغذاء ، أن ينتهى انجازه العظيم الى شيء غير ذلك التراث الحضارى المادى الرائع ؟ . وما من شك فى أن هذا التراث الحضارى المادى المثير قد وضع الحضور العربى فى العربية السعيدة ، فى صف واحد مع الحضور فى المدنيات ذات الماضى العريق فى مصر والعراق والهند .

ولقد أمعن الحضور العربى المستقر وتمادى فى الاهتمام بنظام حيازة الأرض وتأمين انماط الملكية ، لحساب الاجتهاد الاقتصادى الزراعى . ومهما تنوعت انماط هذه الحيازة وتباينت ضوابطها ، فان الاتجاه العام ثبت ودعم حق الملكية الخاص للفرد بل لقد اعطى لمن أحيا الأرض الميتة حق امتلاكها . وما ظهر اتجاه قط الى ملكية غير الملكية الفردية . وحتى اقطاع الأرض ومنح مساحات منها قد برهن على هذا المعنى والتمادى فى نظام الملكية الخاصة .

وما أمن الاجتهاد الاقتصادى الزراعى شيء أهم من تنظيمات حق الملكية وحيازة الأرض وانتقالها بالبيع والشراء أو بالتوريث أو بالمنح والهبة . كما أسهم ظهور القرى وهى المستوطنات البشرية التى احتوت الناس فى مضى الاجتهاد الاقتصادى الزراعى فى أمر استخدام الأرض فى الانتاج الزراعى . ولا شيء عزز الاستقرار غير ظهور القرى التى جمعت شملك الناس فى ريف الزراعة . بل لقد عززت القرى حقوق حيازة الأرض وامتلاكها ونشأ النمط القوى من الانتماء الى الأرض والمكان الذى تحول الى مفهوم الوطنية فى وقت لاحق .

ونجاح الاجتهاد الاقتصادى الزراعى الذى أمن الحضور العربى الحضرى وكفل استقراره فى القرى ومواطن السكن وعزز حق حيازة الأرض لم يتوقف أو لم يكف عن طلب المزيد من النجاح فى شأن الآداء الوظيفى للانتاج واتجاهاته . وبناء على ذلك ينبغى أن ندرك أن الاهتمام بترسيخ الاستقرار وتنمية الانتاج قد احيا فى الاستقرار ونما ارادة الطلب والاستهلاك . بمعنى أن ثمة علاقة يجب أن ندرك بموجبها كيف نما الاستقرار والتحضر الطلب فى مقابل النمو والزيادة فى الانتاج والعرض . بل قل أن هذا النمو فى الطلب اتجه اتجاها واضحا الى التنوع لكى يشبع ويجارى التحضر .

ونمو وتنوع الطلب فى المفهوم الاقتصادى المعاصر وفى الماضى البعيد على حد سواء لا يعنى شيئا أهم من زيادة الاستهلاك . كما جسد أيضا فى ذلك الماضى البعيد كيف نوع التحضر الضرورات التى اتجه اليها الطلب والاستهلاك . ونجاح الاجتهاد الاقتصادى الزراعى ومعظمه فى الجنوب العربى هو الذى عرف

كيف يلبى هذه الزيادة فى الطلب وفى معدلات الاستهلاك من أجل التوازن الاقتصادى .

واذا كانت العناية بالتوازن الاقتصادى ، قد حفزت الاجتهاد الاقتصادى الزراعى بالضرورة الى مضاعفة وتكثيف العمل والانتاج من الأرض ، فانها أيضا هى التى حفزت الخروج العربى فى طلب الرزق التى كفلت الاضافة لحساب هذا التوازن الاقتصادى . وهل نشك فى أن توجه الحضور العربى فى جنوب جزيرة العرب الى استثمار الابحار العربى المغامر فى المحيط الهندى كان من أجل شيء غير هذه الاضافة التى الح فى طلبها ؟ وهل نشك فى جدوى هذا الرزق وهذه الاضافة التى حقق هذا الحضور العربى الحضارى المتحضر بموجبها هذا التوازن الاقتصادى ؟

الاتجاه الرشيد لتوسيع قاعدة الاقتصاد الزراعى :

اذا كان ما نتصوره فى شأن زيادة وتنوع ضرورات الاستهلاك قد حفزت الحضور العربى فى الجنوب العربى الى تنشيط العمل من أجل انتاج وعرض متوازن مع الاستهلاك صحيحا ، فيجب أن نفهم جيدا كيف نسق هذا الحضور العربى قوة العمل وكيف وجه توظيفها توجيها جيدا من أجل تحقيق هـــذا الهدف أو بلوغ هذه الغاية . وما من شك فى أن هذا التنسيق الذى احسن توجيه هذا التوظيف هو الذى اسفر عن توسيع حقيقى فى بناء القاعـــدة الاقتصادية التى ارتكز عليها الحضور العربى وأمن حقه فى التوازن الاقتصادى بين الانتاج والاستهلاك .

وتوظيف الابحار العربى المغامر فى طلب الرزق من جانب ، وتوظيف العمل فى حقل الزراعة من جانب آخر ، كفل الانجاز المشترك فى بناء القاعدة الاقتصادية . بل قل أن كل توظيف منهما أصبح رافدا مهما اعتمدت عليه حركة الحياة العربية فى الجنوب العربى . ومن غير أن نبحث فى أى توظيف منهما كان فى عون الآخر ، يمكن أن نلمس جيدا معنى هذا الانجاز المشترك من وجهة النظر الاقتصادية فى دعم أصحاب المصلحة فى القاعدة الاقتصادية.

واشتراك عوائد الخدمة والعمل والابحار فى مجال التجارة الدولية والوساطة التجارية جنبا الى جنب مع عائد أو محصلة انتاج الغذاء من الزراعة فى دعم البناء الاقتصادى للاستقرار معناه دعم حصة هذا الشطر العـــربى المستقر فى البناء الاقتصادى المتكامل على صعيد جزيرة العرب . وما من شك

فى أن هذا الاشتراك قد أسفر عن تأمين حركة الحياة العربية بكل حذافيرها على اعتبار أن أوصال حركة الحياة ومصالحها تشد أزر بعضها ، وأن البعد الاقتصادى هو عصب هذا التماسك ٠ بمعنى أن الاجتهاد الاقتصادى الذى تولى أمره الاستقرار فى حقل التجارة الخارجية وفى حقل العمل الزراعى قد تجنب سوءات وهزات تزلزل فى العادة البناء الاقتصادى الذى يربط مصيره بمورد واحد ٠

وسواء أمسك اجتهاد هذا الحضور العربى (الاستقرار) بزمام التفتح فى شأن انتاج الزراعة وضبطه ثم عرف وجنى ثمرات الانفتاح على العالم الخارجى واحسن توظيف الابحار المغامر توظيفا تجاريا ، أو امسك هذا الاجتهاد بزمام الانفتاح فى شأن الابحار التجارى الخارجى المغامر وحفزه ثم عرف وجنى ثمرات التفتح الانتاجى الغذائى ، فان الانفتاح والتفتح بعضه من بعض ٠ بل قل — بكل اليقين — أن الانفتاح الذى اصطنع التفتح أو التفتح الذى اصطنع الانفتاح ، قد اشتركا معا اشتراك التساند والتضامن بالتوازى والتوازن فى مهمة دعم وترسيخ وتوطيد قواعد البناء الاقتصادى الزراعى الذى ابتناه الاستقرار النشيط والمجدد ٠

وسجلات التاريخ العريق على المدى الطويل قبل الاسلام ، وهى مدونات مكتوبة أو وهى نقوش أثرية ضمت فى سطورها وفيما بين السطور مؤشرات لا تضل ولا تضلل فى شأن هذا الاسهام المشترك ٠ بل قل أن حسن استخلاص الدلالة من اعماق الغموض والابهام المتعمد لحساب التمويه ، يبدى ما حفلت به هذه السجلات ٠ وهى — على كل حال — قد صورت — فى اعتقادى — رغم الغموض الكيفية التى اشترك بها التفتح الحضارى فى احضان الزراعة والاستقرار والانفتاح التجارى على العالم الخارجى معا فى اصطناع وتطوير ونمو البناء الاقتصادى للاستقرار ٠

تقسيم العمل واختصاصه فى الاقتصاد الزراعى :

فى هذا المناخ الحضارى عرف الاستقرار سبيله جيدا ٠ بل لقد أجاد وأحسن فى تطويع الواقع الجغرافى البيئى حتى دانت له الأرض واستسلمت موارد العطاء فيها ٠ وفى هذا المناخ الحضارى الذى وظف الاستقرار فيه كل القدرات والمهارات لكى تدين الأرض له ، وظف الانفتاح والتفتح معا فى صياغة اقتصاده ٠ ومن ثم جنى الاستقرار ثمرات الاجتهاد وانكبت قوة العمل على الانجاز والعمل والآداء الوظيفى كل فيما خصه ٠

والآداء الوظيفى لانجاز العمل كل فيما خصه معناه الاختصاص · ومن الجائز أن نتبين كيف أسفر هذا الاختصاص عن توليفة كبيرة ومتنوعة من قوة العمل · كما يمكن أن نتبين أيضا ضوابط ومسالك واتجاهات هـــذا الاختصاص فى انجاز الحصة المعنية من العمل · ولكن الذى يجب أن يلفت الانتباه حقا وصدقا هو الكيفية التى أسفر بموجبها هذا الاختصاص عـــن التخصص فى العمل مع مرور الوقت ·

والاتجاه من الاختصاص فى آداء العمل وانجازه الى التخصص فى هذا الآداء ، أمر متوقع ولا غبار عليه · وهو شكل من أشكال التحول الحقيقى الذى جسد جدوى التفتح الحضارى · وهو ايضا جزء من سياق التغـــيير الحضارى فى اطار الاستقرار وما أدى اليه من نمو حضارى حقيقى على المدى الزمنى فى العصر السابق لظهور لاسلام · وهل لا يصطنع الاحتكاك الحضارى الذى كفله الانفتاح العربى بعض مقومات هذا النمو ؟

هذا ، ويجب أن نصنف العمال أو قوة العمل فى اطار التوليفة التى جمعت بين الاختصاص والتخصص بل ينبغى أن نميز بين العمل والانجـــاز وتنوع مستوياته فى اطار ثلاثة فئات على وجه التحديد · ومن الجـائز أن يتفاوت الآداء ومستوى المهارة التى أنجزت العمل ، وأن تتفاوت الجدوى فى اطار كل عمل وكل فئة انجزت العمل ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن صحبة العمل فى اطار كل فئة ، قد عكفت على آداء العمل الذى أوكل اليها أو الذى تفرغت له · ومن ثم عرفت جيدا سبيل التحول من الاختصاص الىالتخصص·

وصحيح أن تصنيف فئات العمل لا تضل ولا تضل فى شأن الاتجـاه الحقيقى الذى استشعر جدوى تقسيم العمل · وصحيح أن هذا التقسيم قد اقتضى شكلا أو درجة من درجات المهارة مع الاختصاص · ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن فرص التحول من من عمل الى عمل آخر قد كفلته ليسقنوات الاتصال بين أبواب العمل فقط بل كفلة الاتجاه الماهر فى التخصص ·

وبمقتضى التنوع فى العمل واتساع قاعدته فى الداخل والخارج ،تمثلت فئات العمل فى ثلاث فئات على وجه التحديد · وسواء اختصت كل فئة بآداء العمل فى مرحلة أو تخصصت فى آداء هذا العمل فى مرحلة تالية فلقد تمثلت هذه الفئات فى :

الفئة الأولى (عمال الزراعة) :

ضمت هذه الفئة جمعا من الرجال والنساء ممن اكتسبوا المهارة فـي الزراعة ٠ وهذه الزمرة التى عملت فى مجال انتاج المحاصيل لحساب الغذاء ٠ وسواء كان الأعضاء فى هذه الزمرة من أصحاب الأرض أو من العمال الذين عملوا فى مقابل الأجر المعلوم ، ارتبط عملهم وادائهم الوظيفى فى مساحات الأرض المنزرعة حول القرى والمستوطنات التى احتوت الاستقرار العربى فى الجنوب العربى ٠

واجتماع هذه الزمرة من أهل الريف سكان القرى واسهامها فى اعداد الأرض للزراعة أو فى بذر الحب وانجاز العمليات التى استوجبتها العناية بالنمو والنضج والحصاد ، قد رسخ العلاقة بالأرض والاستقرار ٠ وترسيخ هذه العلاقة بالأرض معناه استشعار الارتباط بين العامل فى الأرض من ناحية وعطاء الأرض من ناحية أخرى ٠ بل قل أنه بث فى الناس استشعار جدوى المكان الذى أمن الحياة واحتواها وأطعمها ٠ وأضاف ذلك الى الاعتزاز بالانتمـاء للناس والقبلية التى انحدر منها الانسان ، اعتزازا وتقديرا للانتماء للارض٠ وتلك من غير شك بذرة وأصل فى اعتناق فكرة الوطن وفى ظهور ونشـأة الانتماء الوطنى ٠

ووثق اجتماع هذه الزمرة من أهل الريف سكان القرى العلاقة بـين الشركاء فى مراحل ومستويات العمل ، سواء من عمل منهم فى فلح الأرض أو من عمل منهم فى عمل آخر غير فلح الأرض ٠ وتوثيق هذه العلاقة هو شكل من أشكال التعاون الحميد الى ألف بين المستقرين سكان القرى وقوى فاعلية المشاركة فى السكن والمشاركة فى العمل حتى أصبحت المصلحة الاقتصادية المشتركة مادة لاحمة شدت أوصال البناء البشرى فى كل قرية ، وأوصال البناء البشرى فى مجموعة القرى المنتشرة على صعيد الأرض فى الجنـوب العربى ٠ وتماسك أو التحام أوصال البناء البشرى من ناحية وارتباط هـذا البناء فى علاقة أسفرت عن مصلحة اقتصادية مشتركة فى استخدام الأرض وزراعتها من ناحية أخرى ، وضع وأرسى الأساس لتكوين الشعب وترسيخ عوامل الربط والتماسك بين أفراده ٠

وهذا معناه أن الاجتهاد الاقتصادى الزراعى الذى تولت فيه هذه الفئة أمر العمل الزراعى قد انضج عوامـل ومقومات تكوين البناء البشرى فـى الشكل الأنسب للشعب ٠ بل لقد جهز القاعدة التى اصطنع منها الشـعب

وطنا . وما من شك أن هذا النمو أو النضج الذى أحدث هذه التحولات الخطيرة هى التى تفسر لنا الآن لماذا تشبث الاستقرار العربى بأرضه وهى وطـن وموطن . بل هى أيضا التى تفسر كيف حمل هذا التشبث بالوطن الاغتراب والخروج فى طلب الرزق على العودة وهو أشد حرصا على دعم الحضور العربى القاعد فى الوطن دعما اقتصاديـا .

والمهم أن الشركاء فى هذه الفئة من فئات العمل التى اصطنعت كل هذه النتائج الحضارية والاجتماعية ، كانوا أكثر الناس حبا وتعلقا وعناية بالأرض . ولقد اشتركوا الرجال والنساء والصغار والكبار جميعا فى تنسيق مناسب لانجاز العمل الزراعى . وأخلص فى الآداء وانجاز متطلبات هذا العمل الزراعى من كان منهم مالكا للارض اعتز بها وعززت مكانته الاقتصـادية بين سـكان قريته ، ومن كان منهم أجيرا احترف العمل الزراعى وتكسب منه .

ومن الشركاء عكف العبيد أو الرقيق وغيرهم من أصحاب المهـــارات الحرفية فى انجاز بعض العمل الزراعى أو فى اعداد وتجهيز وتصنيع بعض ادوات العمل الزراعى ومستلزماته . وهذا هو العمل الذى جمع الكل فى القرية أو فى المستوطنة فى اطار وحدة الهدف والغاية من فلح الأرض ، وفى اطار وحدة الصف فى انتاج الغذاء . ولا يجب أن نقول أن الارتباط قد نشأ وتوثق بالأرض قويا ومفعما بالوفاء لها فقط ، بل ينبغى أن نؤكد كيف ربط حق الانتفاع بالأرض وانتاجها مصير هذه الزمرة من الشركاء برباط الصحبة والمصلحة فى المكان .

وصحيح أن رباط هذه الصحبة العاملة فى حقل العمل الزراعى لم يخترق الحاجز الفاصل بين السيد الحر صاحب الأرض والعامل الأجير صاحب المهارة والعبد الرقيق صاحب الحرفة . كما لم يسقط المهانة عن العاملين فى المهـن الحقيرة الحرفية التى امتهنها السادة وأعرضوا عنها . ولكن الصحيح أيضا أن هذا الرباط المتين قد كفل التعاون والعمل الدؤوب فى فلح الأرض وانتاج الغذاء . بل قد كفل اضافة الى ذلك بعض قوة العمل التى وظفت فى خدمة وآداء الأعباء المنزلية فى المساكن أو فى اطار كردون السكن الذى لم شمل كل قرية وجمع الصحبة فيها .

هذا ولم تضم هذه الزمرة التى جمع رباط الصحبة فى العمل الزراعى فى اطارها جمعا متنوعا من قوة العمل نفرا أو عنصرا تولى أمر التجـــارة والتعامل التجارى فى القرية . وحتى لو ظهر هذا العنصر فهو ليس فردا من

أفرادها ٠ وربما كرست قوة العمل بعض أفرادها فى بعض الوقت المناسب للذهاب الى السوق ٠ واهتم المزارع غالبا بالتعامل الشخصى المباشر فى السوق ٠ وما كان من شأن القرية أن ضمت سوقا أو حبذت احتواء السوق فى اطـار كردون السكن ٠ وربما اختارت القرى المتقاربة أرضا للسوق فى الموقـــع المناسب بعيدا عن مكان السكن ٠ وفى هذا السوق الأسبوعى أو الموسمى تقابل المتعاملون من سكان القرى المتناثرة من حوله فيه طلبا للتعامل والبيع والشراء ٠

الفئة الثانية (عمال التجارة) :

ضمت هذه الفئة فى الغالب جمعا من الرجال فقط ولم تفسح مكانـــا للمرأة ٠ وما كان فى قدرة المرأة أو فى وسعها أن تسهم فى هذا العمل ٠ بل وما سمحت التقاليد والاعراف لها بحق مزاولة هذا العمل الذى ما كان من المعقول أن يناسب المرأة ٠ وأقصى ما أسهمت به هو توظيف أموالها فى هذا العمل وترك العمل نفسه لمن وثقت فى قدرته وأمانته ٠ وهذا معناه أن هذه الفئة قد ضمت فى الزمرة الخبرة والقدرة والتمويل التى اشتركت فى انجاز المهام التى كفلت وحققت غايات هذا العمل التجارى ٠

واجتماع هذه الزمرة ليس يعنى أن كل افرادها الذين اشتركوا فى انجاز العمل قد تعاون اسهامهم على صعيد الأرض العربية فى الوطن فقط بل امتد هذا الانجاز الى صعيد واسع فى العالم الخارجى ٠ وهذا معناه أن بعض الزمرة قد عملت فى الداخل وبعضها تولى العمل فى الخارج ٠ وهذان الفريقان جمعت بينهما غاية واحدة وهى انجاز العمل التجارى الذى بصره ورشده وسدد خطاه الانفتاح وتبناه الخروج العربى الذى استخفته الحاجـة الى طلب الرزق ٠

ولقد جمع شمل هذه الزمرة وهى فئة عمل اختص بالعمل التجارى ، هدف آداء هذا العمل لحساب شكل مبكر من التجارة الدولية ٠ واجتماع هذه الزمرة قد ضم فريقا خاض تجربة الابحار المغامر فى عرض البحر ، وفريقا آخرا خدم هذا الابحار وشد أزره وعاونه ٠ ووثق التعاون بين من خـــاض التجربة من جانب ومن خدم فى ركاب التجربة من جانب آخر ، الآداء الرتيب فى هذا العمل التجارى والاشتغال فى الوساطة التجارية ، بين الاقـــوام والاقطار ٠ بل قل استقطب اهتمام هذه الزمرة الهدف وألفت بينهم الغاية ووثق العمل المشترك التعاون التجارى المثمر ٠

وفى هذه الزمرة اشتغل البعض فى صناعة السفن وتجهيزها أو صيانتها والعناية بها . واهتم البعض بسلامة الاقلاع من المرافىء الى عرض البحر وهى تذهب فى طلب الغاية وسلامة الاقتراب الى المرافىء من عرض البحر وهى تعود بعد أن حققت الغاية . وانهمك فريق ثالث من هذه الزمرة فى أعمال الشحن أو فى أعمال التفريغ أو فى أعمال الحراسة . واقام كل هؤلاء جميعا فى الوطن بين الاهل والولد ولكن اهتماماتهم وعملهم وارزاقهم هى من محصلة الانجاز الذى خرجت من أجله رحلة الابحار المغامر فى المحيط الهندى .

ومن هذه الزمرة خرج البعض فى معية هذا الابحار ووظف الاختصاص أحيانا والتخصص أخرى ، كل واحد منهم فى انجاز عمل معين على ظهر السفينة . وخدم هذا التوظيف الابحار المغامر سواء كانت الرحلة رحلة ابحار ساحلى أو كانت الرحلة رحلة ابحار فى عرض البحر . وفى الغدو والرواح ، حقق الآداء المنسق العمل وأمن التعاون نجاح الرحلة وأوصلها بالسلامة الى الغاية التى خرجت وغامر الجمع فى سبيلها . بل قل ان هذا البعض من الزمرة التى عملت فى هذا العمل التجارى أصبحت وكأنها قنوات الاتصال مع العالم الخارجى أو اليد الطويلة التى مدها الاستثمار العربى الى صعيد العالم الخارجى وجنى من ورائها ربحا وفيرا .

ومن هذه الزمرة أيضا اقام البعض اقامة المغترب فى مواقع منتخبة وأعد نفسه وانتظر فى استقبال الرحلة وهى تقترب أو فى وداعها وهى تقلع . وفى هذه المواقع المنتخبة التى أصبحت بمثابة رأس الجسر سجلت اقامة هذا البعض المغترب اسهاما مثمرا فى العمل التجارى . ومنهم من كان وكيلا كفل التعامل التجارى ومسيرته ومنهم من كان عينا سهرت الليل كله وحرست مصالح ومنافع هذا التعامل التجارى ومنهم من كان خبيرا حافظ على سلامة السفينة وتجهيزاتها . وما كان اسهامهم أقل قيمة أو جدوى من غيرهم الذين اشتركوا أو أسهموا كل حسب اختصاصه أو تخصصه فى دوره هذا العمل التجارى الواسع الذى امتد على أوسع مدى فى عالم المحيط الهندى .

وفى كل موقع خرجت منه السفينة ، وفى كل موقع وصلت اليه السفينة ، وعلى ظهر كل سفينة ، ومن أجل وحدة الهدف وفى اطار الغاية من هذا العمل التجارى على المدى الواسع ، توثقت العلاقة بين كل الشركاء فى هذه الزمرة أو تلك الفئة . وقد لا نكترث بالكيفية التى نشأت وتوثقت بموجبها هذه

الارتباطات التى جمعت الشركاء فى هذا العمل التجارى وعلاقته بالبحر ، ولكن الذى نكترث به ونؤكد عليه هو أن البحر والاغتراب والعمل التجارى الذى انجزته هـــذه الزمرة قد ربط مصير هذه الزمرة برباط الصحبة فى العمـــل والتعاون فى قطف ثمرات المصلحة المشتركة • بل قل أن هذا الرباط قد وثق انوشائج بين هذه الزمرة فى الداخل والخارج وبين اجتهاد هذه الفئة والأهل ووضع بذرة الانتماء للقوم واستشعار المسئولية قبل هذا الانتماء •

ومن هذه الزمرة العاملة باختصاص أو بتخصص خرج من خرج الى عرض البحر وجلس من جلس متطلعا الى ثمرات البحر واغترب من اغترب فى خدمة التعامل من خلال البحر • وأدى كل عمله فى الموقع الذى أسهم فى خدمة الابحار التجارى المغامر • ولكنهم جميعا من الاحرار أو من العبيد كانـــوا أصحاب مصلحة مشتركة • وما فترت الهمة فى هذا الانجاز المشترك ومـــا انقطعت العلاقة بين آداء الجمع أو الحشد المتنوع الخبرات والمهارات فى هذه الزمرة فى الداخل وفى الخارج وعلى امتداد الجسور التى ربطت بين الداخل والخارج •

الفئة الثالثة (عمال التسويق) :

ضمت هذه الفئة أيضا جمعا كبيرا من الرجال الذين استهواهم العمل فى التسويق • وقليلا ما انضم لهذا الجمع بعض النسوة الذين امتلكوا المال ووظفوه توظيفا غير مباشر فى التسويق • بمعنى أن النسوة اشتركوا من خلال الوكلاء الذين ادخلوا هذا المال فى دورة الاقتصاد العربى • وما من شـــك فى أن الاجتماع فى هذه الزمرة قد سخر المال والخبرة معا فى عمليات التسويق التجارى ، وأن اجتهادهم قد تأتى فى احضان الاسواق أو فى مدن الأسواق•

واتجاه هذه الزمرة الى عمليات التسويق معناه انهم تفرغوا وما شغـلوا أنفسهم بالعمل الزراعى • وصحيح أن معظم هذه الزمرة من الشطر العربى الذى عاش الاستقرار وتعشق والارتباط بالأرض•ولكن الصحيح أيضا أن هذه الزمرة قد استثمرت الاستقرار فى آداء هذه الخدمات التسويقية • وحتى لو امتلك الرجل من هذه الزمرة الأرض فانه عهد الى غيره الاهتمام بزراعتها أو بتوظيفها فى انتاج المحاصيل • وما كان فى وسع التاجر أن يعمل فى عمل آخر غير العمل فى الاسواق •

واجتماع هذه الزمرة فى الأسواق واشتراكهم فى غاية معنية وانصرافهم

الى انجاز العمل والآداء الذى تحققت بموجبه هذه الغاية ، ليس يعنى ابدا وبالضرورة أن هذا الجمع الغفير قد اشترك بشكل مباشر فى عمليات التسويق٠ ولكن الذى يعنيه بالضبط هو أن عمليات التسويق قد جمعت الزمرة التى تخصص افرادها فى انجاز أعمال كثيرة متنوعة لحساب التسويق والمصلحة المشتركة فى نهاية المطاف ٠ والمهم أن اختصاصات كثيرة قد ألقت على كاهل كل فرد مسئولياته وان عنايته قد توجهت لانجاز هذا الاختصاص ٠

وما من شك فى أن التجار وأصحاب الاستثمارات قد أمسكوا بزمـــام التنسيق الذى اقتضاه أمر التسويق وحركة العرض فى الأسواق ٠ ولكن الذى ينبغى أن ندركه هو حاجة العمل الى أيدى كثيرة ذات اختصاص فى سياق الانجاز الحقيقى للتسويق ٠ وممن كان من أهل الاختصاص الحمال والكاتب والبائع وغيرهم ٠ بل قل أن انصراف كل صاحب اختصاص الى انجاز عمله قد أدى الى استخدام بعض أولئك الذى تولوا أمر خدمات معنية لحساب حركة الحياة ٠ وهذا وحده كفيل بأن يصور الكيفية التى أصبح السوق والعمل فى التسويق نواة فى نشأة مدينة(٢٦) السوق وما احتوته من عمران واستيطان جمع وألف بين أصحاب المصلحة والاختصاص فى اطار هذا العمران ٠

وكما أمسك التجار وهم أصحاب الاستثمار فى التسويق بزمام حركة العمل واهتموا بتنسيقها وسياقها ، أمسكوا أيضا بزمام المصالحة التى أمنت التعامل فى السوق والحركة من والى السوق ٠ ولا حاجة بنا الى تكرار ما كان من شأن سريان مفعول هذه المصالحة وانتفاع المتصالحين بها ، أو بموجـــب التقاليد والاعراف التى رسخت روح المسالمة التى اسفرت عنها لبعض الوقت٠ ولكن الذى ينبغى أن نفطن اليه هو أن سريان مفعول المصالحة لبعض الوقت وضع عملية التسويق فى أوضاع تأرجحت بموجبها بين ذروة وحضيض ٠وفى فترة الذروة نشطت روح المسالمة التعامل فى السوق ووفد اليه المتعاملون من كل حدب وصوب ٠ ولكن عندما انقضى أمد التصالح انخفض التعامل وركنت حركة التسويق الى كثير من البطء وانحطت فى الحضيض ٠

واذا كانت المصالحة وسريان مفعولها لبعض الوقت قد اصطنع هـذا

---

(٢٦) فى المفهوم العصرى ، المدينة هى المستوطنة التى توظف معظم قوة العمل فيها فى انجاز أعمال وخدمات فى اطار كردون السكن ٠ أما القرية فمعظم قوة العمل فيها توظف فى آداء فى خارج اطار كردون السكن ٠

التباين بين ذروة وحضيض فى انجاز عمليات التسويق ، فانه العلاقة التى جمعت بين الابحار التجارى المغامر(٢٧) ونقل السلع والتجارة عبر الدروب والمسالك فى جزيرة العرب وبعض مراكز التسويق ومدن الاسواق قد اصطنعت التباين بين مدن الأسواق من حيث كثافة العمل ومن حيث الجـــدوى الاقتصادية ٠ وما من شك فى أن فئة التجار فى بعض مدن الأسواق الذين أمسكوا بزمام العلاقة بينهم وبين الابحار التجارى والمغامر قد وظفوا هــذه العلاقة ليس فى تنمية استثماراتهم وفى تصعيد ثرائهم الفاحش فقط بــل وظفوها فى دعم مكانة عملية التسويق وفى دعم مكانة مدينة السوق وحركة الحياة فيها ٠

وفى كل مدينة ، جمعت بين التسويق على الصعيد المحلى والتسويق على الصعيد الاقليمى من ناحية والاشراف على حركة القوافل وتجارة المرور من ناحية أخرى ، اتسعت دائرة العمل ٠ وربما استحدث ذلك أعمالا جديدة ، كان انجازها ضروريا لكى تواجه المدينة مسئولياتها الكثيرة والمتنوعة ٠ بل قل ان اتساع قاعدة العمل فى شأن التسويق قد استنفر فى بعض الفئـة التى قادت هذا السياق القدرات والمهارات التى استوجبها تنظيـم وادارة الأعمال وتأمين اقصى حد من غايات الانتفاع المباشر وغير المباشر بالتسويق ٠

ومن ثم كان رباط المصلحة المشتركة الذى جمع شمل الأفراد وأصحاب المصلحة فى هذه الزمرة ووثق التعاون بين الشركاء فى هذه الفئة ٠ وتولى التجار أمر الاشراف والتنسيق والادارة والهيمنة عى حسن آداء الاعمـال المتنوعة الكثيرة التى أوكل انجازه لأفراد هذه الزمرة ٠ كما تولى التجار وهم أصحاب هيمنة على كل الاتجاهات التى أحسنوا توظيفها فى تنمية وترسيـخ التعامل فى الأسواق(٢٨) ٠ كما كرسوا العناية بكل قنوات الاتصال المباشر وغير المباشر التى فرضتها علاقات المصلحة والتكامل بين انجازات الفئة الثانية العاملة فى الوساطة التجارية مع ابحارهم المغامر ، واستحقاقاتهم فيها على

---

(٢٧) د٠ عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام - الاسكندرية سنة ١٩٧٣ من صفحة ٣٩ - ٤٠ ٠

د٠ لطفى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة - بيروت سنة ١٩٧٩ من صفحة ٣١٤ - ٣٢٣ ٠

(٢٨) راجع : دراسة ٠ محمد بيومى مهران عن مكة المكرمة فى كتابه دراسات فى تاريخ العرب القديم - الرياض سنة ١٩٧٧ من صفحة ٣٩١ - ٤١٦ ٠

اعتبار انهم استثمروا أموالهم فى هذه الانجازات ، أو أنهم استثمروا اجتهادهم فى انجاح التعامل العربى الوسيط فى حركة التجارة الدولية ٠

ومهما يكن من أمر التنوع الشديد فى العمل الذى أسفر عنه تقسيم العمل ، يبقى أن نستشعر جدوى الاستقرار فى ذلك الاتجاه الذى اقتسمت بموجبه قوة العمل وفئات العمل الاهتمامات الاقتصادية ٠ وقد يلفت النظر شيء مهم وهو اتجاه التوظيف فى آداء العمل اتجاها اخرج الاجتهاد الاقتصادى من علاقات انغمس فيها الاجتهاد الاقتصادى الرعوى ٠ وفى الاجتهاد الاقتصادى الزراعى لا وجه لاهتمام وظف الابناء وتوخى تكليفهم بانجاز العمل ٠ بل لقد ترك الباب مفتوحا أمام استخدام الأبناء وغير الابناء ولا شيء أهم غير القدرة على الآداء فى شأن هذا التوظيف ٠

ومع ذلك ابقى هذا الاجتهاد الذى حرر العمل من التزام الابناء به ، على توظيف العبيد التوظيف الذى وضعهم فى مرتبة احتراف واداء الأعمـال التى أعرض عنها واستخف بها الاحرار ٠ وما كان من المعقول أن يحدث غير ذلك لأن مجرد الابقاء على الرق واوضاع استوجبت اقتناء الرقيق هو ابقاء على حالة فرضت اهدار كرامة الرقيق ، وصنفتهم فى المكانة المهنية التى التحقت ببناء المجتمع ولم تمثل جزءا من كيانه أو لم تتداخل فى أوصاله ٠ وهذا معناه أن الابقاء على الحاجز الاجتماعى بين الاحرار وغير الاحرار فى المجتمع الزراعى العربى قد أبقى على العبيد فى مكانة الادوات للانتاج ٠

تقوم الاجتهاد الاقتصادى الزراعى :

فى احضان الجنوب العربى ، سجل الاستقرار كل هذا التنوع فى العمل وتوظيف قوة العمل ٠ بل قل سجل هذا الاستقرار نتائج مثيرة الى حـــد كبير ٠ وصحيح أنه على صعيد الريف ، اتخذ العمل شكل الصراع الذى لم يهدأ حتى أبطل مفعول التحديات الطبيعية وفلح الأرض وانتاج الغذاء ٠ ولكن الصحيح أن هذا الانتصار الاقتصادى الذى سجل جدوى الاجتهاد الزراعى لم يقف عند حد ، أشبع أو اقنع الحضور العربى ٠ وقد نقول أن جدوى هذا الاجتهاد قد بددها عدم التوازن بين عرض وانتاج هدده التحدى المنـــاخى وذبذبة المطر من جانب ، وطلب واستهلاك ألح فى شأنه النمو السكانى من جانب آخر ٠

ولقد أسفر ذلك عن الخروج العربى تحت وطأة الضغوط التى اصطنعها عدم التوازن • وصحيح أن الخروج الذى آثر الاستيطان ومعظمه من الجنوب العربى قد خفض معدلات عدم التوازن ، وصحيح أن الخروج الذى آثر طلب الرزق وكله من الجنوب العربى قد حقق العائد الذى اعاد التوازن بين العرض والطلب • ولكن الصحيح أن هذا الخروج فى حد ذاته قد أسفر عن تجسيد اجتهاد اقتصادى انضم بالضرورة الى الاجتهاد الاقتصادى الذى آثر الممارسة التجارية فى الأسواق ومدن الاسواق فى جزيرة العرب •

وظهور الاجتهاد الاقتصادى التجارى وتعايشه جنبا الى جنب مع الاجتهاد الاقتصادى الزراعى ، لا يعنى انسلاخا أو تفسخا أبدا بل هو الاجتهاد الذى اشترك بالتوازى فى دعم الحضور العربى أو فى تأمين الاستقرار •وفى اعتقادى أن هذا الوضع فى حد ذاته هو جزء مهم من جدوى الاجتهاد الاقتصادى الزراعى • وما من شك فى أن تأمين الاستقرار هو الذى أعطى الاجتهاد الاقتصادى المشترك بالتوازى ، مسئولية ترسيخ حصة الاستقرار فى البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام •

وعلى صعيد ريف الزراعة الذى أوى اليه الاستقرار وابتنى القرى وانكب على فلح الأرض ، مضى الاجتهاد الزراعى فى كفاح اقتصادى حقيقى • ولقد جسد هذا الكفاح وصموده ، جدوى الانتصار بعد أن طوع الأرض واطاعته • وجسد هذا الانتصار أبعاد المدنية العربية الزراعية فى الجنوب العربى الذى استحق أن يوصف بالعربية السعيدة • واقبل الاجتهاد الاقتصادى الزراعى بشهية حضارية بناءة ومتحررة ومتفتحة على انجاز حصته من قاعدة البناء الاقتصادى العربى •

وعلى مسطح الماء فى المحيط الهندى الذى استهوى نخبة مغامرة من الاستقرار واستخف ابحارها المغامر فى طلب الرزق ، ولا هذا الكفاح الاقتصادى • واتخذ هذا الكفاح شكلا من الصراع الذى لم يهدأ حتى انتصر فى عرض البحر وهو يروح ويغدو ويعمل فى نقل التجارة والوساطة التجارة• ولقد ابتنى هذا الانتصار السفن وقواعد صناعة السفن كما رسخ ضوابط التجارة الدولية بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط • وجسد هذا الانتصار معنى ومغزى انفتاح المدنية العربية الزراعية على العالم الخارجى من حولها • بل لقد اقبل هذا الاجتهاد الاقتصادى بشهية حضارية بناءة ومتفتحة على انجاز حصة أخرى من قاعدة البناء الاقتصادى العربى •

أما الفريق الذى عمل فى عملية التسويق والتجارة ، فلقد وضع الاساس المبكر للاسواق على صعيد جزيرة العرب • وجعل هذا الفريق وهو نخبة أو صفوة من الحضور العربى المستقر فى الجنوب العربى من هذه الاسواق نوايات لمدن الأسواق • وفى هذه المواقع التى احتوت الأسواق ، ولد هذا الكفاح الاقتصادى • واتخذ هذا الكفاح شكلا من العمل الجاد الذى أشاع روح المسالمة وأحسن توظيفها فى تعامل البداوة والاستقرار تعامل اقتصاديا مثمرا • بل هذا هو الكفاح الذى انتصر فى شأن الاسهام المشترك فى البنـــاء الاقتصادى العربى •

ومن معطيات هذا التعدد فى الاجتهادات الاقتصادية التى واصـــلت مسيرتها لحساب حركة الحياة متوازية اصطنع الحضور العربى كل ابعاد تفتحه ونضجه حضاريا • ولقد استحق هذا الحضور العربى المتفتح حضاريا أن ينمى نضجه الاقتصادى سواء وهو يسيطر على وسائل الانتاج (الأرض والماء) وينتج الغذاء أو وهو ينفتح على العالم الخارجى ويبحر فى طلب الرزق وتنمية الاستثمارات ، أو وهو يوظف الأسواق فى دعم نمو وتكامل البناء الاقتصادى • بل لقد استحق هذا الحضور العربى فى الجنوب العربى أن يعرف جيدا معنى الملكية الخاصة وأن يتمادى التشبث بمفهوم الملك الخاص وأساليب الحيازة ووسائلها •

ومن معطيات هذا النضج الحضارى والاقتصادى ، ادرك الاستقرارفكرة الحكومة وكيفية توظيفها الادارى والسياسى والاجتماعى فى سبيل صيانة حقوق الملكية الخاصة فى اطار التعايش بين جموع الاستقرار الذين تعددت احتهاداتهم الاقتصادية • وهل نشك فى أن هذه الصيغة التى تمثلت فى قيام الدولة ، هى التى وضعت واصطنعت قواعد وموجبات هذا التعايش ؟ بل وهل عملت الحكومة فى أى شكل مبكر وعلى صعيد أى دولة قديمة شيئا أهم من ترسيخ الحق فى حيازة الأرض ومغزى السيادة عليها ؟

هذا والتزام الحضور العربى المستقر بهذه المعطيات قد وثق العلاقـــة بين الاجتهادات الاقتصادية المتنوعة وساق هذا الالتزام تلك العلاقة لكى توجب شكلا من التبعية الاقتصادية التى قبل بها وامتثل لارادتها الاستقرار عـلى صعيد الجنوب العربى •

الاستقرار والتبعية الاقتصادية :

حسن توظيف العلاقة الملتزمة بين الاستقرار والاجتهاد الاقتصادى الزراعى والابحار التجارى المغامر من جانب ، والتسويق والانتفاع الاقتصادى به من جانب آخر ، هو الذى اصنطع التبعية الاقتصادية • بل لقد تجسد بموجب هذه التبعية أهم مظهر من مظاهرها الحقيقية فى شأن حركة الاقتصاد على الصعيد الزراعى الذى احتوى الاستقرار أو على صعيد المدن التى احتوت الأسواق •

وبموجب هذه التبعية الاقتصادية وكأنها وحدة فى المصلحة والمصير الاقتصادى العام امتثل الاستقرار وانصاع اجتهاده الاقتصادى لمن كان من حقه فى الأسواق ومدن الاسواق أن يعطى أو أن يصدر القرار • كما امتثل الابحار التجارى المغامر امتثالا مماثلا عبر عن الانصياع أو القبول لما يملى عليه من قرار •

والتبعية الاقتصادية التى نعنيها بالضبط لا تعبر عن شىء أهم وأكثر فاعلية من التزام الاستقرار والتزام الابحار التجارى المغامر بالقرار ، وبطاعه من كان يملك اصدار القرار فى السوق • ولم يحدث ابدا أن كانت العلاقة بين التابع والمتبوع على غير هذا المستوى • بل لم يكن فى وسع الاستقرار والاجتهاد الاقتصادى الزراعى عى وجه الخصوص تغيير التوظيف ومنطق التعامل الذى وضع العلاقة الملتزمة موضع التبعية الاقتصادية •

واستطاع الاجتهاد الاقتصادى التجارى فى الأسواق ومدن الاسواق أن يتمادى فى ترسيخ العلاقة الملتزمة ترسيخا آكد معنى ومغزى التبعية الاقتصادية • بل قل أنه ابقى على التوظيف الناجح لكل ما عبرت عنه هذه العلاقة الملتزمة • وتمثل هذا التوظيف الناجح فى :

١ ـ فرض وتطبيق ورعاية المصالحة بين الاستقرار والبداوة ، حتى أصبح السوق ومدينة السوق الجسر الذى توثقت عليه العلاقة والتعامل بينهما فى اطار المصالح والمنافع المتبادلة • ولا نكوص فى شأن هذا التعايش الاقتصادى الذى جنى الطرفان ثمراته •

٢ ـ وضع ثمرات هذا التعايش الاقتصادى فى مكانها الصحيح ،لتأمين التعايش الحضارى والاجتماعى ولتأمين حركة المرور وعبور القوافل لكافة الأغراض وكبح جماح العدوان على الطريق أو الدرب • ولا تفريط فى شأن هذا الأمن الاقتصادى الذى انتفع به الطرفان أو الأطراف المعنية •

ويمكن التأكيد على أن تمرد الابحار التجارى المغامر على هذه التبعية كان أمرا مستحيلا ولا ينبغى أن نتوقعه . بل انه الأمر الذى لا يستحق الجدل أصلا. ذلك أن التمرد معناه انقطاع الصلة بين شريكين فى جنى ثمرات الوساطة التجارية . بل ومعناه أيضا أن يفقد الابحار التجارى المغامر مصدر التمويل الذى اعتمد عليه ، وأن تتضرر المصلحة الاقتصادية لكل المنتفعين بعوائد هذا الاجتهاد الاقتصادى .

ويمكن التأكيد أيضا على أن الاستقرار واجتهاده الاقتصادى الزراعى وهو صاحب مصلحة لم يملك فى وقت من الاوقات أن يتمرد على موجبات هذه التبعية الاقتصادية . بل لعل الاستقرار لم يملك فى وقت من الاوقات قوة الضغط أو التأثير التى عبرت أو افصحت عن ارادة تغيير هذه العلاقة من علاقة تبعية سجلت الانصياع لموجباتها الى علاقة الندية التى لا تحتم الالتزام بها .

والتبعية الاقتصادية قد تعنى الكثير فى عالم الاقتصاد وحركة الحياة الاقتصادية . ولكن هل يعنى ما استوجبته هذه التبعية الاقتصادية من التزام قبل به الاستقرار وانصاع له الاجتهاد الاقتصادى الزراعى والابحار التجارى شيئا أهم وأجدى من :

١ - قبول واحترام سريان مفعول المسالمة والعمل بمقتضى منطق وروح المصالحة بينهم وبين البداوة وسيادة الأمن الذى أظل حركة الاقتصاد العربى ومصالح كل الحضور العربى قبل الاسلام فيها .

٢ - ترابط وتداخل وانفتاح كل قنوات الاتصال وتوثيق العلاقة بين حركة الاقتصاد الزراعى والبناء الاقتصادى العربى المتكامل فى جزيرة العرب قبل الاسلام .

٣ - الاقرار والانسياق والنزول عند أمر أو ارادة من سلمته التبعية الاقتصادية وهى مختارة زمام الاقتصاد العربى وتصدى لوضع الضوابط الحاكمة لحركة الاقتصاد واتجاهاته ومصيره .

ولقد جسد نجاح هذا التوظيف الماهر للتبعية الاقتصادية سلطة التجار وهيمنة مدن الأسواق . بل قل أنه قد جسد أيضا أهم بعد مؤثر أو عامل فعال من عوامل التفتح وحسن الانتفاع به فى تأمين التركيب الهيكلى للبناء

الاقتصادى العربى قبل الاسلام وحق الشركاء فيه ٠ واعطى هذا العامل الفعال هذه النخبة أو الفئة المرموقة فى ثرائها وفى مكانتها القدرة الكاملة من غير أدنى اعتراض ، على قيادة وتوجيه حركة الاقتصاد وحركة الحياة بصفة عامة على صعيد جزيرة العرب ٠

هذا وما من شك فى أن ذلك كله قد اطلق الأيدى وحرر التفكير التجارى فى شأن وضع الأسس والقواعد والتقاليد والاعراف التى ضبط التجار بموجبها حركة الاقتصاد وهيمنت ارادتهم على مسيرة حركة الحياة ٠ وقل بكل اليقين أن هذه الهيمنة بدت وكأنها تصطنع اطارا للنظام الاقتصادى قبل الاسلام ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

ثم ماذا بعد عن التبعية الاقتصادية والنظام الاقتصادى ؟

شكل وطبيعة وموجبات التبعية الاقتصادية التى سادت وامتثل لها الاجتهاد الاقتصادى العربى على مختلف مستوياته وتنوعه قد دعت أو أدت الى :

١ — التزام الاجتهاد الاقتصادى من كل نوع ، وعلى كل صعيد ، وفى سبيل كل غاية ، التزاما قاطعا بارادة القبضة القوية التى سيطرت على حركة الاقتصاد وعلى مصالح الشركاء فى هذه الحركة ٠

٢ — وضع مصير الاقتصاد العربى أمانة فى عنق التجار الذين أصبحوا السلطة الحاكمة التى هيمنت على حركة الاقتصاد وعلى مصالح الشركاء فى هذه الحركة ٠

ومن غير نكوص أو تمرد على الالتزام وموجباته ، مضى الشركاء فى المصالح الاقتصادية كل على حسب الظروف والعوامل والمتغيرات التى حكمت اجتهاده الاقتصادى الزراعى أو الرعوى أو التجارى فى ابتناء التركيب الهيكلى للاقتصاد العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام ٠ وبرهن كل شريك على مدى تطور ونمو اقتصاده مع مرور القرون الطويلة وهو الاشد حرصا وتمسكا وانصياعا للالتزام وموجباته ٠

ومن غير تفريط أو استخفاف بالأمانة ، مضى التجار الذين هيمنوا على

حركة الاقتصاد العربى فى اصطناع العوامل والمتغيرات وحسن توظيفها من أجل تأمين التركيب الهيكلى للاقتصاد العربى فى جزيرة العرب قبل الاسلام. وبرهن فريق التجار على مدى تطور نمو واستمرار الهيمنة الاقتصادية مع مرور القرون الطويلة وهو الأشد حرصا وتمسكا وحفاظا على الأمانة وموجباتها .

وعلى المدى الطويل قبل الاسلام اعتبارا من الألف الثالثة قبل الميلاد على أقدم تقدير ، كان من الضرورى أن توضع القواعد والأصول أو أن ترسخ التقاليد والاعراف التى ضبطت حركة التعامل وحددت معنى ومغزى وموجبات التبعية الاقتصادية ، وأمنت الحقوق والمكتسبات لكل الشركاء فى المصالح الاقتصادية . وهذا معناه أن المسيرة كانت طويلة وأن وضع هذه القواعد وترسيخ التقاليد قد تأتى بكل التأنى والبطء وخضع لكل المتغيرات التى اصطنعتها حركة الحياة أو التى فرضت عليها .

هذا وليس فى التراث العريق لحركة الحياة العربية قبل الاسلام سواء تمثل فى نقوش أثرية أو فى أدب مكتوب ، ما يبصر البحث عن الكيفية التى وضع بها هذا النظام الاقتصادى الذى استوجبته هذه التبعية . وربما كانت هناك بعض علاقات ومؤشرات فقط هى التى ينبغى أن نحسن استخدامها فى تجسيد الرؤية العصرية لهذا النظام . ومع ذلك ، يجب أن نثق فى أن مكانه التجار ومكانة مدن الاسواق ومكانه مكة أم القرى التى اصطنعت وقوت أواصر التبعية الاقتصادية ، قد هيأت لمن أمسك بزمام حركة الحياة الاقتصادية وهى جزء لا ينفصم من كل حركة الحياة أن يتلمس الضوابط وأن يصطنع التقاليد التى حكم وتحكم بموجبها فى هذه الحركة وامتثلت له .

ومع ذلك ، يجب علينا أن ندرك حقيقة التفاوت فى النضج الحضارى بين الشركاء الذين انساقوا فى تيار التبعية الاقتصادية . وما من شك فى أن هذا التفاوت الحضارى وهو فى أصله قد عاش التضاد المعروف بين البداوة والاستقرار ، قد اصنع واحدا من أخطر المتغيرات التى أثرت على حركة الحياة. بل ان هذا المتغير قد سير كل مسيرة فى درب خاص عمق التفاوت فى النضج الحضارى واتجاهاته .

وهذا معناه أنه فى الوقت الذى اصطنعت التبعية التوازى بين مسيرة حركة الحياة الاقتصادية للبداوة ومسيرة حركة الحياة الاقتصادية للاستقرار دون أن يتضرر البناء الاقتصاد العربى المتكامل بالتضاد أو التفاوت بالنضج

الحضارى نشأ هذا المتغير الحضارى الذى وسع هوة التفاوت فى شأن النضج الحضارى . والسؤال الذى يفرض نفسه هو هل أثر ذلك المتغير الحضارى على التوازى الاقتصادى للبداوة والاستقرار ؟ أو هل تضررت بموجبات هذا التأثير القبضة التى فرضت التبعية الاقتصادية وذلك التوازى ثم اصطنعت الضوابط الحاكمة لحركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام ؟

والمتغير الحضارى الذى نعنيه بالضبط قد تمثل فى محصلة النضج الحضارى الذى اصطنع الاستقرار بموجبه فكرة الحكومة . وهى الفكرة التى جسدت شكلا من الاشكال المبكرة لتكوين الدولة . ومن ثم ينبغى أن ندرك كيف مضى التطور على الصعيد العربى الحضارى الذى احتوى الاستقرار واصطنع لوجوده دولة جنبا الى جنب مع موجبات التبعية الاقتصادية والقبضة التى ساقت ووظفت هذه التبعية وتحكمت فى مسيرة حركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام .

تكوين الدولة وحركة الاقتصاد العربى :

كان أمرا طبيعيا أن يسفر النضج الحضارى عن تكوين دولة . ولقد احتلت الدولة مساحة من الأرض واحتوت شعبا نضج نضجا حضاريا وسياسيا . وما من شك فى أن الحكومة التى قامت على رأس هذه الدولة قد أمنت الحضور الشعبى على أرضه وعلى حقه ، وصانت الحقوق ونظمت العلاقات والمصالح فى الأرض بين الناس .

وصحيح أ نتكوين الدولة على صعيد الجنوب العربى قد بدأ فى وقت مبكر منذ حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وصحيح أن أكثر من دولة قد تعايشت وعرفت كيف تنمى التفتح الحضارى . وصحيح أن ثمة دول عربية قد نشأت على أطراف الشمال من جزيرة العرب فى وقت متأخر وفى العصر الجاهلى على وجه التحديد . وصحيح أن أى دولة قد تكامل وجودها بأبعادها الثلاثة وهى حيازة الأرض وحضور الشعب وقيام الحكومة ، تلمست صيغة حضارية للتعايش صانت الحق وقررت القواعد ووطدت موجبات هذا التعايش وأظلت حركة الحياة بالأمن . ولكن هل صحيح أن هذه الأوضاع التى أسفر عنها تغير حضارى وأدت الى تغير سياسى قد أثرت على حركة الاقتصاد وهو جزء من كل عام شملته حركة الحياة ؟

وما من شك فى أن حركة الاقتصاد جزء من كل حركة الحياة شأنها فى

ذلك شأن قطرة الماء مع كل قطرات الماء التى تجرى فى النهر . وما من شك فى أن الحكومة فى الدولة قد أناطت بسلطتها مسئولية عن حركة الحياة . وهنا يكون السؤال ، وهو هل صحيح أن سلطان الحكومة قدأمسك بزمام حركة الاقتصاد وأبعد سلطان فئة التجار عن المكانة المرموقة التى كانت قد دانت لهم قبل قيام الحكومة ؟

وصحيح أن الملك على رأس الحكومة قد تقلـــد مهام السلطة المدنيـة فى الدولة حال قيامها وتكوينها . كما تقلد أيضا فى بعض الأحيان السلطة الدينية على صعيد الدولة . ولا ينبغى أن نشك أو أن نتشكك فى أن سلطان الحكومة قد استوجب امتثال حركة الاقتصاد على اعتبار أنها جزء من الكل الشامل لمسيرة حركة الحياة . ولكن يبدو أن هذا السلطان الحكومى ، لم يتعمد زلزلة مكانة التجار ، ولم يتعارض مع سلطانهم الذى أمسك بزمام حركة الاقتصاد العربى .

والواقع أن شيئا من هذا القبيل الذى يحسب حساب هذا التغـــير السياسى لا ينبغى أن نتوقعه ابدا . وما نملك فى حركة الأحداث التاريخية دلالة أو دليلا ، على انتقال زمام حركة الاقتصاد من هيمنة التجار وقبضتهم الحاكمة الى سلطان الحكومة وارادتها الحاكمة . بل لا يمكن أن يكون قيام الدولة قد أدى الى نكسة ما فى قيمة الأسواق وهى مكان المصالحة بين البداوة والاستقرار ، أو فى جدوى العلاقة بينهما وهى صيغة التبعية الاقتصادية ، أو فى هيمنة القبضة التى أمسك التجار بهـا زمام الاقتصاد العربى قبـــل الاسلام .

وهذا معناه أن قيام الدولة وهى التى أمسكت بزمام السلطة وجاوبت ارادة الاستقرار والأمن لم يغن حركة الاقتصاد بديلا عن الحاجة الى الأوضاع والمناخ الذى ضبط مسيرتها . بمعنى أن هذه المسيرة قد الحت فى الابقاء على سلطة وهيمنة فئة التجار وعلى وظيفة السوق فى العمل التجارى وفى المصالحة من أجل المصالح المتبادلة . بل ربما وظفت سلطة الحكومة وسلطانها مكانة التجار فى ضبط وقع خطوات الحركة الاقتصادية ضبطا حصلت بموجبه على الحق فى الضرائب والعوائد والمكوس وغير ذلك من موارد الدخل التى توجب آدائها لحساب الدولة .

وفى اعتقادى أن قيام الدولة وعلى رأسها الحكومة هو العـــلامة التى لا تضلل فى شأن حاجة الاجتهاد الاقتصادى بعد ما وصل اليه أمر النضج

الحضارى والاجتماعى الى دور سلطانها الوظيفى الحاكم الذى صان الحق وأمن الحق بين الحق والحق الآخر . ولا تعارض أبداً بين مسئولية سلطان الحكومة وهى مسئولية عامة ومعممة،ومسئولية التجار عنحركة الاقتصاد وهى مسئولية خاصة ومتخصصة . ولا اعتراض على مالم يكن فى شأنه تعارض تعرض لسلطان الحكومة ومسئوليتها العامة .

ولم نتصور عندئذ كيف اشتركت مسئولية الحكومة العامة فى تأمين مسئولية التجار المتخصصة فى ضبط أو انضباط حركة الاقتصاد . بل قل - بكل الثقة - أن النضج الحضارى والاجتماعى الذى أسفر عن قيام الدولة والحكومة ، هو الذى حال دون التناقض بين سلطة السياسة وحركة الاقتصاد. وما من شك أن هذا النضج هو الذى اصطنع علاقة مصلحة وتوافق بين الاقتصاد والسياسة .

وهذه العلاقة التى تكشفت بين الاقتصاد والسياسة فى اطار حركة الحياة هى علاقة طبيعية لحساب الحياة . وما كان من مصلحة الحياة أن تنتهك هذه العلاقة أبدا . ومن ثم لا يمكن أن تكون هذه العلاقة فى شكلها الطبيعى قد زلزلت مكانة التجار ، أو أن تكون قد انتقصت شيئا من جدوى الأسواق ومدن الأسواق على صعيد جزيرة العرب ، الا اذا اساءت حركة الحياة توظيفها توظيفا غير متجرد . ولم تحاول الدولة فى هذا المناخ الحضارى تلويث هذه العلاقة أو اساءت استخدامها ، لكى تلوى السياسة ذراع الاقتصاد وتنتهك مسيرته وانضباطه أو لكى يتسلط الاقتصاد على السياسة ويتمرد على سلطانها .

وفى اعتقادى أن هذه العلاقة الحميدة بين الاقتصاد والسياسة على صعيد جزيرة العرب قبل الاسلام بقيت علاقة متجردة من الغرض . بل لم يساء توظيفها أو يتأتى التمرد على موجباتها . بل قل أن تجرد هذه العلاقة من الغرض ، قد كفل وابقى على الحد الأنسب من الدعم المتبادل بين سلطةالحكومة وهى تدبر وتقبض على شئون السياسة وحقوق السيادة من جانب وقبضة التجار وهى تدبر شئون الاقتصاد العربى قبل الاسلام من جانب آخر .

هذا ، ولا ينبغى أن نتصور هذا الحد الأنسب من الدعم المتبادل على أنه شكل خاص من أشكال المصالحة بين سلطتين . وهل هناك تناقضات بالفعل دعت آنذاك الى مثل هذه المصالحة ؟ بل قل انه لا وجه للتناقض ولا داعى للمواجهو أصلا . وما من شك فى أن المصالح المشتركة هى التى دعت الى هذا

الاختصاص . وعندئذ تفرغ كل صاحب سلطة أو صاحبة اختصاص لآداء دوره الوظيفى الذى اختص وتخصص فيه .

ومن شأن هذه المصالح المشتركة التى استوجبت التوافق وحالت دون التناقض بين سلطة السياسة وحركة الاقتصاد وأحسنت استخدام العلاقة الحميدة بين الاقتصاد والسياسة ، أن تصور كيف تأتى التوازى بين الممارسة السياسية لسلطة الدولة والآداء الوظيفى للممارسة الاقتصادية . بل قل - بكل اليقين - أنهما معا قد استشعرا المصير الواحد وهما يتبادلان الدعم ، ويتحملان المسئولية فى توافق مثمر لحساب حركة الحياة .

وصحيح أن الحكومة قد تحملت بموجبات هذا التوافق مسئولياتها فى شأن تأمين الحقوق الخاصة والعامة فى البناء الاقتصادى . وصحيح انها أمنت الاجتهاد الاقتصادى الذى عكف على أداء دوره فى اطار التركيب الهيكلى لهذا البناء الاقتصادى . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الحكومة وسلطانها الحاكم لم يجهض اهتمامات التجار بآداء الدور انقيادى فى ضبط وانضباط حركة الاقتصاد .

هذا ، وما كان من المعقول أبدا أن تضيع التقاليد والاعراف التى رسخها تعامل الناس فى الأسواق على المدى الطويل هدرا . بل وما كان من المصلحة أبدا أن يفتقد التجار الذين اصطنعوا من هذه التقاليد ضوابط حكمت ونسقت هذا التعامل وهو محصلة الاقتصاد والاجتهاد الاقتصادى . وكيف يمكن التفريط فى جدوى هذا الضبط الذى تأتى بموجب هذه التقاليد والاعراف التى جعلت الأسواق ومدن الأسواق وهيمنة التجار فيها مسألة حيوية فى اطار الواقع الاقتصادى العربى على صعيد جزيرة العرب قبل الاسلام ؟

وهذا - فى حد ذاته - هو أهم مبرر - فى اعتقادى - أبقى على مكانة التجار . بل هو أهم مبرر ابقى على قبضة التجار وهيمنة سلطانهم الذى أمسك بزمام الاقتصاد العربى قبل الاسلام . ومن غير تعريض بأى خطيئة تردى فيها الاقتصاد العربى قبل الاسلام ، اباحت هذه المكانة للتجار أن يصطنعوا النظام الاقتصادى العربى الذى قاد وضبط ابعاد الواقع الاقتصادى العربى قبل الاسلام .

خاتمة التصور

النظام الاقتصادى العربى قبل الاسلام

اصطناع موجبات النظام معناه ضرورة توظيف هذه الموجبات في اصطناع هذا النظام . ويمكن أن نذكر كيف كان اصطناع هذا النظام بموجب التقاليد والاعراف التي سرى مفعولها في وقت سابق لقيام أي دولة على صعيد جزيرة العرب أمرا مقضيا . وهذا معناه — من وجهة النظر الموضوعية — على أقل تقدير :

١ — أن الدولة والحكومة التي جسدت سلطة الحكم السياسي في بنية الدولة لم تشترك اشتراكا فعالا أو مؤثرا في اصطناع هذا النظام أو في اصطناع موجباته . وحتى لو اشتركت في تطبيق هذا النظام فان هذا الاشتراك قد جاء في وقت لاحق بعد ترسيخ التقاليد والاعراف بمالا يقل عن ألف عام . بل قل أن بعض موجبات هذا النظام قد أسهمت في النضج الذي نشأت بموجبه فكرة الحكومة وتكوين الدولة .

٢ — أن ترسيخ التقاليد والاعراف التي حبكت النظام وجسدت الاطار الذي احتوى اهدافه وجاوب تطلعاته قد تأتى بكل البطء والتأتي على المدى الطويل . وما من شك في أن الاجتهاد الاقتصادي الرعوي والاجتهاد الاقتصادي الزراعي والاجتهاد الاقتصادي التجاري فيما وراء جزيرة العرب قد رضي وامتثل لموجبات هذا النظام . بل لقد انسحب هذا القبول على كل التقاليد والاعراف التي اصطنعت أسس النظام الاقتصادي . بل قل أن ترسيخ هذا النظام لم يتعرض على مدى أكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد لهزات شديدة (١) انهكت أوضاعه أو انتهكت اطاره .

---

(١) قيام دولة ما وسقوطها ، حيث توالت هذه الظاهرة السياسية على صعيد الجنوب العربي الذي احتوى الاستقرار ، لم يستوجب في الغالب اهتزاز أو زلزلة البناء الاقتصادي . بل لم توقف ربرنة ما حركة الاقتصاد والاجتهاد الاقتصادي في اطار الأنشطة التي كانت سائدة . وربما تسبب انهيار سد مارب مثلا في سقوط الدولة . ولكن سقوط الدولة والزلزلة السياسية لم تستوجب

ومن ثم قد نعرف بعد تجسيد هذه الصورة التى وظفنا فيها أقل القليل من الوسائل والادوات ، كيف استوجب الواقع الاقتصادى وضبط مسيرة الاقتصاد نشأة النظام الاقتصادى • وقد نعرف أيضا كيف استغرقت هذه النشأة وقتا طويلا واستحقت تضافر الاجتهادات فى مدن الاسواق • وقد نعرف أيضا أصحاب المصلحة المباشرة فى صياغة هذا النظام ومبلغ العمل الدؤوب الذى عكف على ترسيخه والعمل بموجبه • ولكن يبقى السؤال الصعب ، وهو هل اتخذ هذا النظام بالفعل شكل النظام وجوهره كما هو متعارف عليه الامر فى رؤيتنا المعاصرة ؟ وهل استحق بالضرورة الادعاء القائل بأنه نظام اقتصادى فى مغزاه ومرماه ؟

وفى الرؤية العصرية يتخذ النظام الاقتصادى مقوماته وطبيعته من خلال أبعاد محددة • وتشترك هذه الأبعاد فى حبكة الاطار الذى يحدد شكل طبيعة وجوهر ومغزى ومرمى هذا النظام • بل تحدد هذه الأبعاد — فى الغالب — القواعد والاصول والأسس التى تضبط حركة الاقتصاد ، ومبلغ قدراته المرنة على استيعاب المتغيرات من حوله ، يبلغ التأثير المتبادل بينه وبينها •

والأبعاد الرئيسية المتفق عليها فى الوقت الحاضر للنظام الاقتصادى ، تتمثل فى العناصر التالية :

أولا : الغرض المباشر أو غير المباشر الذى يستهدفه النشاط الاقتصادى• ويجاوب هذا الغرض أهداف ودوافع الشركاء فى المصلحة التى يجسدها هذا الغرض • كما يكفل أنصبة وحصص الشركاء فى هذا الغرض والكيفية التى يتأتى بموجبها توزيع وضمان هذه الحصص فى اطار الاختصاص ، وبصرف النظر عن مدى الاستحقاق فى أهداف وموجبات هذا التوزيع والوفاء بالغرض •

توقف الاجتهاد الاقتصادى الزراعى بل أسفرت عن تعديلات فقط أبقت على حركة الاقتصاد الزراعى وان كانت قد ألحقت تغيرا فى أسلوب الانتاج وحجمه • وحتى الهزة التى أعقبت اقتحام هيبالوس باب المندب وأنهت النشاط العربى البحرى المتفرد وأشركت معه فى حلبة المنافسة النشاط البحرى الرومانى واليونانى لم تعصف بالأنشطة الاقتصادية العربية فى هذا المجال • وعلى الرغم من اتجاه بعض التجارة والتعامل التجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط الى الطرق البحرية وحرمان جزيرة العرب والطرق البرية من مرور كل حركة التجارة بها ، فان مسيرة الاقتصاد العربى لم تهتز • بل قل لم يفقد البناء الاقتصادى العربى قبل الاسلام توازنه •

ثانيا : الفن أو الوسيلة أو الآدوات التى تستخدم فى انجاز هذا النشاط الاقتصادى • ويجاوب هذا الفن تلك الوسيلة مسألة الانجاز والتعامل مع مصدر هذا النشاط • وبصرف النظر عن تنوع هذه الأنشطة ، سواء تمثلت فى استخدام أولى انتج الخامات أو فى استخدامات ثنائية انتجت السلع المصنعة أو فى استخدامات ثلاثية انتجت الخدمات المنظورة وغير المنظورة فان ثمة وسيلة تؤمن هذا الاستخدام •

ثالثا : النظام السياسى أو الاجتماعى الذى يكفل المناخ المناسب لانجاز الهدف بالوسيلة المتبعة أو بالأسلوب المستخدم • ويسفر هذا النظام عن الكيفية التى تنظم الحركة والعلاقة بين هذا النشاط الاقتصادى وعرضه للتسويق من ناحية ، والطلب عليه واستهلاكه من ناحية أخرى • وبصرف النظر عن مبلغ مرونة هذه العلاقة فان المناخ السياسى والاجتماعى المناسب هو الذى يحدد حقيقة وتوقعات هذه العلاقة وجدواها •

ومن ثم ينبغى أن نسأل فى شأن ما تحقق للاقتصاد العربى قبل الاسلام من ابعاد ارتكز عليها النظام الذى ضبط حركته ونموه • كما ينبغى أن نبحث فى شأن الكيفية التى أسفرت عن صياغة هذا النظام وتحديد اتجاهه • ومع ذلك لا ينبغى أن نطلب فى ذلك العصر تطابقا كليا بينه وبين الظروف التى جسدت الأبعاد التى قام بموجبها النظام الاقتصادى أوالنظم الاقتصادية المتنوعة فى العصر الذى نعيش فيه •

وما من شك فى أن ثمة نشاط أو أنشطة اقتصادية قد انهمك فى ممارستها الاجتهاد الاقتصادى العربى • وما كانت الممارسة من غير غرض مقصود لذاته • وصحيح أن معظم هذه الممارسات فى حقل الرعى أو فى حقل الزراعة قد تطلعت الى اشباع حاجة الحياة محليا • بل ربما شهدت جزيرة العرب مواقف سجلت عدم التوازن بين زيادة فى معدلات الاستهلاك ونقصان فى معدلات الانتاج • ولكن الذى يجب أن نؤكده أن النشاط أو الأنشطة الاقتصادية قد استهدفت الغرض وعرفت فى حالات الشدة الكيفية التى واجهت أزمات عدم التوازن وخففت من حدتها أو تلافت الخلل مزاساسه • وحتى لو تصورنا الهجرة لتخفيف حدة عدم التوازن عملا سلبيا بحتا فان ثمة أعمال ايجابية واتجاهات حصيفة قد فتحت أبواب الاجتهاد الاقتصادى فى طلب الرزق واضافة محصلة هذا الاجتهاد فى أحداث هذا التوازن الاقتصادى أو فى استعادته والمحافظة عليه •

وصمود الأنشطة الاقتصادية التى حددت الغرض من الاقتصاد والاجتهاد الاقتصادى للهزات الاجتماعية والسياسية صمودا حافظ على سلامة البناء وعلى استمرار حركة الاقتصاد هو علامة على فاعلية الاجتهاد وقوة الغرض فى وقت واحد . وفى اعتقادى على كل حال أن هذه الصورة التى جسدت الاجتهاد الاقتصادى الرعوى أو التى جسدت الاجتهاد الاقتصادى الزراعى قد كشفت عن حقيقة الغرض الذى استوجب العمل وتقسيم العمل وانجاز العمل من أجل الغرض الاقتصادى .

واذا كانت الأنشطة الاقتصادية العربية ســـواء تمثلت فى الرعى واستخدام المراعى أو تمثلت فى الزراعة واستخدام الأرض القابلة للزراعة أو تمثلت فى الوساطة التجارية ، قد حددت الغرض الاقتصادى فان ثمة وسائل وأساليب وخبرات قد انكبت على انجاز العمل الذى حقق هذا الغرض وهو الانتاج والربح . بل لقد دعا الاستخدام الى تحديد العمل وحجمه والدخل منه قبل أن يلجأ المجتمع الى تقسيم هذا العمل وتكليف العاملين على انجازه . وما من شك فى أن اختصاص كل فئة معنية بانجاز العمل قد عبر عن اتجاه حقيقى من الاختصاص الى التخصص واكتساب المهارات التى اقتضاها التخصص .

وأخيرا لا نستطيع أن ننكر ما قد تحقق من تعامل تجارى وتبادل فى الأسواق . وما كان فى مقدور الأسواق أن تنجح فى هذه المهام لو لم يتهيأ لها من خلال التنظيم الاجتماعى المناخ المناسب لأداء دورها الوظيفى . بل نحن لا نشك فى جدوى الدور الوظيفى الذى حقق روح المسالمة واتاح من خلال التعامل التجارى الاسهام المشترك لأنواع الاستخدامات المتنوعة ولانماط الاجتهاد الاقتصادية المتباينة فى شأن بناء التركيب الهيكلى للاقتصاد العربى قبل الاسلام . كما لم تنهض الأسواق فى ظل المناخ المناسب لأداء دورها الوظيفى من غير أن تتوالى صياغة وترسيخ التقاليد والاعراف التى ضبطت التعامل والتسويق ، أو من غير أن تتولى حسن توجيه وتوظيف الانفتاح على العالم الخارجى لحساب النشاط الاقتصادى الذى جنى ثمرات انتقل بموجبها من مرحلة المحلية والكفاية الذاتية الى مرحلة العالمية والتكامل الاقتصادى .

.. .. ..

وبعد ، يمكن أن نصفح عن خطايا الاقتصاد قبل الاسلام وانحداره الى دائرة الحرام عندما نقول أن هناك نظام اقتصادى قد تكاملت أبعاده . بل

وكان من شأنه أن يضبط حركة الاقتصاد والتعامل في الداخل والخارج ·
وهو من غير شك وليد مسيرة اقتصادية طويلة لم تتوقف منذ نهاية العصر الحجرى الحديث · ولقد تولى التجار في الأسواق وفي مدن الاسواق قيادة هذه المسيرة في كل المراحل بداية من اجتهاد الحضور السامي ثم الحضور العربى الذى صمد وكان هو الجزء الباقي من الحضور السامي ·

مقومات النظام الاقتصادى العربى قبل الاسلامى واتجاهاته :

مسئولية التجار وهم أصحاب اليد العليا في الأسواق ومدن الأسواق، والقبضة القوية التى أمسكت بزمام حركة الاقتصاد العربى قبل الاسلام مسئولية حقيقية ومسئولة · وما من شك في أنهم هم الذين أرسوا قواعد وضوابط النظام الاقتصادى الذى مكن لهم وأجلسهم في المكانة المرموقة · وقد لا نفتقد وجه الشبه بين موجبات هذا النظام القديم وموجبات النظام الذى أخرج أوروبا من عهد النظام الاقطاعي وأرسى قواعده التجاريون فيالقرن الثامن عشر الميلادى · وليس معنى هذا اننا نجمع بين أوجه الشبه في هذين النظامين ، أو أننا نتلمس بحثا بشأن علاقة ما بين هذين النظامين · ولكن نريد فقط أن ندرك كيف يسفر التفكير التجارى والعقلية التجارية عن أنماط متشابهة من حيث القواعد والضوابط التى تجسد الاطار الجامع للنظام الاقتصادى وما انطوى عليه من أهداف وتطلعات وما لجأ اليه في شأن ضبط وتنظيم مسيرة الاجتهاد الاقتصادى وانجازاته ·

وفي صدد الحديث عن مقومات هذا النظام الاقتصادى ، يجب أن نذكر أولا ، كيف كان التحول من مرحلة كان الاقتصاد والاجتهاد الاقتصادى اجتهادا انصب اهتمامه على كفاية الحاجة واشباع الناس سواء من انتج الغذاء من الرعي واقتناء الحيوان أو من انتج الغذاء من الزراعة وفلح الأرض · وفي هذه المرحلة ، كانت الأسواق ودورها الوظيفي دورا محدودا · وكانت الحاجة وهي ضرورة في أضيق اطار وكان التطلع الى توسيع دائرة الضرورات محدودة · ومع ذلك يجب أن نثق في الكيفية التى اسهمت بها الاسواق في اثارة هذا التطلع واصطناع القنوات المفتوحة لكي يسفر التعامل عن اشباع هذا التطلع · بل قل أن اثارة هذا التطلع هو الذى استنفر الاجتهاد الاقتصادى لكي يحقق الفائض من الانتاج الذى دخل في اطار هذا التعامل التجارى والتبادل والمقايضة ·

وقد لا نعرف بالضبط مدى استمرار هذه المرحلة ومبلغ الخبرات

التى شدت أزر التعامل التجارى فى الأسواق،وكيف فتحت الثغرة التى خرج منها الاجتهاد الاقتصادى خروجا مباشرا سجل التحول الى المرحلة الثانية وهى المرحلة التى استوجبت قيام وتجسيد النظام الاقتصادى قبل الاسلام. ومع ذلك يجب أن نتصور هذه الثغرة التى نقلت الاقتصاد العربى من اقتصاد عينى اكتفائى فى اطار القبيلة الى اقتصاد نقدى وائتمانى فى اطار المجتمع قد أسهم فيها :

١ ـ تفتح اقتصادى فعلى فى مدن الاسواق وتراكم الخبرات والمهارات الاقتصادية وتطلع شديد الى توظيف هذا التفتح والتراكم فى الحصول على مزيد من الأرباح • بمعنى أن الأسواق ومدن الاسواق قد تفتحت شهيتها للممارسة الاقتصادية التى نشطت ووسعت الأهداف وضخمت الأغراض الاقتصادية •

٢ ـ انطلاق اقتصادى مغامر فى طلب الرزق من الوساطة التجارية وتراكم الخبرات والمهارات الاقتصادية وتطلع شديد الى توظيف هذا الانطلاق والتراكم فى الحصول على مزيد من الارباح • بمعنى أن الابحار العربى المغامر قد تفتحت شهيته للممارسة الاقتصادية التى نشطت ووسعت الأهداف ووضحت الأغراض الاقتصادية •

والتوازى بين **التفتح الاقتصادى** فى مدن الأسواق على الصعيد الداخلى **والانطلاق الاقتصادى** فى الوساطة التجارية على الصعيد الخارجى ، هو الذى اصطنع الحلف أو التحالف بين التجاريين • وقاد هذا التحالف مسيرة الاقتصاد وأعطى نفسه الحق فى توظيف مكانته فى صياغة النظام الاقتصادى•

واستطاع هذا التحالف أن يوظف الانفتاح فى جمع ثمرات الاحتكاك الحضارى مع العالم الخارجى • ثم وظف ثمرات الاحتكاك الحضارى فى تفتح شهية الممارسة الحضارية على صعيد جزيرة العرب • وكفل هذا التفتح اتساع دائرة الضرورات والالحاح على طلب هذه الضرورات • واستجاب السوق واستجاب الاجتهاد الاقتصادى التجارى استجابة مباشرة لهذا الطلب • بل لقد اتخذ من هذا الالحاح وهذه الاستجابة وسيلة للسيطرة على الاجتهاد الاقتصادى الانتاجى فى حقل الزراعة وفى حقل الرعى على حد سواء •

وهذا معناه أن نشأة التحالف بين التجاريين هو الذى يمكن أن يحدد أو أن يقطع برأى فى شأن التحول من اقتصاد عينى الى اقتصاد ائتمانى • بل

انه هو الذى جسد موجبات الأخذ بأسباب كل التقاليد والأعـــراف التى اصطنعت النظام الاقتصادى • ومعناه أيضا أن التحالف بين التجاريين هـو الذى وظف الالحاح على التعامل التجارى مع السوق والاستجابة الفورية لهذا الالحاح فى صياغة مقومات هذا النظام الاقتصادى قبل الاسلام •

ولقد ساق تحالف التجاريين الاقتصاد العربى قبل الاسلام فى الاتجاه الذى جاوب ارادة سيطرتهم وتسلطهم الاقتصادى • وأصبح من أهم المضامين التى حققت الغاية من النظام الاقتصادى الذى اصطنعوا تقاليده وأعـــافه ما يلى :

١ ـ الاحتكار •
٢ ـ المشاركة •
٣ ـ المضـــاربة •
٤ ـ الائتمـــان •

وفى اعتقادى أن الحديث عن هذه المضامين وكيف ادخلها النظام فى مجال التطبيق العملى مسألة صعبة • وقد نملك بعض البيانات التى تسعف مثل هذا التفصيل ولكن الذى لا نملكه بالفعل هو حق اقتحام بحث أصولى من غير خبرة كافية فى مجال الاقتصاد وأصوله النظرية • واذا جاز لنا أن نطل على هذا النظام وأن ندلى بتعليق مفيد فان أهم ما نورده فى هذا التعليـــق يتمثل فى :

أولا : مسألة تحالف التجاريين من أهم المسائل التى تستحق الاهتمام • بل انها تستدعى الانتباه الى أقصى حد • وما من شك أن فى دراسة الصورة التى عبرت عن الواقع الاقتصادى فى مكة قبل الاسلام قد أوحت بوجود هذا التحالف الذى جمع التجار وهم أصحاب مصلحة حقيقية فى حركة الاقتصاد وضرورة السيطرة عليه • وربما كانت دار الندوة هى مقر هذا التحالف بالفعل • وهناك أكثر من دليل على أن دار الندوة قد شهدت الاتفاق على تنظيم القوافل وعلى حركة التجارة وعلى عقد العهود بين تجار مكة وغيرهم على صعيد الجزيرة لتأمين التحرك على دروب القوافل وعلى صعيد المدنيات فيما وراء جزيرة العرب مع الحبشة وفارس وغيرها • ولو صح تصورى وحدسى فى شأن هذا التحالف ومبلغ قوته فى الهيمنة على حركة الاقتصاد قبل الاسلام • بل لو صح تصورى وحدسى فى شأن وجود هذا التحالف بين التجار وهم فى المكانة الأعظم فى اطار الواقع الاقتصادى العربى ، فان ذلك قد يدعو الى تلمس وجه شبه بين ذلك الوضع الذى آل اليه الامر فى جزيرة العرب قبل الاسلام من ناحية

وتحالف التجاريين الذى ظهر فى أوروبا فى مرحلة دقيقة شهدت التحول من النظام الاقتصادى الاقطاعى الى النظام الاقتصادى الرأسمالى ومهدت له من ناحية أخرى ٠ وصحيح أن الاسلام قد أوقف وأبطل مفعول هذا التحالف وانهى هيمنته على حركة الاقتصاد التى اصطنعها هذا التحالف ، ولكن هـــل صحيح أنه لو تأخر الاسلام كان التحول قد سار فى مجراه لكى تظهر بــوادر النظام الاقتصادى الرأسمالى فى جزيرة العرب ؟

ثانيا : التقاليد والأعراف التى اصطنعت قواعد وأصول النظامالاقتصادى كما أراد له تحالف التجاريين أن يكون قد وجهت حركة الاقتصاد توجيهـــا ضالا ومضللا ٠ والضلال الذى نعنيه هو شامل لكل أوجه الحياة التىارتبطت مصالحها بحركة الاقتصاد ٠ وما من شك فى أن هذا الضلال قد أوقع التعامل الاقتصادى فى أحرم الحرام ٠ ويمكن أن نقول أن التعامل الاقتصادى قــد أضعف أو انتهك بعض الحقوق والمصالح وما التفت الى أولئك الغارمين الذى تضررت مصالحهم وعاشوا فى شكل من أشكال الظلم الاقتصادى ٠ ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل كاشفة فى شأن الربا وسوءات التعامل بالربا أو فى شأن المرهنات والمضاربات ولكن يمكن أن نؤكد على أن التمادى فىهذا الحرام قد أخل تماما بالتوازن فى الحقوق الاقتصادية ٠ وأصبح هذا الخلل من وراء قوة ضغط وتسلط من يملك على من لا يملك ٠ وربما تسلل هذا الخلل الى صلب البناء الاجتماعى وانتهككل موجبات تماسك أوصاله ، وأضعف سلامته٠ واذا صح تصورى وحدسى فى شأن هذا الخلل الذى انتهك اخلاقيات العمل الاقتصادى وأهدر التوازن بين النـــاس فى الحقـوق الاقتصادية ، وأصاب صلب البناء الاجتماعى اصابات هتكت أوصاله ، فان ذلك يدعو الى تلمس الحكمة الآلهية التى زجت بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى العمل التجارى قبل أن يتلقى الوحى ويبعث نبيا ورسولا ٠ وما من شك فى أنه قد اقترب من تحالف التجاريين وتعرف على النظام الاقتصادى وعلى أسرار الممارسة الاقتصادية الضالة والكيفية التى تمادت بها الى الحرام والعدوان على مصالح الناس ٠ وصحيح أن تحالف التجاريين فى مكة هو الذى قاد رفض الكفر للدعوة الى الله وحمل على الايمان ٠ وصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد انتفع بخبرته التى اكتسبها فى صفوفهم فى مواجهتهم وقهرهم ٠ وصحيح أن الاسلام قد اعترض على سوءات الاقتصاد والنظام الاقتصادى قبل الاسلام اعتراضا كليا ٠ ولكن هل صحيح أن الاسلام قد أعرض عن صلب هذا النظام تماما وألقى به وراء ظهره وابتدع نظاما اقتصاديا اسلاميا منقطع الصلة بذلك النظام الاقتصادى الضال قبل الاسلام ؟

واذا كان هذا هو السؤال الصعب ، فيجب أن ندرك مبلغ الفرق الكبير بين وضعين هما :

١ ــ أن يكون الاسلام قد أعرض بالفعل على النظام الاقتصادى قبل الاسلام بعد أن اعترض على كل موجبات الخطايا والضلال والحرام فى بنيته. ومن ثم اصطنع نظاما اسلاميا طاهرا عفيفا ابتعد عن كل موجبات هــــذا الاعتراض والأعراض .

٢ ــ أن يكون الاسلام قد اعترض بالفعل على النظام الاقتصادى قبل الاسلام بعد أن اعرض عن كل موجبات الخطايا والضلال والحرام فى بنية . ومن ثم قوم هذا النظام وخلع عنه لباس الكفر وألبسه لباس الطهر والحلال، واعادة الى الصواب أو اعاد اليه صوابه .

...

وبعد ، هذه هى الرؤية التى جسدها التصور الجغرافى . وما من شك فى أن توظيف العامل الجغرافى واستشعار بعض المتغيرات التى انتهى اليها هذا التوظيف ، هو الذى اتاح وضع الاطار الجامع للرؤية التى لمت أوصال الواقع الاقتصادى قبل الاسلام . كما اباحت توزيع الاضواء والظلال التوزيع الكاشف لما عبرت عنه هذه الرؤية . ومع ذلك لا نريد أن نقطع بأنها هى الحق ولكن الذى لا شك فيه انها تصور تلمس الحقيقة . ويكفى انها تضع بين أيدى الباحثين تصورا يطالعه ويتبين مبلغ الصدق أو عــــدم الصـــدق فى الأوصال التى جمعت فى اطار هذه الرؤية . ومن ثم يكون الأساس الذى تنطلق منه أى اضافة أو أى حذف أو أى اعادة لتوزيع الأضواء والظلال من أجـــل الرؤية الأصدق .

...

ملحق

الرحلة العربية في المحيط الهندي

دورها في خدمة المعرفة الجغرافية

تمهيــــد :

تكون الرحلة فى المفهوم العام برية أو بحرية أو جوية · وفى اطـــار هذا التنوع ، تمثل الرحلة انجازا أو فعلا ، لما يعنيه أمر اختراق حاجز المسافة أو اسقاط الفاصل بين المكان والمكان الآخر · ويتأتى هذا الانجاز من أجل هدف معين ، يجاوب ارادة الانسان الفرد أو الانسان المجتمع أو يجاوب ارادة حركة الحياة على الأرض ·

وقد تكون الرحلة هواية ورغبة ، تشبع حاجة الانسان وترضيه · وقد تكون الرحلة احترافا وعملا يخدم مصالح الانسان ويشبعه · ولكنها تكون فى كل الحالات وعلى كل المستويات استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو اليها وتوجهها لحساب حركة الحياة · ومن شأن هذه الدوافع أن تدعو الانسان بكل الالحاح دعوة صريحة الى الحركة والانتقال على أمل العـــودة والاياب · ومن ثم يخترق الانسان حاجز المسافة ويتحمل مشقة السفر ويعانى متاعب الغربة لبعض الوقت ، وصولا الى غاية مباشرة أو هدف معين ·

ومن أجل اختراق حاجز المسافة بين المكان والآخر ، ومن أجل بلوغ الرحلة أقصى غاياتها وجنى ثمراتها ، كان الاجتهاد الانسانى الذى أسفر عن تهيئة الوسائل المتنوعة وطور استخدامها أو توظيفها لحساب الحركةوالانتقال· وصحيح أنه ربما جد الانسان على قدميه وتحمل مشقة السير لاتمام رحلـة ما وجنى ثمراتها ، ولكن الصحيح أيضا أن سخر كافة الوسائل التى ابتدعها لكى تسعف اهتمامه بالرحلة ، ولكى توسع دائرة انتشاره ، ولكى تؤمن حركته فى الذهاب والاياب ، لحساب حركة الحياة ·

ومن غير الدخول فى تفاصيل كثيرة ، ينبغى أن نذكر كيف كانت ارادة

وحاجة وتطلعات المدنيات العتيقة ، التى ترعرعت فى أحضان الزراعة وصنعت أسباب الاستقرار ، من وراء كل الحوافز والدوافع التى دعت الى تنظيم وتحريك الرحلة وجنى ثمراتها • بل لقد كانت الرحلة وكأنها يد الاستقرار التى تمدها فى الاتجاه المعين لكى تحقق هدفا ، يؤمن حاجة الحياة ، أو يدفع ويطارد خطرا يتهددها فى عقر دارها •

كما ينبغى أن نفطن بالضرورة الى دور هذه المدنيات فى ابداع وتهيئة وتطوير وسائل الانتقال فى البر والبحر على السواء ، وتوظيفها فى خدمة الرحلة • بمعنى أن المدنيات العتيقة فى قلب جزيرة العالم ومن حول الاذرع المائية ــ البحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج العربى ــ هى التى اطلقت عنان الرحلة وحددت أهدافها السلمية الاقتصادية ، أو أهدافها الحربية العسكرية ، وسيرتها فى الاتجاه الصحيح • ومن ثم كانت الرحلة سبيلا من أهم سبل الانفتاح التى انتفعت بها حركة الحياة والمصلحة المشتركة للانسان فيها • بل لقد خلقت الرحلة أهم قنوات الاتصال المباشر وغير المباشر بين أوطان المدنيات العتيقة حتى استشعرت من خلال المصالح المتبادلة معنى ومغزى وحدة الأرض ووحدة الناس على الأرض •

هذا ، ولقد كان هذا الانفتاح ــ بكل المقاييس ــ من وراء رؤية جغرافية كاشفة ، انتفعت بها المعرفة الجغرافية انتفاعا حقيقيا • وصحيح أن الرحلة فى الغدو والرواح ، قد أغرقت الحياة لبعض الوقت وهى تروى وتقص وتحكى عن مشاهداتها من غير وعى فى بحر الخيال الاسطورى • ولكن سواء كان الخيال الاسطورى قد شوه الروايات عن الرحلة بقصد أو من غير قصد ، فان هذه الروايات لم يكن من بين أهدافها أن تضلل[1] المعرفة الجغرافية أو أن توقع بها فى ظلمات الجهالة •

بل يجب أن نؤكد قيمة هذه الرحلات بصفة عامة ، وكيف انها قد بصرت

---

(١) لم تنغمس الحكايات الاسطورية فى الخيال وسرد العجائب والغرائب من غير قصد دائما • وفى اعتقادى أن بعض الخيال قد تعمد دس الغرائب والعجائب فى الاساطير وصولا الى هدف ما • وربما كان الهدف خبيثا لكى يبث الخوف والفزع ، أو لكى يحكى مدى الجسارة ويجسد مدى المخاطرة • ولا يسفر ذلك الهدف الخبيث الا عن ضلال وتضليل ، أو عن انبهار وتهويل • وقد ينقسم الناس فريقين ، فريق فزعه الخوف حتى أحبط روح المغامرة فيه ولم يخرج الى الرحلة ، وفريق آخر بهره الخوف وألهب كل الجسارة فيه وخرج الى الرحلة •

ورشدت - مع مضى الوقت ورغم كل شىء - ارادة الكشف الجغرافى • كما أسهمت بكل تأكيد فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالارض والناس وحركة ...سية على الأرض • ولقد غدت الرحلة فى البر وفى البحر ، العين المبصرة التى قادت ورشدت الاجتهاد الجغرافى ، وحققت أهدافه لحساب حركة الحياة وتأمين حاجتها على الأرض •

هذا ، ولا ينبغى أن نزعم أن ندعى أن ارادة وتطلعات المعرفة الجغرافية قد تفتحت حتى أصبحت حافزا أو دافعا من وراء الرحلة فى ذلك الوقت القديم • كما لا يجب أن نزعم أو ندعى أن المعرفة الجغرافية فى حد ذاتها كانت هدفا أو غاية انتظمت الرحلة من أجلها • ولكن الذى يجب أن نؤكد عليه حقا تأكيدا راسخا هو أن المصلحة المشتركة أو المصلحة المتبادلة قد جمعت ونسقت من غير قصد مباشر أو غير مباشر بين هدف وغاية كل رحلة من جانب، وهدف وغاية الرؤية الجغرافية المتفتحة من جانب آخر •

ومن خلال هذه المصلحة المشتركة ، تجلى شكل من أشكال الانتفاع المتبادل فيما بينهما • وفى الوقت الذى كان فيه الاجتهاد الجغرافى عينا تبصر أو عصا تتوكأ عليها الرحلة فى البر أو فى البحر سعيا وطلبا لغاياتها ،كانت الرحلة فى البر والبحر مجالا رحبا ومشبعا يحدد امتدادات الرؤية الجغرافية ويشحذ همة الاجتهاد والجغرافى ويشد أزره •

والرحلة التى أصطحبت الاجتهاد الجغرافى فى معيتها ، سواء كانت فردية أو كانت جماعية وهى تضرب فى البر أو فى البحر وتغامر فى الغدو والرواح ، عملت فى المقام الاول لحساب التجارة والتبادل التجارى(٢) • وصحيح أن بعض الرحلات قد عملت فى تنظيم عسكرى بحت لكى تطارد العدوان وترد كيده أو تردعه ، ولكن الصحيح أيضا أن هذه الرحلات فى ثوبها العسكرى قد اصطحبت الاجتهاد الجغرافى لكى يرشدها ويملأ بصره

---

(٢) يبدو أن تنوع حاجات الحياة الأولى والآخرة أو الدنيوية والروحية فى أحضان المدنيات العتيقة والعريقة ، قد حفزت بعض المغامرين للقيام بالرحلة فى البر تارة وفى البحر تارة اخرى • وربما مول الملوك والأمراء هذه الرحلات ، ولكن الذى لا شك فيه هو تحمل زمرة من المغامرين مشقة الرحلة • ولقد سارت هذه الزمرة على درب الرحلة ووضعوا مغامراتهم الجسورة فى خدمة العمل التجارى والوساطة التجارية بين الأقطار المتباعدة • ومن ثم كانت نقطة بداية فى سيرة ومسيرة حركة التجارة لدولية •

وبصيرته بالرؤية الجغرافية على الطريق ، ويشبع لهفته على المعرفة الجغرافية باقطار الأرض من حوله .

وفى هذا البحث ، نود أن نلقى بكل الصدق الضوء على الاجتهاد العربى المغامر ، على متن السفن فى رحلات بحرية مثيرة فى المحيط الهندى . وقد لا نكترث بكل أسباب ومظاهر الاثارة ولكن الهدف الذى نبتغيه هو بيان مدى اسهام هذا الاجتهاد العربى الجسور فى خدمة المعرفة الجغرافية وترشيدها على المدى الطويل ، بداية من قرون طويلة قبل الميلاد الى القرن السادس عشر الميلادى الذى شهد فجر الكشوف الجغرافية الكبرى .

الاجتهاد العربى والمغامرة البحرية :

لكى نحدد بداية معقولة انبرى بها الاجتهاد العربى للمغامرة فى البحر والاقلاع فى رحلة بحرية هادفة ، يجب أن نذكر معنى ومغزى ازدهار المدنيات العتيقة والعريقة فى وادى النيل الادنى (مصر) وفى سهول الرافدين (بابل) وفى انحاء كثيرة أخرى فى حوض البحر المتوسط من جانب ، وازدهار المدنيات العتيقة والعريقة فى حوض المحيط الهندى وشبه القارة الهندية على وجه الخصوص من جانب آخر . ومن ثم ينبغى أن ندرك كيف كان هذا المعنى المغزى بكل أبعاده المادية والروحية من وراء دعوة صريحة حفزت أو دفعت فريق نشيط من سكان المنطقة ، لكى يقوم ويوظف خبراته وامكانياته فى خدمة الوساطة التجارية وخدمة كل قنوات الاتصال التجارى والحضارى بين هذه المدنيات القديمة .

ولقد رشح موقع جزيرة العرب الجغرافى ومن حولها البحر الاحمر والخليج العربى وخليج عدن فريقا نشيطا من العرب للاستجابة لهذه الدعوة . وهناك أكثر من مرجع منها كتاب الطواف فى البحر الأحمر يؤكد على أن هذا الفريق قد دخل التجربة التى اكسبته الخبرة فى أحضان البحر منذ وقت بعيد . وكانت هذه الخبرة فى ركوب البحر من وراء اجتهاد وخبرة فى صناعة السفينة وتجهيزها ومن وراء جسارة وانطلاق واثق فى عرض البحر .

وما من شك فى أن تضبح هذا الفريق العربى النشيط الذى عاش فى

---

(٣) راجع كتاب :
Vincent, W. : The periplus of The Erythrean Sea, London, 1805.
Schoff, W. : The periplus of the Erythrean Sea, London, 1912.

جنوب جزيرة العرب نضجا حضاريا مبكرا ، قد شد أزرهم وهم يكتسبون الخبرة · بل لقد آزرتهم هذه الخبرة فى المغامرة البحرية واشبعت اهتمامهم بالعمل التجارى والوساطة التجارية ، سواء وهو يمارس الرحلة البحرية فى البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى ، أو وهو يمارس الرحلة البرية عبر أرض جزيرة العرب ذاتها ·

وصحيح أن تصاعد الطلب على حاجات لحساب الاستهلاك فى المدنيات العتيقة المتطورة قد فتح صدره ودفع بسخاء للعاملين فى الوساطة التجارية· وصحيح أن انتصارات الاسكندر والتفتح الذى بنى عيها قد ألهب الاهتمام بتجارة البحار الجنوبية وصعد الطلب عليها(٤) · وصحيح أيضا أن عناصر غير عربية قد ظهرت أو تسللت الى البحر الاحمر واشتركت فى رحلات التجارة البحرية · ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن عرب جنوب الجزيرة — وقد عرفت باسم العربية السعيدة(٥) Arabia Felix كانت لهم وحدهم دون غيرهم الريادة وفضل السبق والتفرد لبعض الوقت فى تجارة البحار الجنوبية · بل لقد احتفظوا بهذه المكانة وهى مكانة التفرد والريادة وقتا طويلا · بمعنى أن اجتهادات واسهامات أولئك الذين تسللوا الى البحر الأحمر ولم يخرجوا من باب المندب كانت اجتهادات هامشية أو جانبية بصفة عامة ·

وليس من قبيل الزعم أو الادعاء أن نؤكد على ريادة العرب من جنوب الجزيرة فى البحار الجنوبية · بل يجب أن نتصور معنى هذه الريادة وكيف اسفرت بالفعل عن انجاز وترسيخ أسس وقواعد وأصول وضوابط هامة وحيوية فى مسألة التجارة الدولية ، وحركة الاقتصاد العالمى · وليس من قبيل الزعم أو الادعاء مرة أخرى أن هذه الريادة وذلك الانجاز والترسيخ هما محصلة الممارسة العملية والخبرة المكتسبة من رحلات بحرية منتظمة

---

(٤) ظاهر الفراعنة هذا الاهتمام كما سار البطالمة فى مصر على نفس الدرب · بل لقد امتلك الوجود البطلمى بعض الموانى ومراكز التجارة على سـاحل البحر الأحمر الأفريقى والآسيوى · راجع كتاب : الموانى السودانية · دراسة فى الجغرافية التاريخية (الألف كتاب) سنة ١٩٦١ ·

(٥) جاءت هذه التسمية فى اطار التصنيف الرومانى لأقاليم ثلاثة متميزة فى جزيرة العرب · وربما جاء من بعد ذلك التخصيص عندما عرف جنوب جزيرة العرب باسم اليمن السعيد · وكان اليمن السعيد عندئذ أكثر اتساعا فى الدلالة الجغرافية على صعيد الجنوب العربى الذى يطل عليه خليج عدن وخليج عمان ·

وموسمية في المحيط الهندى • بل يجب أن نتصور معنى هذه المحصلة وكيف خدمت التجارة والهبت الاحتكاك الحضارى بين مدنيات حوض البحرالمتوسط، ومدنيات حوض المحيط الهندى •

هذا ، ولقد تولى عرب جنوب الجزيرة من أهل العربية السعيدة أو من أهل اليمن الكبير هذه المهمة التى وظفت خبراتهم لحساب الانتاج والتفتح التجارى والحضارى والجغرافى على مدى طويل • وربما كانت البداية مبكرة قبل الميلاد بعدد كبير من القرون • وربما كان التغيير المناخى وتصاعد حالة الجفاف فى جزيرة العرب وما اقترن به من شح وتقتير على الحياة ، وكان التحدى التضاريسى الوعر فى جنوب جزيرة العرب وما اقترن به من صراع طلبا لاستخدام الأرض ، من بين أهم الدوافع التى دفعت الوجود العربى الى تحقيق بعض الانتصارات الحضارية على الأرض • وربما لأن هذه الانتصارات كانت غير مشبعة فان روح التحدى قد قذفت بعض اهتماماتهم الى التعامل مع البحر واحتراف الملاحة والتمرس فى خدمة الرحلة البحرية وجنى ثمراتها الاقتصادية والحضارية • وهناك من يقدر بداية لهذا الصراع الذى كان الوجود العربى طرفا منتصرا فيه الألف الثانية قبل الميلاد • ثم يقدر بداية للتعامل مع البحر واحتراف الملاحة وقتا لاحقا فى حوالى الألف الأولى قبل الميلاد •

ومن غير استغراق فى الجدل حول هذا التقدير المبدئى لا يغير من واقع الريادة أو الذى لا ينتقص من فضل السبق ، ينبغى أن ندرك كيف تسللت نتائج هذه المهمة والريادة فى الرحلة البحرية وتوظيفها فى خدمة تجارةدولية الى نسيج الوجود الحضارى والسياسي والاقتصادى لكل دولة من الدول التى ذاع صيتها وازدهرت مكانتها فى مساحات من أرض الجنوب العربى أو من أرض المهجر(٦) • كما لا ينبغى أن ننكر أو نتنكر لبعض النتائج التى تسللت

---

(٦) معروف أن دولة اكسوم التى قامت فى أحضان أرض على الهضبة الحبشية تمثل نموذجا ممتازا للوجود السياسى على أرض المهجر • وكانت تمتلك جبهة بحرية تطل على البحر الأحمر • ولقد قامت على هذه الجبهة ميناء عدول Adulis لكى تخدم التوجه الى البحر والرحلة البحرية فيه • كما احتوت موقعا تخصص فى بناء وصناعة السفن التى نالت شهرة وذاع صيتها وورد ذكرها فى الشعر الجاهلى •

راجع — رسالة الدكتوراة للكاتب بعنوان : « التوجيه البحرى للسودان وأثره فى حركة التجارة والمواصلات » غير منشورة سنة ١٩٥٧ جامعة القاهرة •

وللكاتب أيضا ب — المراني السودانية دراسة فى الجغرافية التاريخية الألف كتاب — القاهرة سنة ١٩٦١

من خلال الآداء الوظيفى للعرب فى خدمة الرحلة البحرية الى النسيج الحضارى والسياسى والاقتصادى فى المجتمعات على الصعيد الأفريقى بصفة خاصة(٧) ٠

ومن الطبيعى أن نتصور كيف بدأ تعامل أهل الجنوبى العربى مع البحر وكيف تمرسوا فى ركوب البحر وعملوا فى الوساطة التجارية فى البحر الأحمر فى مرحلة مبكرة ٠ وهناك أكثر من دليل أو مؤشر على أن هذا البحر رغم ما تنطوى عليه الشعاب المرجانية من خطر يتهدد الملاحة والملاحين ، كان المدرسة أو الحقل الذى شهد التجارب العتيقة ٠ وفى هذا الحقل ومن هذه التجارب اكتسب البحار العربى أهم الخبرات والمهارات والقدرات التى وظفها فى آداء دوره الايجابى فى عرض المحيط الهندى فى مراحل لاحقة ٠ ولقد شهدت مواقع بعينها فى أحضان مرافىء منتخبة عمليات بناء وصناعة السفن التى اسعفت الرحلة البحرية العربية وانجحت مسعاها على المدى الطويل ٠

ومن الطبيعى مرة أخرى أن نتصور كيف شارك البحارة من أهل الجنوب العربى فريق آخر من مصر والشام واليونان فى ملاحة البحر الاحمر ٠ ولقد جنى هذا الفريق المختلط من العرب وغير العرب ثمرات التجربة البحرية فى هذا البحر ولكن الذى ينبغى أن نؤكد عليه هو انفراد أو تفرد البحارة من أهل الجنوب العربى بتجاوز باب المندب ٠ وهذا التفرد لا يعنى انهم أكثر جسارة من غيرهم ولكنه يعنى بالدرجة الاولى انهم كانوا أكثر خبرة ٠ وربما كانت ومضات من معرفة جغرافية تكتموا أسرارها قد بصرتهم واعانتهم على اختراق حاجز المسافة على سطح البحر والمحيط الهادر فى اتجاه الشرق ٠ ومن ثم تأتى تنظيم وانتظام الرحلة البحرية العربية فى ثقة واطمئنان فى أحضان المحيط الهندى ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠

---

(٧) الوجود العربى على ساحل شرق أفريقية أو الوجود العربى على ارض الهضبة الحبشية قد فتح الباب على مصراعيه لكي تتسلل الى الأرض الأفريقية وعلى أوسع مدى بعض ثمرات الرحلة العربية ٠ ونضرب لذلك مثلا ، حيث نقلت الرحلة معها أشجار وشجيرات القطن لكى تزرع فى مساحات من أرض دولة مردى ٠

الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى :

اختراق حاجز المسافة وانتظام الرحلة البحرية العربية فى عرض المحيط الهندى فى ذلك الوقت المبكر قبل الميلاد ، قد يعنى الريادة فى المغامرة الفذة. وقد يعنى أيضا امتلاك الوسيلة والخبرات والمهارات التى شدت أزر هـــذه المغامرة الفذة ، وأسلمتها زمام التعامل التجارى والوساطة التجارية بين أقطار فى أحضان البحار الجنوبية ، وأقطار فى احضان البحر المتوسط . ثم هو يعنى قبل ذلك وبعد ذلك كله ، ضربا من ضروب الانفتاح الاقتصادى الذى خدم التكامل بين بعض الاقطار المتحضرة ، وصعد قيمة المصالح المتبادلة فى اطار الدائرة التى استوعبت ثمرات هذه الوساطة التجارية وطلبتها بكل الترقب والالحاح .

وفى اعتقاد أى باحث منصف أن اختراق حاجز المسافة وانتظام الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى ، تعنى أيضا التفتح الجغرافى . وقـد يعنى أيضا امتلاك القدرة على المعاينة والمشاهدة التى وسعت دائرة الرؤية الجغرافية . والتفتح الجغرافى الذى نعنيه ونتصور جدواه ، لا يعنى أقل أو أدنى من معاينة ورؤية كاشفة للارض التى تمر بها الرحلة أو التى تنتهى اليها. كما لا يعنى التفتح الجغرافى أيضا أقل أو أدنى من معايشة وتعامل كاشف للاقوام الذين احتوتهم هذه الأرض على طريق الرحلة فى أنحـــاء من عالـــم المحيط الهندى .

وما من بشك فى أن هذا التفتح الجغرافى الذى هو ثمرة من ثمـرات الرحلة العربية البحرية وهى تنطلق فى عرض المحيط الهندى ، قد بصر ورشد وصحح مسارات واتجاهات المغامرة البحرية . بل لعله قد اسعفها من حـــين الى حين آخر ، وهى تضرب فى المجهول من عرض البحر وتوسع مدى انتشارها على الصعيد الآسيوى . وهل ننكر أن اكتشاف أو معرفة حركة الرياح الموسمية الصيفية وهى جنوبية وجنوبية غربية ، وحركة الرياح الموسمية الشتوية وهى شمالية وشمالية شرقية ، هو ثمرة من ثمرات التفتح الجغرافى فى رحاب حوض المحيط الهندى ؟ وهل ننكر بعد ذلك أيضا قيمة وجدوى هذا التفتح الجغرافى الرشيد الذى اصطنع نقطة التحول الحاسمة ، واطلق العنان للرحلة البحرية العربية ؟ وهل ننكر ان هذا الانطلاق الذى شد أزره التفتح الجغرافى هو بعينه الانفتاح الاقتصادى الذى أسفر عن شكل مبكر من أشكال التجارة الدولية ؟

ولقد كان من شأن هذه امرحلة البحرية العربية ، التى أمسك بزمامهـا

نفر خبير من أهل الجنوب العربى ، والتى انطلقت من مرافىء وموانى متعددة فى الجنوب العربى أن تصل فى نهاية المطاف الى شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا • وينبغى أن نتصور كيف كان هول ومشقة هذا الانجاز الناجح أو الموفق والرحلة تضرب بكل الرشاد والثقة فى عرض محيط هادر ورحب• كما ينبغى أن نتصور كيف كانت المعرفة الجغرافية مطلوبة بكل الإلحاح لكى تكون فى معية الرحلة البحرية ترشدها وتصحح مسارها على الطريق الوعر فى الاتجاه الصحيح • بل ومن غير هذا الترشيد الواعى ، تكون الرحلة البحرية العربية فى ضلال مبين •

ولكى تتحقق الرحلة البحرية العربية وتفلح فى ادراك غايتها وآداء مهمتها وصولا الى شبه القارة الهندية وعودة منها ، أحسن البحارة من أهل الجنوب العربى استخدام المعرفة الجغرافية التى جمعت أوصالها رؤية جغرافية مباشرة وغير مباشرة متكررة • بمعنى أن اقتحام المحيط الهندى ومغامرة الرحلة العربية فى ارجائه لم تبدأ بداية عفوية • وفى اعتقاد اى باحث منصف أن يتصور كيف انها قد بدأت من بعد تجربة وخبرة وعزيمة ، بنيت على حصاد معرفة جغرافية سوية وتصور جغرافى صحيح للعلاقة بين اليابس والماء فى القطاع الرحب من المحيط الهندى الممتد بين ساحلى شرق افريقية وجنوب آسيا •

وكان من شأن هذه الرحلة البحرية الموفقة فى الذهاب وفى الاياب على المدى الطويل ، أن تمر بتجربتين متباينتين • ولقد تمثلت التجربة الأولى فى ملاحة ساحلية تتشبث بالساحل الافريقى حتى لا يكاد يغيب عن البصر • وتمثلت التجربة الأخرى فى ملاحة تضرب فى عرض البحر وتجتاز المحيط فى اتجاه معين لا تحيد عنه •• وفى كل تجربة من هاتين التجربتين المتواليتين ، برهن البحارة من أهل الجنوب العربى برهانا عمليا على كفاءة حقيقية فى ركوب البحر وحسن توجيه السفن وبلوغ الغاية •• وكادت أن تمثل هذه الرحلة البحرية العربية شكلا ناجحا من أشكال الملاحة المنتظمة فى مواسم معينة وعلى خطوط سير محددة •

وتوظيف الرحلة البحرية العربية الذى بدأ من ميناء من موانى الجنوب العربى استقبل البحر بكل الاهتمام ، قد اعتمد على الملاحة الساحلية وتمرير السفينة بحذاء خط الساحل الافريقى لكى يتجنب الرياح غير المواتية • وكان من شأنها أن تتجاوز القرن الافريقى بكل الخفة ، وأن تتقدم جنوبا مع ساحل شرق افريقية على امتداد جبهة طويلة على المحيط الهندى • وهناك أكثر من

موقع منتخب لاستقبال السفينة بين موقع ممبسة فى كينيا وموقع سفاله فى موزمبيق(٨) • بمعنى أن هذه الرحلة البحرية قد لازمت وتشبثت بالساحل الأفريقى فلا تكاد تبتعد عنه أو يغيب عن الابصار ، وكأنها تخشى أن تضل أو تضيع فى عرض البحر •

وربما تنقلت السفينة انذاك أو تسكعت من مرفأ الى مرفأ آخر منتخب على امتداد هذا الساحل لكى تلتقط الانفاس وهى تتقدم بكل الثقة والحيطة فى وقت واحد • وكان من الطبيعى أن تتسكع وأن تتحسس سبيلها لكى تتجنب الاعماق الضحلة ومواقع بعض النمو المرجانى وحواجز الشعاب المرجانية ، قبل أن ترسو فى المرفأ أو فى المرافىء الانسب • وفى أحضان هذه المرافىء كانت قد جهزت الموانى التى تنتهى عندها الرحلة البحرية بعد مرحلة الملاحة الساحلية • وفى ظهير هذه المرافىء كانت قد قامت أسباب العمران ومواقع السكن وحركة الحياة التى فتحت صدرها لاستقبال الرحلة البحرية • وعندئذ كانت الرحلة تلتقط الأنفاس وتنتظر اللحظة الأنسب وتتهيأ لاقتحام البحر المحيط فى الاتجاه الصحيح الى شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا •

وانتخاب المرافىء بكل الخبرة ، وتجهيز الموانى فى احضانها بكل المهارة، وحيازتها وتوظيفها واتمام مرحلة من الرحلة البحرية العربية اليها ، يعنى بكل المقاييس حضورا عربيا مباشرا فى شكل من أشكال الاستيطان المؤقت أو الدائم على الساحل الافريقى • ومن الجائز أن ندرك أو ان نتصور كيف استقبل هذا الحضور العربى أو الاستيطان الوظيفى على هذه الجبهة الأفريقية البحر بلهفة واصرار ، لكى تحقق الرحلة البحرية أهدافها الاقتصادية المنشودة • ومن الجائز أن ندرك أو أن نتصور مرة أخرى كيف استدبر هذا الحضور العربى أو الاستيطان الوظيفى العمق الأفريقى فى الظهير على سطح الهضاب بحذر واشفاق لكى يتجنب الانغماس فى حركة حياة بدائية لا تخدم أهداف الرحلة البحرية الحقيقية • ولكن المؤكد بعد ذلك كله أن هذا الحضور العربى أو الاستيطان الوظيفى فى الموانى على امتداد الجبهة الافريقى لم يكن من شأنه الترفع أو السلبية • بل لقد برهن على أنه كان حضورا ايجابياوفعالا

---

(٨) كانت ميناء سفالة اقصى ما وصل اليه الانتشار العربى الذى قاد ووجه الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى • وتقع سفالة فى حضن مرفأ مناسب وتحمى حماية طبيعية فى موقع قرب ميناء بيرا الحالية على ساحل موزمبيق •

الى حد بعيد ، عندما تشبث بالأرض وعايش الناس واختلط بهم(٩) وعندما غرس نبتة الحضارة وقاد حركة الحياة اقتصاديا واجتماعيا فى الاتجـــاه الصحيح والأنسب ٠

ولقد خدم هذا الحضور العربى أو الاستيطان التفتح الجغرافى ، فى نفس الوقت الذى قاد فيه مسيرة الانفتاح الاقتصادى ٠ وصحيح أن أن التوغل العربى من مواقع الاستيطان على الساحل الافريقى والصعود الى القلب الأفريقى على سطح الهضاب العليا كان توغلا حذرا وبطيئا الى حد كبير(١٠) ٠ ولكن الصحيح أيضا أن هذا الحضور العربى المبكر على ساحل شرق أفريقية والاستيطان المستمر ، والتوغل المتأنى الحذر الى الظهير الوعر ، قد عاين الأرض وتعرف عليها وعايش الناس وتعامل معهم ٠ ومن ثم قص الحضور العربى وروى الحكايات والقصص التى أفصحت عن رؤيته ومعايشته ٠ وما من شك فى أن هذه الحكايات والقصص كانت المصدر البكر والأصيل عن كثير من جوانب المعرفة الجغرافية القديمة على الصعيد الأفريقى الاستوائى ٠

والرحلة البحرية ، الساحلية والتقاط الانفاس الذى أسفر عن استيطان وحضور عربى نشيط تولى قيادة حركة الحياة على الجبهة الأفريقية وتوجيهها حضاريا واجتماعيا واقتصاديا ٠ بل لقد طور الاستيطان والأخذ بزمام حركة الحياة والعلاقة بين هذا الحضور العربى والافارقة ٠ ومن الطبيعى أن نتصور كيف جسدت هذه العلاقة انفتاح الافارقة انفتاحا أدى الى اختلاط وزواج ومصاهرات(١١) ٠ ومن الطبيعى أن نتصور أيضا كيف تسربت أو تسللت الدماء واختلطت الدماء العربية والدماء الأفريقية ٠ ولا نشك فى أن الافريقيات

---

(٩) ينبغى أن نتصور الفاصل الحضارى الرأسى بين العرب والحضور العربى والأفارقة ، وكيف تحمل الاستيطان العربى مسئولية الانفتاح والاختلاط معهم ٠ وربما نفتن هذا الحضور العربى فى تجاوز هذا الفاصل الحضارى وتأمين روح ومنطق وأساليب الانفتاح ٠

(١٠) فى الوقت الذى كان الصعود من السهل الساحلى ومواطن الاستيطان الى الهضاب يحمل العرب مشقة التضرس ، كان مستوى الناس الحضارى على هذه الهضاب ومكانتهم من حيث الانتاج والاستهلاك لا يغرى بالصعود اليهم والتعامل التجارى معهم ٠

(١١) لكى نفسر التناقض بين تسرب الدماء العربية بشكل واضح وعدم انتشار اللسان العربى أو تعريب المساحات الأفريقية التى احتوت مواقع الاستيطان العربى المغترب ، يجب أن نحسب حساب الأمهات غير الافريقيات وتأثيرهن المباشر على تربية الأبناء من الآباء العرب ٠ ومع ذلك فلقد تسللت بعض الألفاظ والكلمات والتراكيب العربية واختلطت باللغات المحلية ٠ ولغة السواحل هى خلاصة هـــذه التوليفة اللغوية التى نمت وترعرعت فى أحضان الأمهـات الأفريقيات ٠

كن ارحاما لأجيال كثيرة • وكان من شأن هذه الاجيال أن تتشبث بالأرض والموطن وأن تتحمل مسئولية الدور الوظيفى الذى كان من أجله الحضور والاستيطان العربى • بل لقد أصبح هذا الفريق من الأجيال المتعاقبة رأس جسر التحرك البحرى العربى المستمر الى شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا •

ومن الميناء أو من الموانى التى اتخذت شكل المستوطنات أو وظيفة المركز التجارى Trade Post ، على الجبهة الأفريقية ، يبدأ الشوط الثانى من الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى • وفى هذا الشوط أو فى هذه المرحلة اقتحمت الخبرة العربية البحرية عرض البحر وابتعدت السفينة أو السفن عن الساحل • وكان الاقتحام اقتحاما جسورا بالفعل فى ذلك الوقت • ومع ذلك فينبغى أن ندرك كيف كانت السفن من النوع المناسب الذى يسعف هذا الاقتحام الجسور • وهل يمكن أن نشك أو نشكك فى مدى قدرة هذه السفن على مواجهة الاخطار التى يمكن أن تسفر عنها غضبة البحر المباغتة فى بعض الأحيان ؟

وصحيح أن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الصيفية،قد شدت آزر هذا الابحار والاقتحام الجسور ، ووجهت مسيرة الرحلة فى اتجاه مباشر وصحيح الى شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا • وصحيح أن الرياح الموسمية الشمالية الشرقية الشتوية ، قد يسرت أمر العودة والاياب الى الموانى والمستوطنات على الجبهة الافريقية الشرقية • وصحيح أن سرعة هذه الرياح الموسمية الصيفية ، والشتوية ، كانت تستنفر البحر وتثير غضبه حتى تعلو أمواجه ويزمجر ويتهدد بالخطر السفن التى تمخر فى عبابه الهادر • ولكن المؤكد أن توقيت اقلاع رحلة الذهاب فى الصيف وتوقيت اقلاع رحلة الاياب فى الشتاء ، يكشف بما لا يدع مجالا للشك عن معرفة جغرافية صحيحة عن حركة الرياح الموسمية ومدى انضباطها • كما يكشف بالضرورة أيضا عن حسن استخدام هذه الرياح وتوظيفها أو تسخيرها فى خدمة الرحلة البحرية وهى تقلع أو وهى تبحر فى عرض البحر أو وهى تقترب •

وكانت شبه القارة الهندية التى احتوت وجودا هنديا متحضرا تفتح صدرها بكل الترحيب واللهفة لكى تستقبل الرحلة البحرية العربية ولكى تتعامل معها • ويبدو أن وضع شبه القارة الهندية فى مكانها الطبيعى قد فرض على حركة الحياة نبض التحضر والانفتاح فيها أن تستقبل البحر ، وأن

تطل من خلاله على العالم فيما وراء البحر ، وأن يطل العالم فيما وراء البحر من خلاله عليها(١٢) • وبقدر لهفة الرحلة البحرية العربية وهى آتية من الاتجاه الصحيح على الوصول والاقتراب من شبه القارة الهندية ، كانت لهفة الهند على وصول واقتراب هذه الرحلة واستمرارها لانها تخدم انفتاحها المتحضر على عالم المتحضرين •

ومن الجائز أن ندرك كيف انتخبت الهند المرافىء الأفضل ، وكيف جهزت واعدت الموانى الانسب لاستقبال البحر وحركة الملاحة فيه وكيف رنت بابصارها لمعنى ومغزى وجدوى الانفتاح على العالم المتحضر من خلال هذه الانجازات • ومن الجائز أن ندرك كيف اعفت هذه الانجازات الاجتهاد العربى من مسئولية اعداد الموانى وتجهيزها وكيف تركت له أمر التفرغ للابحار وحسن توجيه الرحلة والمخاطرة فى عرض البحر لحساب التعامل التجارى مع الهند • ولكن المؤكد أن الرحلة البحرية العربية قد أولت كل الاهتمام لدورها الوظيفى وكرست خبراتها البحرية لانجاح هذا الدور • وجرى العرف على أن تقلع السفن فى رحلتها الى الهند وقد اثقلتها حمولة من منتجات العالم المتحضر فى احضان مدنيات حوض البحر المتوسط • وهناك تتبادل على هذه الحمولة وتعود من الهند وقد اثقلتها حمولة بديلة من منتجات الهند •

وتولى الهند أمر تجهز الموانى واستخدامها لكى تقترب منها الرحلة البحرية أو لكى تقلع منها ، وحسن استقبال هذه الرحلة العربية والسهر عليها وترقب وصولها أو اقلاعها فى الوقت الأنسب كان مقترنا بحرص هذه الرحلة البحرية العربية على الذهاب والعودة أو على الاقتراب والاقلاع فى شكل منتظم الى حد بعيد • ولا ينفى ذلك الاهتمام الهندى كله أو يتعارض مع حضور عربى أقام فى الموانى الهندية وأمن انتظام وتنظيم الحركة الملاحية منها واليها • وصحيح أن هذا الحضور العربى شارك الوجود الهندى مشاركة فعلية فى حركة الحياة وفى تسيير حركة الاقتصاد والتبادل التجارى على وجه الخصوص • ولكن الصحيح أيضا أن هذا الحضور العربى قد اكد ذات الجالية

---

(١٢) وضع وامتداد ووعرة التضرس فى السلاسل الجبلية التى تطوق شبه القارة الهندية ، هو الذى خفض معدل حركة الاتصال مع اليابس الآسيوى فيما وراء الهند الى حد استدبار القارة، ووجه حركة الحياة وانفتاحها على العالم الى استقبال البحر •

العربية فى هذا المهجر حضاريا واجتماعيا واقتصاديا • بمعنى انه لم ينصهر حتى تضيع معالم ذاته أو تذوب فى الوجود الهندى •

وهكذا كان الحضور العربى الوافد مع الرحلة البحرية فى الذهاب والاياب حضورا ايجابيا ومنتظما • كما كان الحضور العربى المقيم فى انتظار الرحلة البحرية أكثر ايجابية وفاعلية • ولقد عاين هذا الحضور العربى الأرض لأنه عاش فى احضانها وعرف خصائصها • وعايش هذا الحضور العربى الناس لأنه تعامل معهم وشاركهم فعالة فى مسيرة حركة الحياة • بمعنى انه كان حضورا نشيطا ومتفتحا فى الأخذ والعطاء على حد سواء •

ويتجلى نشاط وفعالية وجدوى تواجد هذا الحضور العربى على ثلاثة محاور محددة من محاور حركة الحياة ووقع خطواتها على صعيد الأرض الهندية• وما من شك فى أنه قد خدم على المحور الاول الانفتاح الاقتصادى ويسر حركة التجارة ورسخ آداتها الوظيفى • كما انه تولى على المحور الثانى أمر الاحتكاك الحضارى وشحذ قدراته وترسيخ نتائجه وآثاره • هذا بالاضافة الى أنه نور على المحور الثالث البصيرة الجغرافية وزودها برصيد مناسب عن المعرفة الجغرافية بالأرض والناس •

وصحيح أن هذا الحضور العربى قد أمسك عن ذكر معظم أهم التفاصيل من الرحلة البحرية المغامرة فى عرض المحيط • وصحيح ان هذا الحضور العربى قد احتفظ لنفسه بكثير من أسرار المعرفة الجغرافية ولم يفرط فيها تخوفا من منافسة أولئك الذين رابطوا فى البحر الأحمر وهم يترقبون حصاد وثمرات الرحلة المغامرة فى المحيط الهندى • ولكن الصحيح أيضا أن هذا الحضور العربى قد روج القصص المشحون بالخيال الذى جسد الرعب واشاع الفزع على أمل تخويف كل من تسوله نفسه أن يغامر أو أن يقتحم المحيط الهندى ويشاركهم فى دورهم الوظيفى الذى اشبع طموحاتهم وامطرهم ذهبا وفضة •

ولا ينبغى أن نستنكر هذا السكوت عن حسن تصوير الرؤية الجغرافية• بل ولا يجب أن نتصور هذا السكوت جهلا بقيمة هذه الرؤية الجغرافية وما تعبر عنه وما تكشف عنه من آفاق • ولكن الذى يجب أن نؤكد عليه هو أن السكوت كان شكلا من أشكال التستر والاخفاء والتمويه لحساب الاحتكار والتفرد ورفض المنافسة واحباطها • وموقف هذا الحضور العربى وتكتم أمر المعرفة الجغرافية والتستر عليها لا يكاد يختلف كثيرا عن موقف الحضور

الفينيقى عندما تكتم أمر المعرفة الجغرافية أو عندما ضلل البحث والباحثين عن هذه المعرفة ٠

وحجب اخبار الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى أو اغراق الرواية عنها فى خضم من الآساطير ، قد أفلح فى تكتم أمر المعرفة الجغرافية لبعض الوقت ٠ بل لقد افلح أيضا فى احباط اى اجتهاد بحرى من غيرالجنوب العربى وعلى مدى مرحلة طويلة قبل الميلاد من اقتحام المحيط الهندىواستخدامه والمغامرة فيه ٠ وهناك ما يؤكد على أن اليونان والرومان قد ترقبوا طويلا وحاولوا على مدى فترة طويلة جمع المعلومات عن المحيط الهندى طلبا لاقتحامه وكسر احتكار الرحلة العربية له وتفرد الحضور العربى المغامر فى أرجائه بثمرات الوساطة التجارية فيه ٠

وفى اعتقادى انه ربما تعمد الحضور العربى تكتم بعض جوانب المعرفة الجغرافية حتى لا تضار مصالحة الاقتصادية فى المحيط الهندى والأرض التى تطل عليه وتعامل معها تجاريا ٠ ولكن هناك جوانب قد أفصح عنها لأنها لا تضيره ولا تضر بمصالحه بل يجب أن نتصور كيف كان الحضور العربى فى البر وفى البحر العين المبصرة التى اطل بها ومن خلالها الاجتهاد الجغرافى القديم لدى بعض أهم المدنيات القديمة فى عوض البحر المتوسط على عالم آسيا وأفريقيا ٠ كما اعطت هذه العين المبصرة للاجتهاد الجغرافى القديم فى الهند فرصته هو الآخر ، لكى يعرف من خلالها شيئا عن الواقع الجغرافى فى جزيرة العرب وأفريقية وحوض البحر المتوسط ٠

ومع ذلك فيجب أن ندرك أن وجود هذا الحضور العربى قد امتد على مدى طويل متفردا لبعض القرون وغير متفرد لبعض القرون الأخرى ٠ وصحيح أن رؤيته الجغرافية قد استمرت فى هاتين الحالتين ٠ ولكن الصحيح أيضا أن معدلات التكتم أو الافصاح عن هذه الرؤية الجغرافية قد تفاوتت تفاوتا كبيرا من مرحلة الى مرحلة أخرى ٠ بل ربما قدم الحضور العربى بعض جوانب رؤيته الجغرافية على غير ارادة صادقة منه حينا وبكامل ارادته الحرة الصادقة حينا آخرا ٠ ولا نشك أنه سواء أعطى بحذر واقلال وتقتير أو أعطى بانطلاق وسخاء واقتناع ، فان هذا العطاء كان رافدا من روافد المعرفة الجغرافية ٠

الحضور العربى ومراحل العطاء للمعرفة الجغرافية :

الحضور العربى فيما وراء البحار كان اغترابا — فى الغالب — لبعض الوقت. ومع ذلك ربما واصل بعض هذا الحضور العربى المغترب اغترابه فى المهجر . بمعنى أن التشبث بالعودة من المهجر الى الأرض الأم كان أملا يراود المغترب فى البر والبحر وهو عامل فى حقل الملاحة والتجارة . ولم يكن من شأن هذا الحنين الى الوطن أن يفت فى عضد هذا الحضور العربى المغترب أو ان يخفض معدلات اجتهاده ونشاطه . ومن ثم ينبغى أن نؤكد على أنه كان حضور عربيا مغتربا ومستمرا من خلال تعاقب الاجيال على المدى الطويل، لأن الرحلة البحرية العربية لم تتوقف أو تفتر منذ ان عرفت طريقها الى المحيط الهندى وحتى القرن السادس عشر الميلادى . وعلى طول المدى لم تفتقد الرحلة وعمليات التجارة سواعد وهمة الرجال لكى تحافظ على دورها الوظيفى . بل ان استمرار وانتظام الرحلة قد كفل دائما هذا الآداء من غير أن يتضرر بشكل الصلة والحنين بين الحضور العربى المغترب فيما وراء البحار والوطن الأم فى الجنوب العربى .

ولا تعارض أبدا بين عودة المغترب بعد غياب لبعض الوقت فى المهجر ، واستمرار الحضور العربى المغترب فيه . ذلك أن هناك من واصل الاغتراب أو من احتل مكان المغترب العائد ، وتحمل مسئولية استمرارية المهمة الاقتصادية والحضارية والاجتماعية فى المهجر . وصحيح أن هذه الاستمرارية على المدى الطويل ، كانت من وراء توسيع دائرة الانتشار وتثبيت جذور الحضور العربى المغترب فى المهجر . ولكن الصحيح أيضا أن استمرارية هذا الحضور العربى المغترب قد أثرت الرؤية الجغرافية اثراء حقيقيا . ولقد اشترك من خدم الرحلة البحرية وسهر على سلامتها وتأمينها فى جولاتها المنتظمة مع من اقام فى المهجر دائما أو لبعض الوقت فى تجميع ولم شمل أوصال هذه الرؤية الجغرافية .

ومن غير أن نفتقد العلاقة بين الرحلة البحرية والحضور العربى المغترب الذى تشبث أو عاش فى أنحاء المهجر على الصعيد الافريقى وعلى الصعيد الآسيوى ، يجب أن ندرك كيف تحققت هذه الرؤية الجغرافية فى البر أو فى البحر على حد سواء . بل لعل ذلك كله ، كان من وراء تجميع أوصال الرؤية الجغرافية الشاملة ووضع الاجتهاد العربى فى مواجهة مصالح مشتركة وانفتاح جسد فى فكرهم معنى وحدة الأرض ووحدة الناس وتكامل مصالحهم المشتركة على الأرض .

هذا ويمكن أن تتابع انجازات الرحلة البحرية والحضور العربى الذى ارتبط بها لحساب المعرفة الجغرافية فى مراحل متميزة ومتكاملة ومستمرة فى وقت واحد ، بمعنى أن نتقصى حقيقة هذه الانجازات وعطاء الرحلة البحرية للمعرفة الجغرافية منذ أن اقتحمت هذه الرحلة باب المندب وخليج عــدن وتجولت فى المحيط الهندى لآداء دورها الوظيفى . والتكامل الذى نعنيه ويفيد الاستمرار والمثابرة والحرص على حسن استثمار جنى ثمرات الرحلة البحرية بين أنحاء المهجر فى المحيط الهندى ، كفل استمرار العطاء للمعرفة الجغرافية . أما التمييز بين مراحل شهدتها الرحلة البحرية العربية بنــاء على بعض الظروف والمتغيرات البشرية فلقد كفل التمييز بين صور وأساليب هذا العطاء .

مرحلة التفرد والغموض الجغرافى أو التكتم الجغرافى :

هذه مرحلة مبكرة وقديمة بدأت والغموض الجغرافى عام وشامل من غير حدود . ولقد شهدت هذه المرحلة فى القرون السابقة للميلاد الرحلة البحرية العربية وهى تضرب فى المجهول . بل ويشوب معرفتنا بالرحلة البحرية ذاتها وفى هذه المرحلة الشيء الكثير من الغموض . وصحيح أن مغامرات هذه الرحلة البحرية فى المحيط الهندى قد أسقطت حاجز الغموض وهى تتمسس طريقها بحذاء الساحل الأفريقى أو وهى تخاطر فى عرض المحيط ، وتتلمس أوصال الرؤية الجغرافية من حولها . ولكن الصحيح أيضا أن الاجتهاد العربى الذى أنجز هذه المهمة قد تعمد الابقاء على حاجز الغموض . واشاعة الغموض أو اغراق اخبار الرحلة البحرية العربية فى خضم زاخر بالخيال والاوهام كان لحساب الاجتهاد العربى . بمعنى أنه غموض من أجل التخفى والتكتم وستر حقائق المعرفة الجغرافية التى رشدت الرحلة وأنجحت دورها الوظيفى .

واماطة اللثام عن حقائق المعرفة الجغرافية وتجميع أوصال رؤيةجغرافية صحيحة عن عالمالمحيط الهندى مسألة لا ينبغىأنننكرها أو أن نتنكر لجدوها، الحقيقية . أما تعمد الاخفاء والتستر والتمويه لكيلا تتسرب هذه المعرفــة الجغرافية فهذا وجه آخر لهذه المسألة بكل تأكيد . والمنافسة التجارية وحق الاحتكاركلها أمور واردة تبرر هذا التعمد والتمويه . ومن غير ذلك كان من المستحيل على الرحلة البحرية العربية أن تمتلك زمام الريادة والتفرد فى المحيط الهندى . بل كان من المستحيل أيضا أن يجنى أهل الجنوب العربى فى المهجر أو فى الوطن الأم أو فى الرحلة وعلى ظهور السفن ، وحدهم ثمرات المغامرة والعمل فى حقل التجارة والتبادل التجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط .

وعن الرحلة فى هذه المرحلة نذكر أنه من الجائز أن نفتقد القدرة على تحديد تاريخ بداية المغامرة واقتحام المحيط الهندى ، وأن نفتقد الوسيلة التى تجمع أوصال المعرفة الجغرافية التى اغرقها الاجتهاد العربى فى بحر من الغموض ، ولكن الحقيقة التى لا تضل ولا تضلل تؤكد على أن الاجتهاد العربى قد أمسك بزمام هذه المعرفة الجغرافية لكى تبصر وترشد التفرد بها ولكى تؤدى الرحلة دورها الوظيفى . وهناك أكثر من دليل صادق على أن الملاحين من غير أهل الجنوب العربى ، كانوا يترقبون فى البحر الأحمر اياب هذه الرحلة العربية، بعد أن تفرغ من آداء مهمتها ، طلبا والحاحا على كل السلع والمنتجات التى عادت بها من شبه القارة الهندية .

ومن أجل تصور أفضل للدوافع والحوافز التى قذفت بالبحارة من أهل الجنوب العربى الى حلبة هذه المغامرة الخطرة فى المحيط الهندى والتفرد فى ريادة الرحلة فيه ، يجب أن ندرك ضراوة التحدى الطبيعى المعلن(١٣) فى الجنوب العربى ضد ارادة الحياة . وصحيح أن مصارعة هذا التحدى قد أسفرت عن انجازات رسخت صرحا حضاريا عرف وانتفع بالاستقرار فى احضان الزراعة . ولكن الصحيح أيضا أن استشعار التقتير وضيق الرزق قد وجه فريقا من أهل الجنوب العربى الى البحر واستخداماته الاقتصادية .

ولقد عكف هذا الفريق على ركوب البحر واكتسب الخبرة وصنع السفن فى أحضان البحر الاحمر لبعض الوقت . وصحيح أن هذا الفريق قد شارك زمرة من بحارة شعوب متمدينة فى حوض البحر المتوسط مشاركة متوازنة فى حركة الملاحة فى البحر الأحمر . ولكن الصحيح أيضا أن كانت المتغيرات والعوامل التى اسعفت البحارة من أهل الجنوب العربى لكى يتأتى الاقتحام المغامر للمحيط الهندى ، وأن يبقى البحارة من غير أهل الجنوب العربى فى البحر الأحمر يملأهم الخوف من هول المغامرة .

---

(١٣) التحدى المعلن ضد ارادة الحياة فى الجنوب العربى هو التحدى التضاريسى بالدرجة الأولى . وكم حملت الكتل الجبلية والتضرس الوعر الانسان مشقة تجهيز المدرجات وبنائها انتصارا لوجود الحياة . ولا يفرغ الاجتهاد البشرى من المشقة عند هذا الحد بل هو مطالب بصيانة هذه المدرجات وحماية مواقعها . كما هو مطالب بأن يواجه التحدى المناخى وتقلبات كم المطر وذبذبته من سنة الى سنة أخرى بالزيادة والنقصان . ومن براثن هذه التحديات وحسن مواجهتها انتزع الانسان أسباب وجوده وأسفر اجتهاده من صيغ حضارية سجلت الآثار وأحصى التاريخ صفحات مشرقة منها قبل الميلاد وعلى مدى قرون كثيرة .

وينبغى أن نتصور الفرق بين فريق مغامر جسور وفريق جبن وتجمد وقد ترتب على اختلاف فى معايير التحلى بالشجاعة • بل لابد أن نتصور هـذا الفرق وقد ترتب على معرفة بالواقع الجغرافى بصر وشجع ورشد الفريـــق المغامر الجسور من جانب وعلى جهل بالواقع الجغرافى اقعد الفريق الآخـــر وجمد روح الشجاعة فيه من جانب آخر • وهكذا أمسك البحارة من أهـــل الجنوب العربى بزمام الريادة البحرية فى المحيط الهندى وتركوا من ورائهم البحارة من غير أهل الجنوب العربى فى البحر الأحمر يترقبون عـودة الرحلة البحرية العربية •

وفى اعتقاد أى باحث منصف أن تكتم اخبار الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى وحجب رؤيتها الجغرافية عن الآخرين أغنى الرحلة عـــن المنافسة واطلق عنان التفرد والريادة للحضور العربى المغترب فى عالم المحيط الهندى • وعلى مدى عدد من القرون ، كان الاجتهاد العربى المتفرد عـــلى استعداد لتلبية حاجة الأسواق ولتغطية متطلبات المدنيات فى عالم البحـــر المتوسط وعطائها من غير حدود فى مقابل الأرباح الجمة • بل وكان عـــلى استعداد أيضا لتقديم خبراته الحضارية التى صقلتها وطورتها تجارب الاحتكاك الحضارى والانفتاح الحضارى على عالم المحيط الهندى • ولكن الشىء الوحيد الذى رفضوا اماطة اللثام عنه وتشبثوا باخفاء فحواه فى خضم الاساطير(١٤) هو رؤيتهم الجغرافية ومعرفتهم بالواقع الجغرافى وحسن توظيف هذه المعرفة فى خدمة الرحلة البحرية •

وعن عطاء الحضور العربى المغترب المتفـــرد بتجارة المحيط الهنـــدى واستعداده لتلبية حاجة الاسواق ، نذكر انه قدم السلع والمنتجات الهندية بصفة خاصة الى مصر والشام واليونان وروما • وكم شهدت بعض موانى القطاع الجنوبى من البحر الأحمر أسواق التبادل وعقد الصفقات بين وكلاء الحضور العربى المغترب فى المهجر ووكـــلاء التجار من اقطار البحـــــر

---

١٤) انطوى السرد الأسطورى عن الرحلة البحرية العربية على كل ما من شأنه اثارة الفزع والخوف • وما من شك أن اختلاق التصوير الذى بث أو أشاع الفزع كان متعمـدا • وهل أفضل من اشاعة الفزع لارهاب البحارة من غير أهل الجنوب العربى ولاحباط روح المغامرة فيهم ؟ وهل أفضل من ترسيخ هذا الاحباط لاخلاء الحلبة من أى عنصر من عناصر المنافسة ؟

المتوسط(١٥) • وكم شهد الطريق البرى من الجنوب العربى مسيرة قوافل التجارة وهى تتوجه شمالا الى غزة واسواقها التى زخرت بالطلب على سلع ومنتجات عالم المحيط الهندى •

وعن دور الحضور العربى المغترب المتفرد بالاحتكاك الحضارى فى عالم المحيط الهندى واستعداده للتبصير بها ، نذكر أنه نقل صورا من الانجاز الحضارى فى عالم المحيط الهندى الى عالم البحر المتوسط ، ونقل صورا من الانجاز الحضارى فى عالم البحر المتوسط الى عالم المحيط الهندى • وما من شك فى أن نقل هذه الصور كان أمينا ومفيدا لحساب التقدم الحضارى المادى والروحى • ونسجل على سبيل المثال كيف نقلت اشجار القطن من شبه القارة الهندية(١٦) لكى يتأتى غرسها فى مساحات على الصعيد الأفريقى أو لكى تتداخل فى التركيب المحصولى للانتاج الزراعى فى بعض الأرض الأفريقية •

هذا ، ولم يكن من شأن التفرد العربى الذى فتح أبواب التجارة على مصراعيها وتكتم انباء المعرفة الجغرافية فى وقت واحد أن ينتهك الا عندما فك الاجتهاد الرومانى طلسم المعرفة الجغرافية بالمحيط الهندى وانهى الحصار الذى كان قد فرضه التفرد العربى عليها • ولقد تأتى ذلك للاجتهاد الرومانى بعد الميلاد بوقت قصير معتمدا على نفسه • بمعنى أن الحضور العربى المغترب لم يفرط فى معرفته الجغرافية طوعا أو كرها • ومعناه أيضا أن ما افلح الملاحون العرب فى التستر عليه لبعض الوقت ما كان ليبقى فى طى التكتم كل الوقت ، والاجتهاد غير العربى يبذل كل ما فى وسعه لاماطة اللثام عنه والانتفاع به • ومن ثم آن لمرحلة التفرد والريادة أن تنتهى وآن لمرحلة جديدة أن تبدأ •

---

(١٥) أسفر هذا التعامل التجارى عن وضع لبنات الأساس فى عمليات التجارة الدولية • ونذكر على سبيل المثال ابداع نظام أمر الدفع الذى يخول بمقتضاه ابراء ذمة أحد الطرفين المتعاملين من خلال وكيل أو وسيط لامتناع اللقاء المباشر بينهما •

(١٦) من خلال وجود دولة اكسوم على الصعيد الأفريقى وهى دولة قامت على أصول من الحضارة السبئية ، نقلت أشجار القطن التى حملت بذورها السفن الى ميناء عدول Adulis ولقد غرست فى مساحات كبيرة من أرض دولة مروى فى حوض النيل الأوسط • ويبدو أن حقول القطن كانت فى هذه الأرض معينا اقتصاديا مهما الى الحد الذى دعا الى تسجيل أمر تخريبها كمظهر من مظاهر الانتصار عندما دارت الحرب الضروس بين دولة اكسوم ومروى •

راجع الشامى ، صلاح الدين : الموانى السودانية دراسة فى الجغرافية التاريخية — الألف كتاب — القاهرة سنة ١٩٦١ •

مرحلة التنافس والانفتاح الجغرافي :

صحيح أن نجاح الاجتهاد الروماني فى اماطة اللثام عن بعض جوانب المعرفة بالمحيط الهندى وتوظيفها فى خدمة الرحلة البحرية غير العربية قد انهى التفرد والاحتكار العربى للوساطة التجارية فيه • وصحيح أن الرحلة البحرية غير العربية فتحت قنوات اتصال مباشر وحركة تبادل تجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم الرومان فى حوض البحر المتوسط • ولكن الصحيح أيضا أن الرحلة العربية فى المحيط الهندى لم تنسحب أو تتوقف وأن الحضور العربى المغترب لم يكف عن توظيف الرحلة البحرية فى آداء دورها الاقتصادى •

وهكذا بدأت هذه المرحلة الجديدة التى شهدت الرحلة البحرية العربية والرحلة البحرية غير العربية وهما يعملان جنبا الى جنب ، فى نفس الاتجاهات ومن أجل نفس الاهداف • ومن الجائز أن نتصور بداية منافسة بين هاتين الرحلتين أو أن نتوقعها • ولكن قصة هذه المنافسة كانت غير حامية • ولم تسفر عن أكثر من انهاء التفرد العربى فى عالم المحيط الهندى وحقل الوساطة التجارية فيه •

وصحيح أن الاقتحام الرومانى قد كسر احتكار الحضور العربى المغترب لحركة التجارة فى المحيط الهندى • وصحيح أن الرحلة البحرية غير العربية قد اقتسمت ارباح حركة التجارة وحصلت على نصيب منها فى اطار المنافسة مع الرحلة العربية • ولكن الصحيح أيضا أن الاجتهادالرومانى الذى جاوب زيادة الطلب على منتجات وسلع عالم المحيط الهندى لم يصعد المنافسة الى حد الصراع • ويبدو أن حجم الطلب المتزايد على حصاد الرحلة العربية والرحلة غير العربية قد اشبع نهم المتنافسين وحال دون الصراع أو انهاء أو توقف أى من الرحلتين •

والمنافسة التى أسفر عنها العمل المشترك فى ميدان التجارة الدولية فى عالم المحيط الهندى كانت من شأنها أن تصطنع بعض المتغيرات التى لعبت دورا مؤثرا فى حركة التجارة وتوسيع مداها • ومع ذلك فان أهم ابعاد هذا التغيير قد تمثل فى اصرار الحضور العربى المغترب على القبول بالمنافسة • وعندئذ تحول هذا الحضور العربىمنوضع التفرد الذى امسك فيه بزمام الاحتكار الى وضع التنافس والبحث عن أسباب ومقومات الانتصار والتفوق •

وتاسيسا على هذا التحول فى الأوضاع ، انهمكت الرحلة العربية فى آداء دورها الوظيفى من غير أن تدخل فى مجابهة مع الرحلة غير العربية • بل ربما اتخذت من روح وفاعلية المنافسة حافزا وقوة دفع لكى توسع دائـــرة ابحارها فى المحيط الهندى ولكى تكثف اجتهادها الاقتصادى مع عالم المحيط الهندى • ولقد تجاوزت الرحلة البحرية العربية شبه القارة الهندية ومدت مسيرتها الى الملايو وجزر الهند الشرقية ، وغرست لحسابها حضورا عربيـا مغتربا فى جنوب شرق آسيا •

وهكذا ينبغى أن نتبين كيف أفلت من الحضور العربى المغترب زمـام التفرد فى عالم المحيط الهندى وكيف اصطنع وامسك بزمام التفوق فىوجه المنافسة التى فرضت عليه • وربما لم يتضرر هذا الحضور العربىالمغترب ماديا فى هذه المنافسة لو أخضعنا الأمر كه لدراسة الجدوى وما أسفرت عنه بين المتنافسين • ولكن الأهم من ذلك كله هو ما ترتب على توسيع دائرة النشاط العربى والاستغراق فى جنى ثمرات الرحلة البحرية التى انتظمت الى جنوب شرق آسيا •

ومن خلال هذا التوسيع فى دائرة النشاط العربى فى المحيط الهندى، فتح الباب على مصراعيه لكى تتقابل وتتعامل الرحلة البحرية العربية مـــع الرحلة البحرية الصينية • ومن ثم كان واحدا من أهم المتغيرات التى أسفرت عن انفتاح الاجتهاد العربى والرؤية الجغرافية العربية على مدى أكثر اتساعا بداية من القرن الأول الميلادى • وما من شك فى أن الحضور العربى المغترب قد أحسن توظيف هذا الانفتاح لحساب الرحلة البحرية العربية وتكثيـف حصادها اقتصاديا وحضاريا • بل ينبغى أن نتصور كيف كان ذلك كلـــه من وراء ،

(أ) توسيع دائرة الحضور العربى وغرسه فى مواقع ومستوطنات جديدة فى عالم المحيط الهندى •

(ب) جمع أوصال رؤية جغرافية جديدة واضافتها الى رصيد الخبـرة الجغرافية عن عالم المحيط الهندى والشرق الأقصى •

(ج) ترسيخ مكانة الاجتهاد العربى فى مجالات الوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندى والشرق الأقصى من جانب وعالم البحر المتوسط من جانب آخـر •

وما كان فى مقدور الحضور العربى المغترب أن يجنى ثمرات هذا التفوق

لولا أن ازداد تشبثه بالأرض وانفتاحه على حركة الحياة فى كل موقع من مواقع استيطانه المنتخبة • بل لقد اختلط وصاهر السكان المحليين ، لكى يدعم هذا التشبث ويشتد أزره • وهذا معناه ترسيخ سيادة الحضور العربى المغترب وحقه فى جنى ثمرات الرحلة البحرية العربية فى المهجر على صعيد عالم المحيط الهندى • بل لقد طور وجوده تطويرا حقيقيا واتخذت بعض مراكز التجارة ومواقع الاستيطان العربى من خلال هذا التطوير شكل الدولة • وأصبح للحضور العربى المغترب فيها سلطانا سياسيا ونظاما حاكما •

ومن الجائز أن تستشعر معنى وجدوى هذا السلطان السياسى ، وكيف أمن الحضور العربى المغترب وكفل تفوقه اقتصاديا وحضاريا واجتماعيا فى أنحاء المهجر • على الصعيدين الافريقى والآسيوى • ومن الجائز أن نستشعر علاقة ايجابية بين هذا السلطان السياسى فى المهجر والسلطان السياسى فى الدول أو الدويلات فى انحاء من الجنوب العربى • ولكن المؤكد أن هذه العلاقة قد أسفرت عن شكل من أشكال التكافل والتساند فى اطار مجتمع الدول آنذاك • بل ان السلطان السياسى فى مراكز التجارة فى انحاء من المهجر كان أكثر استقرارا وأمنا واستمرارا • وما من شك فى أن هذا السلطان السياسى لم يتضرر بتقلبات الأوضاع التى تعرض لها السلطان السياسى فى الجنوب العربى اليمنى(١٧) •

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتصور كيف كانت الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى وهى تنافس وتتفوق ، من وراء حضور عربى يمنى مغترب أكثر يقظة وأمنا وفاعلية حضاريا واقتصاديا من الوجود العربى اليمنى فى الوطن اليمنى(١٨) فى جنوب الجزيرة • بل لم يفلح الاجتهاد الرومانى ولا الرحلة البحرية غير العربية التى استظلت بالسلطة الرومانية فى زعزعة الحضور

---

(١٧) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ترجمة / السيد يعقوب بكر صفحات ١٩٢ ، ١٩٣ •

(١٨) فى هذه المرحلة التى شهدت التنافس بين الرومان والعرب فى تجارة المحيط الهندى تعرضت لاوضاع فى الجنوب العربى لتقلبات سياسية كثيرة • كما شهدت هذه المرحلة بزوغ واستخدام تسمية اليمن • وكان الجنوب العربى آنذاك هو اليمن الكبير • وتلك تسمية أخذت سمة التعبير الجغرافى والحضارى فى وقت واحد • وما وطئت أقدام لسيطرة والنفوذ الحبشى الا مساحة فقط من أرض اليمن الكبير • وكانت سائر مساحات اليمن الكبير حرة وبعيدة عن بطش هذه السيطرة •

العربى المغترب أو فى انحسار نشاطه وهز مكانته المرموقة فى تجارة عالم المحيط الهندى ٠ وهناك أكثر من دليل لا يضل ولا يضلل ، على أن الحضور اليمنى المغترب قد أفلح بكل تأكيد فى احتكار أكبر حجم من تجارة الذهب والبخور والمر والتوابل وأخشاب الزينة ٠ بل لقد حافظت معظم ألموانى على ساحل الجنوب اليمنى بمكانتها فى عمليات بناء واعداد السفن وفى عمليات التبادل التجارى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط(١٩) ٠

ويبدو أن الصراعات داخل الامبراطورية الرومانية قد أضعفت فاعلية الاجتهاد الرومانى والرحلة البحرية غير العربية فى المنافسة التى صمدت فى مواجتها الرحلة البحرية العربية والحضور اليمنى فى المهجر ٠ كما كانت أوضاع الحضور اليمنى المغترب وهو فى المهجر بمعزل عن الصراعات السياسية التى شهدتها الأرض العربية فى الوطن الأم فى الجنوب اليمنى ، من وراء التفرغ الكامل للدور الوظيفى التى كرست من أجله البحرية العربية لحساب التجارة الدولية ٠

وصحيح أن الاجتهاد الرومانى قد تولى أمر الكشف عن صفحات من المعرفة الجغرافية وسجل درجة من الانفتاح على الرؤية الجغرافية(٢٠) ٠ولكن الصحيح أيضا أن ظهور المسيحية وأخذ الكنيسة بزمام التفكير الجغرافى قد أخمد هذا الانفتاح على الرؤية الجغرافية واحبط بصيرته(٢١) ٠ وفى ذات الوقت تمسك الحضور اليمنى المغترب بمنطق حجب وتكتم اخبار المعرفة الجغرافية ولم

---

(١٩) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق صفحة ١٩٧ ٠

(٢٠) كان التسلل الرومانى الى المحيط الهندى من وراء تجميع أوصال بعض المعرفة الجغرافية عن القلب الأفريقى الاستوائى - ولقد أعانت بكل تأكيد بطليموس الاسكندرانى فى رسم خريطة المشهورة التى ميز فيها من منابع النيل الحبشة ومنابع النيل الاستوائية ٠ بل ولقد ضمن الرسم الجغرافى وضع البحيرات على أن النيل ينسب منها فى اتجاه الشمال ٠ وصحيح انه أخطأ فى وضعها جنوب موضعها الصحيح ولكن الصحيح أيضا أنه حقق لأول مرة رسما للمنابع الاستوائية (راجع للكاتب دراسات فى النيل — القاهرة سنة ١٩٦٧) ٠

(٢١) طاردت الكنيسة الفكر الجغرافى القديم الذى أسفر عنه الاجتهاد السابق للمسيحية واعتبرته فى ضلال مبين وأهدرت دم كل من يردده أو يناقش القضايا التى أفصح عنها ٠ واحتضنت فكرا جغرافيا مسيحيا قبلت به ٠ وما من شك فى انه قد انساق فى الاتجاه الخاطىء ، بل وامتنع بعض المفكرين من الاكتراث بالتفكير الجغرافى نخوفا من تزمت الكنيسة (راجع للكاتب الاسلام والفكر الجغرافى العربى — القاهرة ١٩٧٩) ٠

(راجع للكاتب أيضا الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة — القاهرة ١٩٨٠) ٠

يجد مبررا للكشف عنها أو افشاء اسرارها · بل يجب أن نؤكد على أن بعض جوانب المعرفة الجغرافية التى انكشفت تعرضت لحملة اغرقتها فى بحر من الخيال الأسطورى وشوهت دلالات التعبير عن الحقائق الجغرافية فيها ·

ولا تعارض بين انفتاح جغـــرافى تحمل مسئوليته الاجتهاد الرومـــانى فأضاف صفحات الى المعرفة الجغرافية عن عالم المحيط الهندى من ناحية ، ومقاومة الحضور اليمنى المغترب لهذا الانفتاح ونتائجه بأساليب سلبية ومن خلال اغراقه فى كل ما من شأنه أن يطمس أو يشوه أو يخفى معالم المعرفـة الجغرافية من ناحية أخرى · وفى اعتقادى أن هذا الاعتراض وتلك المقاومة كانت منطقية ومطلوبة لأنها تخدم مصالح الرحلة البحرية العربية وتشـــد أزرها فى وجه المنافسة التى استشعرتها وفرضت عليها ·

ومع ظهور الاسلام ، كانت أو توالت كل المتغيرات السياسية والاقتصادية التى اسفرت عن نقطة تحول حاسمة وجذرية فى مسيرة حركة الحياة على صعيد القطاع المعروف من الأرض جغرافيا · وصحيح أن هذا التحول قد أدى الى التغيير الى ما هو أفضل اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا ، ولكن الصحيح أيضا أن انتصار الاسلام قد فرض أهم وأخطر المتغيرات التى كبحت جماح الاجتهاد الرومانى واخرجته صفر اليدين من عالم المحيط الهندى · وكان ذلك الانسحاب لحساب الحضور اليمنى المغترب الذى واصل مهمته واداء دوره الوظيـــفى المرموق فى مرحلة تسود جديدة ·

مرحلة التسود والتفتح الجغرافى :

أحدث انتصار وانتشار الاسلام على الصعيد الاقليمى وعلى الصعيـــد العالمى فى جزيرة العالم أوضاعا جديدة ومتغيرات متنوعة ، انتفعت بها حركة الحياة · وينبغى أن ندرك كيف دعت هذه الأوضاع وتلك المتغيرات الى مرحلة تسود الرحلة البحرية العربية والحضـــور اليمنى المغترب فى عالم المحيط الهندى · كما دعت هذه الأوضاع وتلك التغيرات الى التفتح الجغرافى الذى اسهم فيه وبه هذا الحضور اليمنى المغترب · وهذا معناه أنه تحت مظلـــة الاسلام ، تصاعد وانتشر وتسود اجتهاد الحضور اليمنى المغترب فى العملية الاقتصادية والتجارة الدولية ومعناه أيضا أنه تحت مظلة الاسلام ، تبـــدل وضع الحضور اليمنى من حالة تكتم فيها أهم جوانب المعرفة الجغرافية وقتر فى بذلها وعطائها الى حالة أخرى اعطى فيها المعرفة الجغرافية بسخاء ·

ولكى نتبين كيف حدث هذا التحول سواء تمثل فى النسود فى المجال الاقتصادى أو تمثل فى التفتح الجغرافى ، يجب أن نستشعر الأوضاع الجديدة التى أسفر عنها الاسلام . وما من شك فى انتصار الاسلام الساحق على دولة الفرس وقهر الكفر فيها وعلى دولة الروم وتكوين دولته الكبرى كان من وراء هذه الأوضاع الجديدة . ذلك أن دولة الاسلام على الصعيد الأسيوى والأفريقى والأوروبى التى تفوقت فى موقعها الجغرافى واكتسبت سلطة ومكانة الدولة الأعظم من غير منازع أصبحت وهى تمسك بزمام التفوق والتغيير الى ما هو أفضل سياسيا واجتماعيا واقتصاديا من وراء هذه الأوضاع الجديدة .

ومن هذه الأوضاع الجديدة ، نذكر اشاعة الأمن فى ربوع الأرض التى ادخلت فى حوزة الاسلام ودولته الفتيه ، وسيادة النظام بين الناس الذين استظلوا بمظلة العدل والمساواة فيها . كما نذكر أيضا تهيئة الاجواء الأنسب لاحتكاك حضارى بناء بين الاقوام التى انخرطت فى بنيتها البشرية ، وانطلاق النمو الحضارى انطلاقا سويا فى الامصار التى تجمعت أوصالها فى كيانها المادى .

وكان من الطبيعى أن يستثمر الحضور اليمنى المغترب هذه الأوضاع الجديدة وأن يستشعر العزة فيجتهد ويتسود فى عالم المحيط الهندى وأن يستشعر الأمن فينفتح ويعطى المعرفة الجغرافية من غير تخوف أو تردد . وصحيح أن دولة الاسلام الكبرى لم تبسط سلطانها بالفعل على المحيط الهندى ولم توظف أسطولا بحريا حربيا فيه ، ولكن الصحيح الى أبعد الحدود أن هيبة هذه الدولة التى فزعت الدولة الرومانية قد أشاعت الأمن والامان فى عالم المحيط الهندى لحساب الرحلة العربية .

واذا كان الأمن تحت مظلة الاسلام قد اطلق العنان لاجتهاد الحضور اليمنى المغترب من غير خوف ، فان عدم وضوح الرؤية الجرافية بشأن وضع وامتداد الأرض الأفريقية وامكان الدوران من حولها سد الطريق على أى منافسة يمكن أن تفد الى المحيط الهندى من المحيط الاطلنطى . وعندئذ يمكن أن نتصور كيف انطلقت الرحلة الرحلة البحرية العربية لكى تهيمن على المحيط الهندى . وأعاد ذلك للاذهان معنى ومغزى التفرد الذى تحقق لنشاط واجتهاد الحضور اليمنى المغترب فى المهجر على صعيد عالم المحيط الهندى . وكأن هذه المرحلة التى تصفها بأنها مرحلة تسود الحضور اليمنى المغترب ، تستحق أن توصف أيضا بأنها أعادت الى الأذهان مرة أخرى مرحلة تفرد الحضور العربى المغترب فى المحيط الهندى .

بل ينبغى أن نميز بين تفرد الحضور العربى المغترب والرحلة البحرية العربية بناء على جهالة وعدم معرفة بالواقع الجغرافى ، وعلى تكتم أسرار هذا الواقع ، وعلى تخوف غير العرب من الابحار فيه ، وتفرد الحضور اليمنى المغترب عندما تبنى مسئولية الأمن ، وعندما تبنى مسيرة الاجتهاد والجغرافى ودوره فى احياء الفكر الجغرافى المهجور • ومن الجائز أن انتفعت الرحلة العربية بالأمن وصعدت نشاطها ودورها الوظيفى فى خدمة التجارة الدولية وترسيخ الأسس والقواعد التى بنيت عليها والضوابط الحاكمة التى التزمت بها•ولكن الأهم من ذلك كله هو تجلى العلاقة بين الرحلة البحرية وهى تضيف الى الرصيد الجغرافى أو بين البصيرة الجغرافية وهى ترشد الرحلة البحرية •

ومن حوالى القرن الثامن الى القرن الخامس عشر الميلادى ، شهد المحيط الهندى وعالم المحيط الهندى اقصى درجات الاجتهاد اليمنى فى خدمة الرحلة البحرية وفى جنى ثمراتها • وأوشك الحضور اليمنى المغترب فى المهجر أن يصل أقصى درجات التسود وهو يقبض على زمام حركة التجارة الدولية ويحمل أمانة مسئولية الوساطة التجارية بين عالم المحيط الهندى والعالم الاسلامى وعالم أوروبا • ولقد رسخ هذا الآداء المتفرد وجود واستيطان الحضور اليمنى المغترب فى المهجر ترسيخا سياسيا وحضاريا واجتماعيا •

بل لقد تولى هذا الحضور اليمنى المغترب الراسخ مهمة الدعوة الى الله ونشر الاسلام على امتداد الأرض التى عاش فى احضانها أو الأرض التى تعامل معها تجاريا • وكان فيض هذه الرحلة البحرية والحضور اليمنى اضافة لحساب الاسلام والمسلمين • ذلك أنه الفيض الذى عزز مكانة دولة الاسلام اقتصاديا فامسكت بزمام تجارة العبور بين الشرق والغرب وجنت ارباح حركة المرور التجارى بين الشرق والغرب • بمعنى انه قد تحقق فى هذه المرحلة أعظم نموذج من نماذج الانتفاع المتبادل بين هيبة دولة اشاعت الأمن ونشاط حضور يمنى مسلم مغترب انكب على آداء دوره الوظيفى •

وسجل الاجتهاد الحضارى العالمى ، يسجل للحضور اليمنى المغترب فى هذه المرحلة انجازات هامة لحساب الملاحة البحرية وتوظيفها فى خدمة التجارة الدولية • وبعض هذه الانجازات التى طورت اعداد وتجهيز وتشغيل السفينة كانت من ابداع متخصص انكب على خوض التجارب واكتساب الخبرات والمهارات على المدى الطويل فى المحيط الهندى • وبعض هذه الانجازات الآخر كان وليد الإنفتاح والاحتكاك الحضارى مع حركة الملاحة البحرية الصينية فى الشرق الأقصى •

وهكذا لا ينبغي أن ننكر دور هذا الحضور اليمنى المغترب أو نتنكر له وهو يجتهد لحسابه الشخصى بصفة خاصة ولحساب الاسلام ودولته الكبرى بصفة عامة . وما من شك فى أن الاغتراب وحياة الحضور اليمنى فى المهجر لم تنكر أو تقطع الصلة والمصالح المتبادلة بينها وبين الوطن الأم فى الجنوب اليمنى أو الوطن الروحى فى عالم الاسلام الكبير . وفى اطار هذه الصلة وحسابات المصالح المتبادلة وجدواها كان دور الحضور اليمنى المغترب واجتهاده محسوبا كاضافة للوطن الأم والوطن الروحى . بل ولا يمكن أن نقول أنه كان عبئا محسوبا عليها تنوء بحمله أو بتحمل تبعاته .

ورحلة بحرية هذا شأنها اقتصاديا وحضاريا ، وحضور يمنى مغترب نشيط اتصل سعيه لانجاح هذه الرحلة على المدى الطويل ، لا يمكن أن نقلل من شأن دورها فى خدمة المعرفة الجغرافية . ذلك أنها رحلة احاطت برؤية جغرافية واسعة ، وانكبت على تجميع أوصالها وهى تطوف من أرض الى أرض أخرى ، أو وهى تتعامل مع الناس الذين احتوتهم هذه الأرض . ولا يمكن أن نشك أو أن نشكك فى مدى انتفاع الحضور اليمنى المغترب بهذه الرؤية الجغرافية وهى ترشد اجتهاده وتبصر نشاطه التجارى .

وصحيح أن الحضور العربى المغترب قد تكتم فى المراحل السابقة للاسلام الرؤية الجغرافية ولم يقدمها باختياره الى رصيد المعرفة الجغرافية لأنه كان قد تخوف من مغبة المنافسة على مصالحه الاقتصادية فى المحيط الهندى. وصحيح أنه تعمد اغراق الرؤية الجغرافية فى معظم الروايات بقصد أحيانا ومن غير قصد أحيانا أخرى فى سياق السرد الاسطورى الخرافى ، لكى يضلل المنافسة والمنافسين له ، ولكن الصحيح ان الرحلة البحرية قد انتفعت بهذه الرؤية الجغرافية انتفاعا ذاتيا منغلقا وكأنها سر الصنعة الذى لا ينبغى الكشف عنه أو التفريط فيه . بل ان معظم ما تسرب من رؤية هذا الحضور العربى المغترب الجغرافية كان خلسة ومن غير قصد .

وبداية من المرحلة التى استظل فيها هذا الحضور اليمنى المغترب بمظلة الاسلام تبدلت الأوضاع. وأبدى هذا الحضور اليمنى المغترب حسن استعداده وتفتحه لعطاء واضافة رؤيته الجغرافية الى رصيد المعرفة الجغرافية . واحسن الجغرافيون العرب الذين تحملوا مسئولية الفكر الجغرافى واضافوا اليه اضافات جسدت الانتفاع بهذا الرصيد . كما احسن الرحالة العرب الذين تحملوا مشقة الرحلة فى انحاء من جزيرة العالم الانتفاع بهذه الرؤية

الجغرافية لكى تبصرهم على الطريــق • وما من شك فى أن هــذا التفتح الجغرافى كان رافدا مهما من روافد المعرفة الجغرافية التى تقدمت مسيرتها ونمت أرصدتها فى ظل التفوق الفكرى الاسلامى • بل لقد وضع ذلك كله بدايات مبكرة مهدت ورشدت حركة الكشوف الجغرافية الكبرى التى تولى أمرها الاجتهاد والجغرافى الأوروبى اعتبارا من القرن الخامس عشر الميلادى •

وهناك مثــل كاشف لمعنى ترشيد حركــة الكشــوف الجغرافيــة الكبرى ، نضربه لأولى الالباب لعلهم يعقلون • والمثل الذى نعنيه بالفعل ، هو المثل الكاشف عن مدى معرفة الحضور اليمنى المغترب فى جنوب شرق آسيا ، بالأرض الجنوبية التى كانت مجهولة وباتت معروفة الآن باستراليا • وكانت هذه المعرفة بتلك الأرض قد تكشفت للرحلة البحرية العربية فى وقت سابق للقرن الثانى عشر الميلادى • وما من شك فى أن تسرب هذه المعرفة من بين شفاههم فى سياق رواية أو حوار كان اعلاما صريحا عن أرض مجهولة فى موقعها الجغرافى فى نصف الكرة الجنوبى • ولقد أصبح هذا الاعلام الذى أعلنه ماركو بولو بعد سنة ١٢٩٥(٢٢) دعوة صريحة وصيحة نادت على كل المغامرين وحفزتهم للكشف عن هذه الأرض واماطة اللثام عنها •

وصحيح أن هذا الاعلام الصريح وتلك الصيحة كانت من قبيل الشائعة التى لا تضع المعرفة الجغرافية فى مواجهة الحقيقة مباشرة • ولكن الصحيح أيضا انها فجرت الاهتمام ولفتت الانظار وحددت بداية الطريق أو الدرب التى سارت عليه رحلات الكشف الجغرافى عن الأرض المجهولة • وهذا هو الواقع الذى يجب أن نتصور أنه قد بصر بهايم وهو يصمم كرة نورمبرج المشهورة فى سنة ١٤٩٢ ويضمنها امتدادا للارض المجهولة فى جنوب المحيط الهندى • كما تضمنت الكرة التى صنعها هنت لينوكس فى سنة ١٥١١ وبين عليها توزيع اليابس والماء تصورا غامضا للارض المجهولة (استرالية) فى جنوب شرق آسيا • بل لقد صورت خريطة رسمت فى سنة ١٥٣٦ تحت رعاية هنرى الثانى وبتمويل منه هــذه الأرض المجهولة فى شكل جزيرة تحت اسم جاوة الكبرى •

وما من شك أن هذا الاجتهاد الذى عكف على تصور موقع هذه الأرض المجهولة قد عبر عن تأجج ارادة الكشف الجغرافى عنها • وما كان من شأن

---

(٢٢) الشامى صلاح الدين : استراليا — القاهرة ١٩٦٤ صفحة ١٠ — ١١ •

كل الرحلات التى توالت وهى تطلب الكشف الجغرافى عن الأرض المجهولة اعتبارا من القرن السادس عشر الميلادى أن تبدأ من فراغ ٠ واذا كان الحضور اليمنى المغترب قد عرف طريقه اليها من غير أن يكترث بتأكيد هذه المعرفة واضافتها الى الرصيد الجغرافى لأن جذوة التفكير الجغرافى العربى كانت قد خبت ، فان اعلامهم عنها الذى اشاعه ماركو بولو(٢٣) هو التجسيد الحى لمعنى التفتح الجغرافى العربى الذى بصر وبموجبه بدأت به رحلات الكشف الجغرافى عن استراليا ٠

وصحيح أن الحضور اليمنى المغترب قد فجر ارادة الكشف الجغرافى عن استراليا ورشد هذه الارادة ولكن الصحيح أيضا أن ما ادلى به هذا الحضور اليمنى المغترب يمثل عطاء خدم التفتح الجغرافى فى حدود عدم التفريط فى تفاصيل المعرفة الجغرافية ٠ وعدم التفريط دليل لا يضل ولا يضلل عندما نستشعر معناه ومغزاه ومرماه فى اطار الحرص على المصلحة المباشرة لهذا الحضور اليمنى فى رحلة وتجارة عالم المحيط الهندى ٠ وهذا معناه استمرار الميل الى عدم التفريط فى المعرفة الجغرافية الا بمقدار ، أو الا الى الحد الذى لا تتضرر منه مصالحهم التجارية ٠

وبهذا المنطق ، يمكن أن نتصور التفتح الجغرافى فى هذه المرحلة وكيف كان تحكمه ضوابط تمليها مصالحهم التجارية قبل اى شىء آخر ٠ والتفتح الجغرافى الذى تحكمه ضوابط يكون تفتحا رزنيا الى أبعد الحدود ويكون عطاءه عطاء متزنا وملتزما ٠ والا فكيف نفسر خلو التراث الجغرافى الذى أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى العربى الاسلامى من تفاصيل وصور الرؤية الجغرافية الواضحة عن عالم المحيط الهندى ؟

---

(٢٣) استل ماركوبولو وهو فى طريق عودته فى سنة ١٢٩٠ من رحلته فى الصين ومروره ببعض جزر جنوب شرق آسيا هذه المعلومات من حوار بينه وبين بعض التجار العرب ٠ ولقد ورد ماركوبولو من الأرض المجهولة ذكرا شيقا عندما قال انها جاوة الكبرى وانها جزيرة من أكبر جزر العالم وانها تقع فى جنوب جزيرة جاوة ٠ وقص فى ذكره عنها انها أرض استقطبت اهتمام التجار العرب ٠ ويبدو أنها عرفت شكلا من أشكال الحضور اليمنى المغترب ، حيث كانت مخازن كبيرة لتخزين التوابل وغيرها من السلع التى تخصصت الرحلة البحرية فى نقلها والاتجار بها ٠ وهذا معناه أن الرحلة البحرية العربية كانت تصل بشكل منتظم الى هذه الأرض وفى اعتقادى أن الحضور اليمنى المغترب على ساحل هذه الأرض الشمالى قد تمثل فى فريق مقيم تولى حراسة المخازن والسهر على محتوياتها ، وفريق غير مقيم كان من شأنه أن يفد اليها مع كل رحلة بحرية فى الغدو والمرواح ٠

وما من شك فى أن انكشاف بعض أطراف من المعرفة الجغرافية عن عالم المحيط الهندى قد أوقع الحضور اليمنى المغترب والرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى فى الورطة أو فى ورطة المنافسة مرتين . وكان عليه فى كل مرة أن يدفع الثمن سواء كان التورط على غير ارادته أو كان التورط بكامل ارادته .

وفى **المرة الأولى** كان التورط على غير ارادته بكل تأكيد . بل أن التسلل الرومانى الى المحيط الهندى كان بناء على تسلل وسطو على أطراف من المعرفة الجغرافية التى تستر عليها الحضور العربى المغترب . وكان التورط فى هذه المنافسة تورطا حافزا نصر الحضور العربى المغترب وشد أزره ووسع دائرة اهتمامه ونشاطه فى جنوب شرق آسيا .

وفى **المرة الثانية** كان التورط بكامل ارادته . بل ان الاقتحام الأوروبى الذى سيطر على المحيط الهندى كان بناء على انكشاف اطراف من المعرفة الجغرافية عن عالم المحيط الهندى فى ظل تفتح جغرافى حبذه الاسلام . وكان التورط فى هذه المنافسة تورطا خطيرا ساق الحضور اليمنى المغترب الى حضيض الضياع وسوء الأوضاع .

والكشف الجغرافى عن رأس الرجاء الصالح ، فتح الباب على مصراعيه لكى يتأتى الاقتحام الاوروبى للمحيط الهندى . ولقد صاحبت روح الاقتحام الأوروبى للمحيط الهندى ارادة الكشف الجغرافى عن عالم المحيط الهندى. وصحيح أن معرفة الحضور اليمنى الجغرافية قد رشدت حركة الكشوف الجغرافية التى تولى أمرها الأوربيون . ولكن الصحيح أيضا أن هذه التحركات الأوروبية قد زجت بالحضور اليمنى المغترب فى المنافسة وفرضت عليه التورط فيها .

ولأن الاقتحام الأوروبى كان منطويا على حقد صليبى تحولت المنافسة مع الحضور اليمنى المغترب الى معركة . وصحيح أن الحضور اليمنى المغترب خاض المعركة القتالية وصحيح أن بعض الدول الاسلامية قد هبت لنصرة هذا الحضور . ولكن الصحيح أن دول ودويلات العالم الاسلامى وقد تردت فى حضيض الضعف لم يكن بمقدورها أن تنصر أو أن تنتصر . ومن ثم تبدلت الأوضاع وخرج الحضور اليمنى المغترب وخرجت الرحلة البحرية العربية من حوالى القرن السادس عشر من هذا الميدان الذى تحول الى حلبة منافسة وصراع بين الدول الاوروبية .

المصادر والمراجع

أولا : الكتب العربية :

١ ــ ابراهيم أحمد زرقانه : الجغرافية التاريخية ــ القاهرة ١٩٦٦ .

٢ ــ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الاسكندرية ١٩٧٣ .

٣ ــ أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول القاهرة ١٩٦٥ .

٥ ــ أحمد حسين شرف الدين : اللغة العربية فى عصور ما قبل الاسلام ــ القاهرة ١٩٧٥ .

٥ ــ دكتور أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ــ القاهرة ١٩٦٣ .

٦ ــ دكتور أحمد فخرى : اليمن ، ماضيها وحاضرها ــ القاهرة ١٩٥٧ .

٧ ــ دكتور اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ــ القاهرة ١٩٢٩ .

٨ ــ الهمدانى (أبو محمد الحسن) : صفة جزيرة العرب (تحقيق الاكوع) ــ الرياض ١٩٧٤ .

٩ ــ جورجى زيدان : العرب قبل الاسلام ــ بيروت سنة ١٩٦٨ .

١٠ ــ دكتور جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (عشرة أجزاء) بيروت ١٩٦٨ ــ ١٩٧١ .

١١ ــ حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ــ القاهرة ١٩٤٦ .

١٢ ــ حسن صالح شهاب : فن الملاحة عند العرب ــ بيروت ١٩٨٢ .

١٣ ــ دكتور حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ــ الاسكندرية ١٩٧١ .

١٤ ــ دكتور خليل يحيى نامى : اصل الخط العربى وتطوره الى قبل الاسلام (مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ١٩٣٥ .

١٥ ــ د. سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ــ بيروت ١٩٧٥ .

١٦ ـ سعيد الافغانى : أسواق العرب ـ دمشق ١٩٦٠ ٠
١٧ ـ د٠ صالح أحمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب ـ ط بغداد ١٩٥٩ ٠
١٨ ـ د٠ صلاح الدين الشامى : الموانى السودانية (الألف كتاب) ـ القاهرة ١٩٦١ ٠
١٩ ـ د٠ صلاح الدين الشامى ، فؤاد الصقار : جغرافية الوطن العربى الكبير ـ الاسكندرية ١٩٧٥ ٠
٢٠ ـ د٠ صلاح الدين الشامى : جغرافية العالم الاسلامى ـ الاسكندرية ١٩٨٢ ٠
٢١ ـ د٠ حسام سعيد النعيمى : القرآن واللهجات العربية (رحلة فى الفكر والتراث) ـ بغداد ١٩٨٠ ٠
٢٢ ـ د٠ صلاح الدين الشامى : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ـ القاهرة ١٩٨٢ ٠
٢٤ ـ د٠ عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ـ القاهرة ١٩٤٧ ٠
٢٥ ـ د٠ عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ـ بيروت ١٩٦٤ ٠
٢٦ ـ طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ـ بغداد ١٩٥٦ ٠
٢٧ ـ د٠ محمد السيد غلوب : الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠
٢٨ ـ د٠ محمد عبد القادر : الساميون فى العصور القديمة ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠
٢٩ ـ مطهر على الاريانى : فى تاريخ اليمن ـ القاهرة ١٩٧٣ ٠
٣٠ ـ د٠ محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العلاقات القديمة (مجلة كلية اللغة العربية) ٦ ـ الرياض ١٩٧٦ ٠
٣١ ـ د٠ لطفى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٧٩ ٠
٣٢ ـ د٠ محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ـ الرياض ١٩٧٧ :
٣٣ ـ نسيب وهبه الخازن : من السامية الى العرب ـ بيروت
٣٤ ـ نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ـ ط ٣ ـ دمشق ١٩٧٢ ٠
٣٥ ـ يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ـ القاهرة ١٩٣٥ ٠
٣٦ ـ يسرى الجوهرى : الانسان وسلالاته ـ الاسكندرية ١٩٧٤ ٠
٣٧ ـ جورج فضل حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة

يعقوب بكر) ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

٣٨ ـ برنارد لويس : العرب فى التاريخ (ترجمة نبيه فارس ومحمود يوسف) ـ بيروت ١٩٥٤ ٠

٣٩ ـ سبتنو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة (ترجمة يعقوب بكر) ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

٤٠ ـ فيليب حتى : تاريخ العرب (ترجمة ادوارد جرجس وجبرائيل جبور) ـ بيروت سنة ١٩٦٥ ٠

٤١ ـ ول ديورانت : قصة الحضارة ـ ج ٢ ـ (ترجمة محمد بدران)ـ القاهرة ١٩٦١ ٠

٤٢ ـ محمد عبد القادر محمد : العلاقات المصرية العربية فى العصور القديمة ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ـ الرياض ١٩٧٩ ٠

٤٣ ـ مصطفى عامر : حضارات عصر ما قبل التاريخ فى الحضارة المصرية ـ

٤٤ ـ محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ـ القاهرة سنة ١٩٦٦ ٠

٤٥ ـ محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ـ الاسكندرية١٩٥٥٠

ثانيا : الكتب الأجنبية :

1. Glimen, H. : The Prehistory of Africa, London 1952.
2. Amer, M. : The Ancient Trans-Peninsular Routes of Arabia, Cairo 1926.
3. Albright, W.F. : Faom the Stone Age to the Christianity New York, 1957.
4. Burkitt, M. : Prehistory, Cambridge, 1936.
5. Cooke, G.A. : A Text-Book of North-Semetic Inscriptions, Moabite, Hebrew Pheonician, Aramic, Nabataean, Palmyrene, Tewish, Oxfrod 1903.
6. Cronwall, P.B. : Ancient Arabia Gl. CVII, 1946.
7. Childe, V.G. : Social Evaluation, London, 1951.
8. Childe, V.G. : New Light on the most Ancient East, London, 1954.
9. Childe, V.G. : What Happened in History, London, 1941.
10. Childre, V.G. : The most Ancient East. London, 1928.
11. Coulborn, R. : The Origin of Civilized Societies, London, 1959.
12. De Gaury, G. : Rulers of Mecca, London, 1951.
13. Dougherty, R.P. : The Sealand of Ancient Arabia New Haven, 1932.
14. Driver, G.R. : Semitic Writting, London, 1954.
15. Dussand, R. : Les Arabes en Syria avant L'Islam, Paris 1907.
16. Forster, C. : The Historical Geography of Arabia 2 Vols., London.
17. Haddon, A.C. : The Races of Man, Cambridge, 1924.
18. Huzzayin, S.A.S. : Arabia and Far East, Cairo 1942.
19. Huzzayin, S.A.S. : Changes in Climate, Vegetation and Human Reference to the Sahara Arabian Belt with a Special Reference to Africa In Man's Role in changing the Face of the Earth, Chicago 1956.
20. Leakey, L.S.B. : Adam's Ancestors, The Evolution of Man and His Culture. New York. 1960.
21. Levi Della, Vide, Pre-Islamic Arabia, Princeton, 1944.
22. Moseati, S. : The Semites in Ancient History Cardiff, 1959.
23. Moscati, S. : Ancient Semitic Civilizations, London 1957.
24. Rostootzeff, M. : Carevan Cities Oxford, 1932.
25. Schoff, W. : The Periplus of the Erythrean Sea. London, 1912.
26. Vincent, W. : The Principles of the Erythreon Sea, London 1805
27. Wolley, L. : The Begimrings of Civilization, New York. 1965.
28. Zemer, F. : The Plesitorene Period, London, 1959.

المحتويات

رقم الايداع ١٩٨٣/٣٣٨٨
الترقيم الدولى ٢ - ٠٧٥ - ١٠٣ - ٩٧٧

مطبعـة أطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٧٤٧٧٩٧ - القاهرة